قريباً من بهاء طاهر

مع أوراق وهمّ..

البهاء حسين

تقديم : محمود أمين العالم

المجلس الأعلى للثقافة

إهــــــداء ٢٠٠٦
المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

قريباً من بهاء طاهر..

محاورات وملامح

البهاء حسين



٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : قريباً من بهاء طاهر .. محاورات وملامح

اسم المؤلف : البهاء حسين

الطبعة : الأولى / القاهرة ٢٠٠٤م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

تقديم

لا أستطيع أن أتجاسر على القول بأن أديبنا الكبير بهاء طاهر ، لو حاول أن يكتب سيرته الذاتية لما كانت أفضل من هذا العمل الذى يقدم لنا سيرته الذاتية خلال التحاور معه الذى قام به الأستاذ البهاء حسين . لا شك أن هـذه السـيرة الذاتيـة لو كتبت بقلم بهاء طاهر نفسه ستكون امتداداً إبداعيًا لكتاباته القصصية ، وقد ينقصها بعض التفاصيل والعناصر العادية والأحداث العابرة والعلاقات الإنسانية التى قد لا يجد ضرورة فنية فى ذكرها ، أو يمنعه تواضعه ورهافته الشعورية عن ذلك .

على أنى أقول بغير تحفظ إن هذا الكتاب الذى يقدم لنا السيرة الذاتية لبهاء طاهر فى شكل حوارات مطولة وتفصيلية ، ومختلفة المجالات والآفاق والاهتمامات والمواقف ، تقدم لنا صورة شاملة تجمع بين تفاصيل دقيقة لحياة أديبنا الكبير ، فضلاً عن كشف أسرار بعض أعماله وقيمه الإبداعية . وعلاقاته الإنسانية ورؤاه السياسية والاجتماعية وأذواقه وخلفياته ، مما يجعلها وثيقة بالغة الإحاطة والتعمق لسيرة أديبنا الكبير الحياتية والإبداعية .

والملاحظ أن الأستاذ المحاور "البهاء حسين" على معرفة محيطة وعميقة بحياة أديبنا الشخصية فضلاً عن دقائق أعماله الإبداعية ، نتبين هذا من خطته التى رسمها للحوار معه ، سواء فى مجال الحياة أو مجال الكتابة ، فضلاً عن مقدمته [فيما يشبه المقدمة] التى عرض فيها الرحلة الطويلة العميقة إلى بهاء طاهر لاستكمال معرفته الوجدانية والتذوقية والعقلية به إنسانًا وكاتبًا ومواطنًا مصريًا عربيًا ، هذا إلى جانب لغته الأدبية الرقيقة التى تكشف عن أديب مبدع لا مجرد محاور صحفى ؛ ونتبين هذا بوجه خاص فى نفسه لجلساته المختلفة مع بهاء طاهر إلى موضوعات متصاعدة إلى آفاقه الحياتية والمعرفية والإبداعية المتنوعة وملاحقاته فى بعض التفاصيل الدقيقة الخاصة والعامة بادئًا من مسقط رأسه وعائلته وملاعب صباه والمصادر الأولى لقيمه وثقافته ، منتقلاً معه فى كل جلسة من الجلسات مع المراحل والآفاق المختلفة من تنميته الثقافية ومشاركاته الحياتية والسياسية والفكرية ، فضلاً عن الإبداعية التى يحرص أن

يعرض فيها لبعض نصوصها ، فضلاً عن مناقشة دلالاتها وما وراءها من رؤى وقيم أخلاقية ، ووطنية وفكرية وجمالية واجتماعية وإنسانية عامة .

وفى هذه المحاورات لا تتكشف لنا هذه الأبعاد المختلفة لبهاء طاهر إنسانًا وكاتبًا ومفكرًا صاحب موقف فحسب ، بل نكاد نعيش معه تاريخه الخاص الذاتى بل التاريخ الوطنى الهام ، كذلك لمصر فى تجليه السياسى والفكرى والأدبى والفنى فضلاً عن التاريخ العام لعصره كله فى تجليه السياسى والفكرى والأدبى كذلك .

ولهذا يكاد هذا الحوار الشامل العميق المتعدد الآفاق مع بهاء طاهر أن يكون على حد تعبير المحاور الأستاذ البهاء حسين "أعظم رواية كتبها بهاء طاهر على الإطلاق" . على أنه إذا كانت هذه الرواية تنتسب بحق إلى بهاء طاهر إفضاء مضمونًا، فإنها تنتسب فى بنيتها وتسلسها إلى المحاور المثقف الأديب البهاء حسين . وهو عمل مشترك ممتع ومبدع ينتسب إليهما معًا ، وهو جدير بغير شك بالنشر . وإن كانت لى ملاحظتان : الأولى ملاحظة جزئية تتعلق بقول الأستاذ بهاء فى حواره صفحة (٥٣) "بأن اتفاقية الجلاء كانت تنص على أن تكون للإنجليز قاعدة عندنا" . وفى حدود معرفتى أنه ليس فى اتفاقية الجلاء مثل هذا النص . ولكن النص الموجود هو دون أن أتذكره بحذافيره أنه إذا هاجم السوفييت تركيا فيمكن للجيوش البريطانية أن تعود إلى موقعها فى منطقة قناة السويس" وأذكر أن هذا النص كان من العوامل التى دفعت جانبًا من الشيوعيين المصريين إلى رفض وإدانة حركة الجيش فى بدايتها . على أن هذا النص كان نصًا شكليًا وكان احتماله بعيدًا ، أما واقعيًا فقد خرج من مصر دون رجعه ٨٠ ألف جندى بريطانى كانوا يمثلون قاعدة عسكرية للاحتلال والسيطرة البريطانية على مصر .

أما الملاحظة الثانية فهى أن الحوارات تتخللها بعض الكلمات والتعابير العامية داخل السياق العربى الفصيح . وفى تقديرى أنها لم تكن تبتعد عن الطابع الفصيح العام للحوار بل كانت تعمقه وتضفى عليه حيوية ومصداقية وعمقًا .

ولهذا لا أنصح "بتفصيحه" ، بل هو بعاميته أكثر فصاحة فى سياقه ولا يحتاج إلى مزيد من التفصيح . وأتمنى ألا يكون فى هذه العامية الوظيفية وليست التعبيرية ما يدعو إلى تغيرها أو يحرم هذا العمل المبدع الجميل من أحقيته بل كفاءته واستحقاقه للنشر ضمن مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة .

محمود أمين العالم

الإهداء

لـ :

عبد القادر حميدة ، نصار عبد الله ، عبد المنعم رمضان ، محمود عبد الوهاب ، يسرى حسان ، محمود قرني ، فارس خضر ، أسامة الرحيمي ، سعد القرش ، حسن عبد الموجود ، سالم عبد السلام ، مصطفى الضبع ، هشام علوان ، عادل إسماعيل ، سامح الأسواني .. وأصدقاء آخرين ..

شركاء في حب بهاء طاهر .

« ... ولما المرآة ذهبت .. ولما تفرق الذين اجتمعوا حولى .. ولما وجدت نفسى وحيداً اكتملت فى تمامى . ولما كنت أنت إلهى وأنا صفيك .. أنت النور وأنا صدى النور .. أتملى فى ذاتى فأراك وأتملى فيك فأرانى فإنى بعيداً عن الآحاد جئت لتكون واحداً أنا وأنت . الآن ولم يبق وقت وبقى الأبد . الآن أناجيك فتعرفنى . أدون سرى بعيداً عن الأعين لعينك أنت فتعرفنى . أتطلع إلى قرصك اللامع الذى يرقب من السماء كل شىء وأنقش على الصخر سرى : أنى حزين » .

« أنا الملك جئت »

« فيما يشبه المقدمة »

بهاء طاهر ، الآن ، لماذا ؟

الرجل والسؤال شغلت بهما طويلاً ، وفى مثل سنى لا يشغل المرء شىء بلا مبرر .

هل كنت أبحث فيه عن أب لحياتى ! هو وحده أريد أن أراه من قريب ، وأن أحكى معه عن أى شىء ، وكل شىء .

أعرف أن رغبتى هذه لا تهم أحداً غيرى ، وقد تكون بلا معنى خاصة ، أن حوارات عديدة أجريت معه ، تناولت كل شىء عنه ، تقريباً ، أو هكذا يخيل إلىّ . لكنى حين قرأتها شعرت أكثر أننى أحتاج أن أحكى معه .

لماذا لا يحاوره محب مزعج ؟ هكذا تساءلت !!

على ذكر الحب . أتذكر أنه قال لى : أنا لست من الشخصيات الجاذبة للعداوة . وقتها حسدته وكنت واقعاً فى حبه من زمن . حينما قرأت « الحب فى المنفى » .

وفى هذه المحاورات الطويلة والمرهقة ، أكتب ملامحه .. ملامح الروائى الذى يحمل عنا عبئاً حقيقياً .. اسمه روح العالم .

* * *

فى صباح دافئ توجهت إلى بناية فى الزمالك يسكنها بهاء طاهر .

وردة أو وردتان كانت فى يدى وأنا أصعد إليه فى الدور الحادى عشر محباً ومتوجساً .. هل تخدم عيناى قلبى !!

والآن ، وقد مضت سنة ، أسأل نفسى .. هل هذا الكاتب الحزين لغز كنت أريد أن أحلّه !

لماذا أخذت على عاتقى أن أؤكده بالحوار .. مسافة التعاطف الحميمة ! أسأل .. هل حقاً أصبحت « قريباً من بهاء طاهر » ، وأستطيع أن أكتبه فى كتاب !

كيف أفسر لنفسي هذا الشعور .. أسافر إليه من مرسى مطروح وأحاوره ، ساعتها أحس أنه واضح وأنني أعرفه وأحيط به ، وبعد قليل .. ريثما أخرج إلى الشارع ، أفتش حيران عنه .. عن حقيقته ، عن مفتاح أمسك به ، ولا أفلح !

هل أفتش عن آثار حضارة قديمة وموغلة في الغموض ! هذا الرجل واضح جداً وسرى جداً ، أليس كذلك ! إن أشياء في شخصيته وحياته ستظل بعيدة عني . هكذا أقول لنفسي ، ولا أقتنع ، فأرجع - من جديد - أبحث عن بهاء طاهر . قرأت كتبه كلها ، وسألت كثيرين عنه - وواجهته .. هل أنت نبيل وعظيم ! واقتنعت ، لكنني لعنته ؛ لأنه أتعبني وما زال بعيداً كما يريد !!

كم مرة سألت نفسي عن سره . كم مرة !!

حسناً ربما كان عليَّ أن أهدأ ، لأمسك الخيط من أوله ......

أحببت - منذ زمن بعيد - المتنبي ويحيى حقي والمازني والعقاد وعلى أدهم وأحمد بهاء الدين ومحمد حسنين هيكل وآخرين . والآن ، في أبريل ١٩٩٦ ، أحب معنى جديداً هو بهاء طاهر . آخر طبعة ، أو توليفة عصرية رائعة من هؤلاء جميعاً . إنه وحيد وشديد الكبرياء وعابر كبير . وهو ابن حقيقي للحضارة المصرية ، قد نختلف في تقييم الحساب النهائي له .. إنساناً وكاتباً ، لكنه يبقى كدليل حي يقوى ثقتنا في أنفسنا ويمنحنا قدراً هائلاً من الثقة في قدرات الفرد على احتمال الحياة .

باختصار .. هو بهاء طاهر ، ببساطته الباهرة وعمقه ، بروحه اليقظة دائماً . ثم إنه شخص حزين قبل أي شيء آخر !

أتذكر أني فتنت « بالحب في المنفى » حين قرأتها في ٢٨ أبريل ١٩٩٦ .

أتذكر - جيداً - تلك الرغبة العارمة في تحطيم العالم وإعادة ترتيبه على هواي . لماذا يطاردنا الحزن هكذا ، ولماذا يتحتم على الحب - دائماً - أن يموت ! ولم أجد عند أحد إجابة .

كانت هذه الرواية الأمثولة أو « كاملة الأوصاف » علامة فارقة . قبلها كنت أقرأ عنه وأرصد - عن قريب - صديقي إيهاب دكروري ، يحبه ويتحدث عنه بشره لا حدّ له .

كنا – أنا وإيهاب – نحب أنفسنا وبعضنا البعض ببراءة وعنف شديد ، ونرغب – فى نفس الوقت – عما نحبه بصدق واستهانة مدهشة . نرغب عن أنفسنا وعنا ، كأن بيننا شخصًا – غير مرئى – يحبك مصادفات ومواقف غريبة تحول دون الانسجام إلاّ لبعض الوقت ، والاختلاف الحاد – أيضًا – بنفس القدر ! شخصًا ما يسكننا ويحرض فينا صبوة مسعورة للفهم والتفتيت .. ما حدث لنا وبيننا وما سيحدث .

عن نفسى أنا هكذا .. وحيد تماماً ، وخلفى – دائمًا – كل أحزان الطفولة .. تطل من رأسى ، وأحاول أن أتدارك حياتى بافتعال سلام بينى وبين نفسى ، وبينى وبين الناس ، لكنه لا يجىء ! وبأحلام لست على يقين من أمرها ! .

ما الذى يمكن أن يحدث أسوأ من ذلك !!

أبى مات ، لم تكن أُمى قد أكملت العشرين من عمرها حين مات . أربعة أطفال ، أكبرهم بنت فى السابعة وأصغرهم أنا .. فى السنة الأولى ، أصبحنا فى العراء ، لا نملك سوى بيت طينى صغير ، ما زال هناك فى أخميم . والحق ، لقد ترك وراءه أرضًا كان يمكن أن تغير حياتنا لولا أن اغتصبها أعمامى وأولادهم مباشرة بعد موته الفادح !

هل هناك إذن شىء أسوأ من ألا ترى أباك ، أليس بشعًا أنك لا تملك ذكرى معه ، أو حتى صورة شخصية له !

المهم ، ها هو الشاب ، بائع الحلوى القديم المحاصر ، دون مبالغة أو رغبة فى إثارة العطف ، بأحلامه وبغير قليل من العداوات والأحقاد الصغيرة والمطبات فى كل منعطف !

ها هو الآن فى المنيا – خريف ١٩٩٣ – طالبًا بتمهيدى الماجستير ، يبحث عن نفسه – كالعادة – وعن شخص له نفس الملامح .. القلق والشغف بشىء كبير ، وقد وجده .

كان أحمد بهاء الدين طريح سكوت مطبق انتهى بالموت . ويحيى حقى كان قد مات فعلاً ، ولم يبق أمامنا – أنا وإيهاب – غير أن نواصل القلق والبحث عن الشىء الكبير .

كنا نفتش فى أنفسنا ، وفى الكتب ، وفيما حولنا عن أحد يمد لنا يده ، لينقذنا من جلبة فى داخلنا لا تحتمل ، احتجاجًا على كل الموجودين . وعلى الفوضى التى تحت السماء . كنا نريد شخصاً كبيراً .

أنا ارتحت حين وجدت رفيقًا اسمه « على أدهم » .. من زمن كنت أحتمى به ، لكنه ميت !

أما إيهاب ، فقد وجد ضالته فى « بهاء طاهر » ، واعتبره كاتبه الشخصى والأب الضد . طبعًا لم نكن تبحث عن أب بالمعنى الحقيقى ، بل كنا نفتش عن شىء نحتمى به من واقع موحش لا نجم فيه أو ضوءاً ينير ولو من بعيد ! .. عن راءٍ نتلمس لديه الحكمة والطمأنينة ، وتعلقت آمالنا الأخيرة بالروائى الذى لم نستطع انتزاعه من أفكارنا أبداً . ما معنى هذا كله . بهاء طاهر كاتب ، وفى الدنيا كُتَّاب غيره ! فما الذى شغلنا به إلى هذه الدرجة ! ولماذا أشغل القارئ معى بقصة إعجاب قد تبدو رومانتيكية بلا معنى . لكنها ليست كذلك . إنها – فى الحقيقة – قصة إعجاب بالقيمة ، بالموقف ، والدور .

ولبهاء طاهر معانى كثيرة أخرى ، منها الفن الرفيع واحترام الذات . ثم إنه أعطى الحياة كثيراً ، وكان – دائمًا – فى الجانب الخاسر . وفيما بعد اكتشفت إحساسه اليومى العميق بأنه مؤتمن على رسالة .. رسالة حقيقية مكلف بها من الناس ، ومن أجل الناس . هى الحب العظيم للحياة والبشر !

سكتنا عن بهاء طاهر فترة طويلة ، كأننا نعاقب أنفسنا ، أو نعاقبه ، على التلاشى أمام روعته بهذه السرعة ، روعته على الورق ، وفى ملمس الاسم والتاريخ .

ترى كيف يكون فى الواقع ، هل نراه قريبًا ، وجهًا لوجه .. نتكلم معه ونكون أصدقاء . فى الحقيقة لم نسع لذلك ، لكنها المصادفة . ففى أواخر ١٩٩٨ ، كنت أفكر فى موضوع يصلح أطروحة للدكتوراه . كنت فى بنى سويف ، أحضر مؤتمراً هناك ، وبالليل شردت ممن حولى ، أفكر فى موضوع يستحق الكتابة ! وفاجأنى إيهاب ، قال : ما رأيك ، وعرفت ماذا يقصد . غريبة ، كنت أنا أيضًا – فى نفس الوقت – أفكر فى بهاء طاهر . وهكذا كان حتميًا أن أراه .

أخذت من صديقى رقم الهاتف ، وكتبته بتدفق على ظهر رواية « قالت ضحى » كانت نسخة مكررة عنده ، كتبت الرقم صاعداً إلى أعلى – لا أدرى لماذا – ٣٤١٠١٣٩ (الآن ٧٣٦٠١٣٩) ، وحين عدت إلى مطروح طلبته ولم يرد ، ظللت شهرين أطلبه ولا يرد أين هو ومتى يأتى ، لا أحد يعلم . كنت أقرؤه بالليل وأطلبه بالنهار ، ولا يرد ، ثم عرفت أنه فى سويسرا ، وفى يوم فوجئت بصوته .. صوت عريض يخرج راكضاً من الأعماق ، عرفته بنفسى معتذراً عن الإزعاج ، كان الوقت عصراً ، والرجل شديد التهذيب يدارى النوم . أخبرته بما أريد ، واتفقنا على موعد ترك لى حرية تحديده .

واليوم ١٣ ديسمبر ١٩٩٨م ، كنت عائداً لتوى من المنصورة ، سعيداً ، فالصباح دافئ ، وفى السماء مزق من سحاب أبيض جميل .

اتصلت به من إمبابة ، وبعد قليل رأيته . تم ترتيب البرنامج فى ذهنه على أننى مجرد باحث همه الحصول على الدرجة ، لاحظت ذلك من إهداء على أحد كتبه ..

« إلى د/ بهاء حسين ، مع أطيب أمنيات النجاح والتوفيق » .

هكذا !!

إهداء محايد بحجم اهتمامه بالمسألة . ولم أكن كذلك ، لست باحثًا ولا تعنينى الدكتوراه ، أنا شاعر قبل أى شىء ، ثم كيف لا يدرى ! ماذا أقول له ، هل أحكى عنى وعن إيهاب .. عن حبنا له ، كيف أرهقنا وماذا صنع بحياتنا ! .. كيف لا يدرى !

كنت أظن أن الحب الذى أحبه له ، سيجعله يحس – من بعيد – بحالى . ألا يحس الناسك بحال المريد ! كيف يكتب لى مثل هذا الإهداء الماسخ ! لم أقل شيئًا ، ولم أجرؤ على سؤاله .. هل قرأت لى شيئًا يا أستاذ !

وخرجت من عنده . أتذكر ، مسحوبًا إليه أكثر فأكثر بمشاعر لا أكاد أتبينها . مشاعر مبهمة ، عميقة وهائلة ! وهو ، هل حاول التفكير فىّ !

ولكن . لماذا ينشغل بى . أنا مندهش ، بل ليس هناك من يدهشه ذلك أكثر منى !، ولا أبالغ .. يا إلهى ، ماذا يحدث ! ما الذى ربطه بوجودى ، ولماذا أحاول – بكل هذا الإصرار – أن أفهمه !

من أين أبدأ كي أفهم رجلاً لا يهب نفسه كلية لأحد ، ولا يتورط بسهولة . ثم إنه يتكلم ويتكلم ولا يقول - فى النهاية - إلاّ ما يريد !

طالما تصورته كشخصية هربت لتوها من مأساة يونانية واستقرت هناك .. فى (١١٠ شارع ٢٦ يوليو بالزمالك) . إنه متفرد وحافل بالغنى والتنوع ، وأنا لا أريد أن يكون كلامى عنه تراتيل فى محرابه . ماذا أفعل . حسناً ، سأتكلم دون ترتيب أو تزويق .

أبدأ باليوم الذى استولت علىّ فيه فكرة هذا الكتاب ، وأصبح - من ثم - لزاماً علىّ أن أكتبه ، رغم علمى أنه ليس من السهل أن تكتب عن رجل غير قابل للانصهار فى قالب ، ومستعص على التحليل .

لم تكن فكرة الكتاب مجرد فكرة عادية عن حياة وآراء كاتب مرموق ، بل كانت شيئاً حميمياً يتعلق بى . إننى - بهذا الكتاب - أحاول أن أفهم العلاقة بين بهاء طاهر الذى قرأته ، وبهاء الذى يعيش بيننا .

حين خرجت من عنده ، أتذكر ، لم أكن مقتنعاً بشكل العلاقة بالمرة ، ولا متفائلاً بمستقبلها إذا استمرت بين باحث وروائى . ولم أكن قد فكرت فى شىء بعد ، يجعلنى قريباً منه .

وبعد عام - تقريباً - مرت أمامى حياته ، كنت أقرأ حواراً معه ، أو شيئاً عنه ، وفجأة برقت فى ذهنى عبارة « هكذا تكلم بهاء طاهر » فيما بعد بعيداً إلى المنفى مع بهاء طاهر .. و« بعيداً إلى الكرنك .. » وا .. وا . جاءتنى الفكرة فى فجاءة داهمة . قلت : هذا بالضبط ما أريد .. حياة بهاء طاهر فى كتاب . رائع ، وأنا مستعد ، لكن قبل ذلك أستطلع رأيه بالطبع . آلو ؟ كان يستعد للسفر بعد ساعة ، أخبرنى وقال : أوافق مبدئياً لحين رجوعى من بيروت .

متى ؟

بعد ١٠ أيام .

وضعت سماعة التليفون بفرح ، وبدأت فى المشوار .

بعد شهرين كنت معه فى القاهرة أسجل – فى ١ يناير ٢٠٠٠ – أول فصل .

• عقله – على عكس جسمه – مخلوق ينبض بالحياة ، ولا يكف أبداً عن التفكير .

• شخص متماسك ، ومن الخارج سهل جداً أن تكتشف تواضعه وبساطته الآسرة .

• لا يوجد موضوع يصعب عليك أن تحاوره فيه .

• ذوقه الشخصى فى كل ركن بشقته .

• رغم معاناته الطويلة ، إلاّ أنه غير عدوانى على الإطلاق .

• يطارد الرواية ويبحث عنها فى كل مكان .

• واقعى .

• بعينيه نظرة غريبة ، ستظل بالنسبة لى مستعصية على التحليل .

• حزنه الأول ، القديم ، لم يمحه التحقق الأدبى ، ولم تخفف كثافته الراحة المادية أو تمنحه الأمان . إنه حزين حتى النهاية .

• حذر ، شكاك ، وهو فى نحوله أشبه بمسلة فرعونية ، أو هيكل عظمى متحرك . أنفه الكبير نسبياً ، ونظارته التى تخفى نصف وجهه ، تمنحه إلى ذلك شكل راهب فى الأعالى .. ساخر فى وداعة ومنتظر .

• لا فوضى فى شخصيته أو حياته .

• محدث ساحر .

• معتدل المزاج ، لا تنتابه تغيرات مباغتة .

• ليست لديه جمل متفصحة جاهزة لكل مناسبة .

• قرأت .. أن كل إنسان – فى سيرته الذاتية – يعيد على نحو أو آخر ، اختراع نفسه من جديد . لكن بهاء لم يفعل ذلك .

• ما زال وفياً لذائقته التى لا تتعاطف بسهولة مع الكتابة الجديدة . بالذات كتابتى !

- متأنق ، ويمكن للمرء أن يتكهن بذلك من كتابته .

- يحفل بالتقاليد ويحترمها .

- لابد أن تشعر تجاهه بالإعجاب حين تناقشه أو تقترب منه .. الإعجاب بغير حد .

وبهاء طاهر - أيضًا - إنسان حساس ، ثم إنه قادر على الاعتزال .. ذلك الإنجاز المطلق ، دون أن يخلق العداوات . ولا تهمه مظاهر الحياة ، قدر ما تعنيه حقائقها الجوهرية . ولابد أن يؤمن بما يفعل كي تتحرك دوافعه العميقة .

هل قربته لكم !

هذا هو بعد سنة .. عشرة وحوار وإرهاق واختلاف وسفر . والحق لم يطلب منى أبداً أن يطلع على سؤال قبل التسجيل . لقد كانت ذاكرته وحاسته الروائية والتاريخية وأسرار الكلمات ، دائمًا ، تحت أمره . وفى يدى جهاز مفتوح يسجل كلامه ، وعقل بارد شكاك يسجل ملامحه . نشفت ريقه وأزعجته ، بحثًا عن الحقيقة لا حبًا فى التملك . وكان يغرينى فيعرى نفسه أكثر ويوغل فى التقصى معى . هل كان يبحث - هو الآخر - عن حقيقة نفسه !!

وفكرت . إنه من تلك المخلوقات القادرة على التجرد التام ، بحيث لا يمكنك اتهامه !

* * *

حين ولد بهاء طاهر - فى ١٣ يناير ١٩٣٥ - كان العصر مزحومًا حوله بالتناقضات وبالقلق ... سياسيًا واجتماعيًا . ولما كبر كانت فكرة النهوض التى تجسدت فى مشروعات القومية والوطنية.. تلك الأحلام الكبيرة. فى طريقها للانكسار . ولم تلبث أن انكسرت ، وبدأ بهاء رحلة اغتراب لم تنتهى بعد .

كان شاهداً حساسًا على فترة معقدة عاشتها مصر ، ولم تنج حياته من هذا التعقيد !!

فى طفولته عاش تجربة مروعة ، عندما قضت الملاريا على نصف عائلته فى الجنوب . كان طفلاً فى السابعة ، والذين ماتوا لم يكن يعرفهم ، لكنه بكى عليهم حين رأى أباه يبكى ! وعرف الحزن طريقه إلى روحه للأبد . إنه من جيل كان على موعد مع الحلم والحزن والانكسار .

فى أواخر الأربعينيات ، كان هناك فوران شامل . وأبناء هذا الجيل كانوا يحلمون ...كانوا يريدون امتلاك الحياة بالأحلام . أو - بتعبير صلاح عبد الصبور - حاولوا امتلاك المستقبل بالمعرفة ! وحين قامت ثورة يوليو أرادت أن تعيد صياغة العلاقة بين الناس . وأن تنظم أحلامهم ، لكنها لم ترى طريقة لذلك سوى الطريقة التى اختارتها .. حبست عقول الناس فى قفص ، وأطلقت - من جهة أخرى - ملكاتهم . وبدأ الجيل كتابته بالكتابة ضد الثورة . أى ضد أحلامه ! ثم جاءت النكسة فانهار يقين أبنائه بكل شىء . ولم يكن ثمة مهرب من الانهيار إلاّ بالكتابة .

هذا إذن - كما يقول شكرى عياد - « جيل ثورة ١٩٥٢ ، وهذا قدره التاريخى : لقد بدأ اللعب بالقلم حين كان الجو مليئًا بالصياح والتهليل ، وعندما ثبت القلم بين أصابعه كان الجو مليئًا بالصراخ والعويل ، وكان عليه أن يحمل أوزار السابقين ويسير دون دليل » .

أما صاحبنا فكانت لديه أسباب إضافية تغذى إحساسه بالألم وبالتاريخ .

لقد كانت دراما ذلك الإنسان الذى يعمل جاهداً تحت الشمس ولا يحصل على شىء (فكرة العدل) ، كانت تطارده كفكرة وفى الواقع .

أتذكر سخريته المريرة وهو يحدثنى عن الذين عملوا - ليل نهار - فى الترجمة ، وفى التدريب بمصلحة الاستعلامات أثناء حرب ١٩٥٦ ، كان معهم ، ثم أرسلت القيادة - بدلاً منهم - أصحاب المكاتب المغلقة !! الذين لم يعملوا شيئًا على الإطلاق ، إلى أوروبا فى بعثة ترفيهية على سبيل التكريم .

وفى الإذاعة نسى بهاء طاهر « الأديب » بداخله لسنوات طويلة ، فأعطى كل وقته وجهده مذيعًا ومقدم برامج ومخرجًا ، وفى النهاية كان أول المغضوب عليهم ، وحورب فى أكل عيشه حتى اضطر إلى الفرار بكبريائه .

على جانب آخر كانت مشاهد الألم حادة فى تجربة طلاقه وفى اغترابه بعيداً عدة ٢٠ سنة .

لا أنسى قوله لى عن طلاقه والأسى يكسو ملامحه : « مأساة أن عالماً بأكمله يتقوض من حولك » . وقبل ذلك كله ، لم يكن فى مقدوره - وليس فى نيته - أن ينسى أبداً مرارة فقرهم الشديد فى الطفولة . أريد أن أقول : إنه كان يعمل طوال الوقت ولا يحصل على ما يريد . تلك هى دراما الإنسان ، كل يوم ، تحت الشمس ! وبهاء طاهر يؤمن تماماً بالعنصر الدرامى للتاريخ .

التاريخ .. ، لقد كان إحساسه بالتاريخ فى حالة يقظة دائمة !! إنه ينبش فى الماضى ويتطلع إلى الحاضر والمستقبل مستقرئاً التاريخ . وعرفت ماذا يريد .

إن التاريخ - بالنسبة له - ليس هو الأحداث التى حدثت وانتهت ، بل هو الدوافع الحية الممتدة فى اليوم . تلك الطاقة التى تحرض الحياة على استمرارها وديمومتها .

بالنسبة لبهاء طاهر.

عرفت أنه لا يمكن الفصل أبداً بين التصوف والتاريخ !

* * *

حين سئل عن سر اختيار مؤلفات إدجار ألن بو ، ليترجمها إلى الفرنسية ، قال بودلير : « لأننا متشابهان متقاربان . لقد فتننى منذ صفحاته الأولى التى قرأتها له ، فلم أعثر بينها على الموضوعات الى كانت تراودنى فحسب ، بل لقد عثرت بالمثل على العبارات التى كانت تجول بخاطرى ، وكان أسبق منى إلى تسجيلها » .

تذكرت هذا السر ، أو هذا الشبه ، وأنا أتساءل عن الذى يجمع بينى وبين بهاء طاهر .

هو كبير فى كل شىء ، وأنا فى أول الطريق ، هو ناسك وأنا مريد ، هو روائى وأنا شاعر ، هو لف الدنيا وخبر الناس ومختلف التجارب ، وأنا أحاول .

ما الذى يجمع بيننا إذن ؟

أهى الرغبة المحمومة فى الاختلاف عن الآخرين . أهى كراهة التفاهة والتكلف والإدعاء . أهى الحاجة لأن نؤمن بشىء كبير . ربما ، هل يجمعنا الانحياز المطلق إلى المفترض .. أى ما يجب أن يكون ، لا إلى اليمين أو اليسار . جائز . لكن ما أعرفه – يقيناً – أننى – مثله – أحب الليل والحرية وصوت فايزة أحمد . ثم اكتشفت – فيما بعد – أن إيمانه (وأمله) الكامل بأن « شيئًا ما » يجب أن يتحقق هو نفس إيمانى .

لقد كانت « الثقافة » هى القاسم المشترك فى هذه المحاورات . الثقافة ، الثقافة ، دائمًا كان يردد هذه الكلمة ، وفى نفس الوقت كان مولعًا بالتفكير فى « حال مصر » ! كأنه يقول .. إننا لن نحل مشاكلنا إلاّ بالوعى .. بالتنوير .. بـ « أن نتثقف يا ناس » .

كان يحس – إحساسًا شبه دينىّ – أن فى رقبته دينًا تجاه ذلك ، وكنت أشاركه هذا الهم ، وفى رأسى تطن عبارة أندريه مالرو الضيقة « افعل ما يجب عليك » .

وجمعنا – أيضًا – حب أحمد بهاء الدين ويحيى حقّى وروايات « العطر » و « سيد هارتا » . ثم اختلفنا حول « اذهب حيث يقودك قلبك » ، ومفاوضات كامب ديفيد الثانية وقصيدة « النثر » و « رباعية الإسكندرية » والعقاد وهذا الكتاب وأشياء أخرى . وكان لابد أن نختلف . فأنا لا أعتقد – كما يعتقد بهاء طاهر – فى نظرية المؤامرة .. أن الغرب لا همّ له غير إجهاض أحلام العرب ، إن كانت لهم أحلام ! ولا أعتقد – أيضًا – فى أن رواية سوزانا تامارو العذبة « اذهب حيث يقودك قلبك » عمل من أعمال التبشير ! كما ذهب هو ، وأكتب « قصيدة النثر » التى لا يحبها ، وأحب العقاد وهو لا يطيقه .. بل يرى أنه الأب الشرعى للإرهاب ! . ولا أعتقد فى جدوى المفاوضات مع إسرائيل ، وهو لم ييأس . ثم اختلفنا حول هذا الكتاب .

كان بهاء طاهر – تواضعًا أو زهدًا أو حقيقة – يرى أن مثل هذا الكتاب يليق بكبار الأدباء الذين – على حد تعبيره – صنعوا شيئًا . ثم إنه معترض على فصوله الكثيرة . وهو – ختامًا – غير مسئول عن أى شىء تجاهه ... عنوان الكتاب ، ترتيب الفصول ، موعد أو مكان الطبع ... إلخ . هكذا قال لى – أكثر من مرة – ، ولم أكن قد طلبت منه شيئًا ، ولا كان فى نيتى أن أطلب ؛ لأننى أعرفه ! أعرف أن آخر ما يشغله

هـو أن يسـعى لشيء . فقط هـو يتـأمـل ويكتب وينتظر . ثـم إنه لم يطلب منى أن أكتب عنه شيئًا . أنا الذى تطوعت - راضيًا - بخصم سنة من عمرى أضيفها إلى عمره . وربما قيل - في معرض التعريف بى - : إننى كاتب سيرة بهاء طاهر فحسب . والحق أننى لا أشعر بالرغبة فى الكلام عن مثل هـذا السخف . ما يهمنى هو التأكيد على أن هـذا الكتاب عمل من أعمال الحب وحـده . ولقد كدت أن أتراجع عنـه فى وقت من الأوقات .

ففى يوم كنت أتصل ببهاء طاهر لأعرف ظروفه قبل التسجيل ، ولم نكن قد انتهينا إلاّ من ثلاثة فصول . وسألنى بضيق .. هو فاضل كام فصل ؟ قلت : ١٢ ، قال : يا االه دا كتيـر أوى ، ما كنت أنا كتبت سيرتى لو عايز أكتبـها . وغضبت منه جداً . هل ضغطت عليه بصداقتى ! هل أرهقته إلى هذا الحد . هل هذا جزائى !

وتحول غضبى إلى دهشة .. ما هـذا ، ألم يكن يعرف ذلك منذ البداية ! هل هذا هو بهاء طاهر !

ثم إلى حـزن ، كم هـو مؤسف أن ترى حماسك للشخص الذى تحبه .. مجرد جثة هامدة !!!

كان بهاء طاهر فى أزمة ، ولم أكن أعرف ، فقد أثارت استقالته من « اتحاد الكتّاب » ردود فعل متباينة ، وشاء هـو أن يكتفى بالصمت . وحين رأيته فهمت أسبابه ... أسباب الاستقالة والأزمة والصمت . وعـذرته ، وحين قـررت أن أكمل ، لم يكن من أجل اعتذاره الكريم ، إنما لأننى - مثله - إذا بدأت فى مشوار ، لابد أن أقطعه حتى نهايته .

إذن قررت أن أستكمل هذا الكتاب عن الروائى الذى يحيا بعناد ونبل ، وعن حياته ... أعظم رواية كتبها على الإطلاق .

وبعـد :

هـذا هو « ملف » بهاء طاهر ، ولكنه أقرب إلى أن يكون وصفًا مبدئيًا أو صورة حياة ، من أن يكون سرداً لمراحل حياة . أو قل : هو تفسير لحياة وجولة فى عقل صاحبها ، للتعرف على إجابات أسئلة عميقة يثيرها العصر .

حياة أقدمها – الآن – لا لغرابتها وضخامة أحداثها ، إنما لأنها – ككل حياة – جديرة بالفهم والتأمل . بدلاً من أن نشغل أنفسنا بإصدار الأحكام . في رأيى ، ليس هذا هو المهم .

بقى ...

أنى مدين لأصدقاء هذا الكتاب ، الذين أفدت منهم إفادة حقيقية فى غير موضع منه . شكراً لبرتراند رسل فى محاوراته النافذة التى ترجمها إلى العربية الراحل جلال العشرى ، ولشهادة سليمان فياض عن بهاء طاهر « مالك الحزين » ، ولقراءات وعبارات بعينها ، وأفلام وأقوال مأثورة ، وسير وتراجم ، وروايات ، وحوارات ممتعة عبدت الطريق (*) .

والشكر ، خاصة ، لـ « دانيل أونيل » ، الصحفية الفرنسية التى كانت تبحث عن « هنرى كيسنجر الإنسان » فوضعت يدى على بهاء طاهر .. كيف !

« سؤال أطرحه على روح العالم »

البهاء حسين

م . مطروح . خريف ٢٠٠٠

(*) أخص بالذكر ، الحوارات التى أجريت مع بهاء طاهر فى .. أهرام ١٩٩٨/٩/١ ، ١٩٩٩/٢/١٤ ، م . العربى سبتمبر ٩٩.

أفدت كذلك من دراسة الناقد محمود عبد الوهاب « قراءة فى قصص بهاء طاهر القصيرة » ، أدب ونقد ، نوفمبر ١٩٨٥ .

ومن كتاب الأستاذ مفيد فوزى « هيكل الآخر » .

« بعيداً إلى الكرنك »

أورثته المعرفة كثرة الحزن . عوده النحيل وعيناه الواسعتان تطلان – فى دهشة – على العالم وتخبئان الكثير ... رائحة الكرنك ، القاهرة ، كلية الآداب .. قسم التاريخ ، سويسرا (منفاه الاختيارى) ، باريس ، روما ، بريجيت وسيد وحربى وصفية وضحى وفريد ، شهوة إصلاح الكون ، هزائم الحب ونفيه ، البحر .. ماذا يحدث . أى حياة فريدة هذه وأى كتابة !

لا يخطط بهاء طاهر للكتابة ولا للحزن . وهو طفل كان يحلم بموت النملة الفارسية من ضربة واحدة ، فيعثر على خاتم سليمان ، وأن يقف على كتفه – الأيمن ! – فرس النبى ليتجح !

كان يسمع حكايات كثيرة تسلى بها الأم أولادها الثمانية عن القرية وناسها والزمن . هل يتذكر تلك الأيام .. الفقر والمظاهرات ضد الملك والإنجليز ، وأول لقاء بالكتب والموسيقى . هل يتذكر تلك الحياة .

قلت له : أستاذ بهاء ، أعتقد أنك سوف تبقى طويلاً فى ذاكرتنا ، فقال : كل كاتب فى الدنيا يتمنى أن يبقى طويلاً ؛ لأن ما يكتبه يكون نتيجة معاناة حقيقية يود لو يشرك الآخرين فيها . ثم تدفق فى الإجابة عن أسئلتى .. بسيطًا وحقيقيًا وموجعًا . وبدأنا نتحاور – بغير قيود – عن أشياء بعيدة وقريبة ، وأشخاص ذهبوا ، وآخرين ما زالوا على قيد الحياة .

قلت :

*** أولاً ، لنعد بالذاكرة ستين عامًا . أسألك عن الظلال البعيدة ، عن الكرنك .. القرية والناس وحكايات الأم عنها .**

مال إلى الوراء برأس مسه شيب خفيف وبدأ يتحدث :

– الكرنك بالنسبة لى – فى الطفولة – ذكرى . من ناحية ضبابية جداً ، ومن ناحية أخرى شديدة الوضوح ، لأننى – كما قلت لك – كنت أراها فى بعض الإجازات الصيفية ، ولذلك عبرت عن الحكاية تعبيراً صحيحاً حين قلت .. إن قريتى هى أمى ..

التى كانت تعيش هناك ليس تفاصيل الحياة فى القرية فحسب ، ولكن روح القرية - إن جاز لى هذا التعبير - بمعنى أنها كانت تعتبر عمرها الطويل خارج القرية هامشاً على وجودها القصير ، ولكنه الحقيقى جداً فى القرية فى فترة الطفولة ومطلع الشباب قبل أن تتزوج .

إن ذلك الحب الشديد الذى كانت والدتى - رحمها اللّـه - تكنه لمسقط رأسها وملاعب صباها ، انعكس علىّ أنا أيضاً فى صورة حب شديد لهذا المكان الذى كانت عندما تتكلم عنه يرق صوتها وتشحذ ذاكرتها ؛ لكى تحدثنا عن الفاصيل . وذكرت - ربما فى أحاديث صحفية - أننى عندما كنت أذهب إلى القرية كنت أتعرف على بعض الناس من مجرد رواية أمى عنهم ، وكانت تصيبهم الدهشة الشديدة جداً ... أن طفلاً صغيراً يقول .. ازيك يا جدى فلان ، أو ازيك يا خالتى فلانة ، وهو لم يره من قبل ، لمجرد أننى كنت أسمع والدتى تتحدث عن هذا الجد أو عن هذه الخالة .

هذه القصص التى كنت أسمعها منها كانت تعيش فى وجدانى كما لو كانت أشياء حقيقية ، أنا عشتها لم تعشها أمى .

القرية - فى الحقيقة - هى أمى بأكثر من معنى .. بمعنى أنها صورة الأم التى انطبعت فى وجدانى ، والتى كنت عندما أذهب إلى الكرنك أبحث عنها ، أبحث عن تلك الصورة التى كونتها من هذه الروايات المتناثرة ، وهى أمى بمعنى أنها مقترنة اقتراناً شديداً بوالدتى رحمها اللّـه .

لا أدرى لماذا أتذكر الآن مليم نجيب محفوظ - أطال اللّـه عمره - حين وجد نفسه طفلاً حائراً فى الطريق فى يده مليم ، ولكنه نسى تماماً ما كلفته أمه بشرائه ، وهو يحاول أن يتذكر فيفشل ، ولكن كان من المؤكد - كما يقول - أن ما خرج لشرائه لا يساوى أكثر من مليم ! ما علينا . قلت :

*** أستاذ بهاء .. تنفست الحياة وعمر والدك حوالى ٥٥ سنة ، وأحيل إلى المعاش وأنت فى الخامسة من عمرك ، وتوفى وأنت فى السابعة عشرة . هل حكت لك أمك عن اللحظات التى استقبلت فيها الحياة ، ماذا بقى من والدك ، وكيف كانت علاقتك به ؟**

– سألتها عن تلك الظروف مباشرة .. متى ولدت ، الصبح ، بالليل ، لكنها لم تكن تذكر ، وإنما قيل إننى كنت طفلاً شقيًا جدًا ، وشديد الحيوية ، وكنت – وما زلت – نحيلاً . كانت أمى خائفة من أن أموت ، فاهتمت بأن تعطينى المقويات الشعبية علشان أتخن شوية ، ولكن باءت كل جهودها بالفشل .

بالنسبة لوالدى – رحمة اللّه عليه – كان شيخًا أزهريًا ، وكان شيخًا أزهريًا أنيقًا جدًا ، **يضحك باقتضاب ويكمل** : يعنى لابد أن يكون لون القفطان مناسبًا للون الجبة ... إلخ ، كان يقضى وقتًا فى ذلك ، وكان شخصًا قويًا يشبه « سى السيد » .. له هيبة فظيعة فى نطاق الأسرة ، وربما خارج الأسرة ، لأنه كان مدرسًا ، فكل أبناء الحى والشارع من تلاميذه . وكان شديد الاعتزاز بالذات .. يعنى كان يتحمل مسئوليات تفوق طاقته ، وهو المتعلم الوحيد وسط إخوته غير المتعلمين الذين يعيشون فى القرية ويعملون بالزراعة . فكان يشعر أنه ملزم – بحكم الامتياز الذى حصل عليه ، وهو العمل الحكومى الميرى والمرتب – بأن يساعد إخوته بقدر استطاعته ، ولم يكف عن ذلك حتى عندما أصبحت ظروفه وظروفنا المالية لا تسمح بهذا الترف .

إلى جانب اعتزازه الشديد جداً بذاته ، كان مولعًا بالقراءة بكشل لم أره فى حياتى . كانت لديه مكتبة عامرة بأمهات الكتب ، كان بمجرد ما يصلى الفجر يتربع على الكرسى الأسيوطى ويسحب أحد هذه الكتب ويظل غارقًا فى القراءة ، ربما إلى أن تحين صلاة الظهر . أحيانًا – وأنا طفل صغير جداً – كان يرسلنى بوريقات صغيرة إلى بعض أصدقائه من أساتذة اللغة العربية ، ومن محبى القراءة من أمثاله ، يستفسر فيها عن بعض الأشياء التى صادفته أثناء القراءة ، كلمة أو تعبير ... إلخ . يقول مثلاً .. الصديق فلان ، لم تصادفنى هذه الكلمة ، ولم أجدها فى القاموس ، فهل مرت عليك من قبل . وأعود أحمل إليه الرد ومعه سؤال أيضًا من نفس الشخص الذى أرسلنى إليه ، **ضاحكًا من قلبه يستأنف** : وقتها كنت أتضايق من هذه المشاوير طبعًا ، ولكن هذا يعطيك فكرة عن الجو الثقافى للمدرسين والموظفين فى ذلك العصر .. إلى أى درجة كان اهتمامهم بالمعرفة !

أبى مات وهو يقرأ ، أنا فاكر .. صحوت في يوم من الأيام على جلبة في البيت ، فعرفت أن والدى مريض ، لم تستغرق المسألة ربع ساعة ومات ، شفته في النزع الأخير . رحمه اللّه توفى مرتاحًا ، أريد أن أقول .. لم يتعذب في الوفاة ، رغم أنه كان مريضًا بالسكر .

ولا أذكر أنه تدخل بأى شكل في تعليمي . بمعني .. أنا كنت الأصغر ، وكان قد جرب في إخوتي الأكبر مني أساليب مختلفة في التربية من القسوة إلى اللين ... إلخ ، لكنه لم يكن يقول لى حتى ذاكر . كانت لديه ثقة في إحساسي بالمسئولية ، وقالها لى ، قال : أنا مش خايف عليك . لكنه حزن جداً حين دخلت كلية الآداب ، كان أقسم مرة ألا يشتغل أحد من أولاده بالتدريس ؛ لأن التدريس – في رأيه – مهنة ناكرة للجميل ، وتستنزف العمر بلا مقابل ، وأنا وعدته والتزمت بوعدى ، رغم أنه مات وأنا في سنة أولى جامعة .

*** قلت : هل هو الذى اختار اسمك . ولم يكن في حاجة للتذكر ، فبادرني** .. نعم هو الذى اختار اسمي .. محمد بهاء الدين طاهر ، **واستطرد** :

تسألنى عن علاقتى بأبى .

كان أزهريًا – كما قلت – وكنت أنا الأصغر ، وكان التقليد في ذلك الوقت أن يوهب أحد الأبناء للأزهر ، فأدخلنى الكُتَّاب في مدينة الجيزة . حفظت جزءًا لا بأس به من القرآن الكريم ، ومرت سنة ، ولا أعلم لماذا عدل أبى عن أن أكمل تعليمي في الأزهر ، وقدم لى أوراقى في مدرسة الجيزة الابتدائية ، فدخلت السنة الثانية مباشرة بعد امتحان نجحت فيه .

في هذه السنة أذكر أن أحد المدرسين قال لنا : قولوا لأهاليكم .. الحرب العالمية الثانية انتهت ، لن تفهموا هذا الكلام ، ولكن لابد أن تعرفوه ، لم يكن يدرى أنى – وأنا في هذه السن – كنت أتابع بشدة ، **يضحك** : مجريات الحرب . كانت والدتى تغضب جداً لما كنت أمسك الجرنال وأقرأه بصوت عال قدام أصدقاء والدى ، ويضحكون .. الطفل الصُّغيَّر ده عارف غزوة تشيكوسلوفاكيا ... إلخ ، فكانت والدتى تغضب خوفًا علىَّ من العين ! كان من المستغرب أن طفلاً دون الثامنة من عمره على علم بالحرب .

أقول مقاطعًا وضاحكًا في الوقت نفسه .. أو على علاقة ، فيضحك ويؤمن على كلامي ،..

أو على علاقة .

المهم ورثت عن أبي – رحمه اللّه – هذا النهم الشديد للقراءة ، كنت ألاقي الجرنال تحت الباب ، وقبل أن يصحو أحد في البيت أكون انتهيت منه ، وإذا لم أفرغ منه أستخبى لأكمله ، ولما أسمع أبي يقول : فين الجرنال .. فين الجرنال .. **يضحك بشدة :** أنسحب بسرعة وأحطه في مكانه قبل أن تتكشف الجريمة . كان والدي حافظًا للقرآن الكريم طبعًا ، ومتخصصًا في القراءات .. ورش وحفص وعاصم ... إلخ ، وكان يدرِّسها في بعض المعاهد الأزهرية ، حتى بعد خروجه إلى التقاعد .

*** هل تغير ، هل انطوى على نفسه بعد التقاعد ، أو تغيرتم .**

طبعًا ، ما زلت أذكر النقلة الكبيرة ما بين حياة فيها نوع من الرخاء النسبي .. لعب وهدايا ... إلخ ، والنقلة إلى حياة التقشف الشديدة جدًا التي أصبح فيها مجرد الحصول على حذاء أو على بنطلون للذهاب إلى المدرسة ، محنة كبيرة تمر بها الأسرة .

الخروج إلى المعاش كان محنة أثرت عليه وعلينا كلنا كأسرة ، وضاعف من مسئولياته أن الملاريا اجتاحت الصعيد في سنة ١٩٤٢م . وتضاعفت الأزمة المالية التي كنا نعيشها . يعني لا أذكر – باستثناء تلك الفترة الذهبية السابقة على خروج والدي إلى التقاعد – أنني استمتعت إطلاقًا بما يستمتع به الأطفال أو الصبية في المدرسة .. لم يكن لي مصروف ، أو كان هناك أي نوع من الترف ، بل كان الحصول على الرسوم الرمزية – ثلاثة جنيهات ونصف ، لأنني كنت أتعلم بالمجان – محنة تحتشد لها الأسرة كلها . أذكر تمامًا أني لم أستمتع في صباي بأي شيء سوى بالقراءة .

كنت أحاول – وهو يتذكر تلك الأيام – أن أرى ملامح هذا الطفل الحزين الذي يحكي عنه ، فسألته ألا يزال موجودًا بداخله ! قال بأسى :

جدًا ، جدًا ، أنت لا تعلم ماذا فعلت بي تجربة الملاريا ، ووفاة الأقارب – وكثير منهم لم أكن رأيته – ، وجو الحزن الذي خيم على الأسرة .. أمي وإخوتي وهم يلبسون الأسود ، والمرة الوحيدة – في حياتي – التي رأيت فيها أبي يبكي وحيدًا ويحاول أن

يكتم صوت بكائه ..كان يسد فمه بيده . هذه الفترة وعمرى ٧ سنوات ، لم تمح من ذاكرتى أبداً أبداً ، والمشقة المادية التى عشتها وأنا طفل ، وحرمانى حتى من المسرات البسيطة ، ما زالت محفورة فى ذهنى ، وعندما أكلم أولادى عن ذلك ، لا أجد صدى على الإطلاق .

ضحك ساخراً وهو يمط كلمة الإطلاق ، وأكمل دون مرارة .. لا أجد صدى لمثل هذه المعاناة . يقولون : واحنا مالنا ، ظروفك كانت كده !!

*** ووالدتك ، كيف استقبلت حدث وفاة الوالد .**

يا اه ، نوع الحب بين الناس فى هذا الجيل كان شيئًا كبيراً جداً يا بهاء . أنا قلت لك : إننى رأيت أبى يبكى مرة واحدة فى حياتى . غير صحيح ، أنا رأيت أبى يبكى مرتين ، الآن أتذكر ، كان عمرى وقتها ١٢ أو ١٣ سنة ، رأيته يمسح دموعه فى حجرته ، لأن أمى مريضة .

أمى لما مات أبى كانت الحياة بالنسبة لها تكاد تكون انتهت ، ولولا أنها كانت مسئولة عن أسرة ضخمة ، ولولا أن هذه السيدة الأمية العظيمة كانت مدبرة .. أنا الحقيقة ، لا أعرف حتى الآن ، كيف عشنا !!

عمرك أطول من عمرى ، كان فى بالى الآن أن أسألك ، ٨ أولاد ومعاش ضئيل ، كيف واجهت هذه السيدة الحياة ، بهذه الهموم فى أوقات عصيبة !

واللّـه بمعجزة يا أخى وحياة ربنا ، كان باستمرار هناك ما يؤكل ، كانت باستمرار مستورة والحمد للّـه ، ولكن ما زلت أسأل نفسى .. ازاى !

سأحكى لك حكاية غريبة . أرخص حاجة أيامها كان الجمبرى .. **لاحظ دهشتى فقال وضحكته تكاد تتلاشى** : كانت وُقّة الجمبرى بـ ٣ صاغ ، الوقّة أكثر من كيلو ، فكانت تجيب وقتين جمبرى وتعمل جنبهم شوية رز ، كنا نتذمر بشدة ونقول : تانى جمبرى .. تانى جمبرى .

نستغرق نحن الاثنين فى ضحك طويل ، وأقول معقبًا .. كأنه فول .. تانى فول .. الآن يمسح عينيه ، وأسكت لأسمع بقايا ضحكته العميقة ترنى حولى فى العاشرة ليلاً . وفكرت أن هذه الوقت مع اللوحات والتحف والإضاءة الساجية ودوائر

الدخان تخرج من فمه بطيئة متكسرة ، ليس عادياً ، أتذكر أن عندى كثيراً من الأسئلة ، والوقت ضيق ، لكنه فجأة يقول :

وأحياناً شربة عدس ، وأحياناً بصارة ، يعنى كانت تدبر **يسكت قليلاً متعجباً** .. بالعكس كانت تدبر ما هو أكثر من ذلك يا أخى واللّه . والدى - اللّه يرحمه - كان يشرب الشيشة ، والأمور متأزمة جداً ، لكن أمى كانت تدبر على جنب كده بعض القروش ، ولما يخلص التمباك تقول لى : خد اشترى دخان لأبوك ، ولما يسألها جبتيه منين ؟ تقول : ربنا كبير ! ماذا أقول لك ، كان نوعاً من الحب لا يعبر عنه الكلام ولا الألفاظ ولا أى لغة ، لا شيء من هذا أبداً !!

*** هذا الحب ، هل كان بينهما قبل الزواج أيضاً .**

- لا ، لم يسبق زواجهما حب . **ثم سكت فجأة واستدرك :** أظن - واللّه أعلم - أنه كان ، لأن أختى الكبيرة كانت تحكى لى أن أبى كان يعرف أمى قبل الزواج ، وتعلق بها قلبه ، لا أعرف بالضبط ولكن يبدو أنه حدث فعلاً .

*** سؤال سخيف .. هل بكت عليه حين مات !!**

- يا اه ، بكاء شديداً ، ولكن كان لازم تفوق بسرعة ، لتعول هذه الأسرة الكبيرة ، كان لازم .

أعود وأسألك عن اللحظة الفارقة - تقاعد الوالد - كيف تغيرت حالته بعدها ؟

كان قبلها مرحاً جداً يحب الناس ، ولم تكن الزيارات تنقطع عنا ، ولكن بعدها ما لم يكن لديه شغل فى الأزهر لا يخرج من البيت .

*** ماذا ورثت عنه ؟**

- الاعتزاز الشديد بالنفس .

*** لدرجة أن تخاصم عصرك .**

- لدرجة أنى لا أقبل أى مساس بكرامتى .

*** وماذا ورثت عن الوالدة .**

– كانت شديدة الحساسية ، ودعنى .. **يبتسم وهو يقول** : أستخدم كلمة لم تكن معروفة على أيامها .. كلمة السرد دى ، إلى آخر عمرها كنت أقعد تحت رجليها ، وأقول لها : احك لى يا حاجة ، فتضحك وتحكى .

*** ألم تقف الحياة عند أحزانك ؟**

– بمعنى ..!

*** بمعنى أن تهبط من السماء معجزة توقف الحياة ، لتستوعب كل حزن على حدة .**

– هذه الفترة كانت آخر أيام الملكية ، لأن والدى توفى – أظن – فى السنة الأولى للثورة . كان همى أن أبحث عن عمل أساعد به نفسى ، وأساعد به الأسرة ، ولكن كان دون ذلك خرط القتاد ، أنا اشتغلت وأنا فى الجامعة بعد أن قامت الثورة فى عز أزمة البطالة ، وهذا شىء لا يعرفه كثير من الناس .. كيف كان العمل والحياة فى تلك الفترة ، **صمت لحظة واستأنف بعد نفس طويل متألم** : حين أكلم الناس عن هذه الفترة يهزون أكتافهم ويقولون : وما له .. إنه التطور الطبيعى ! التطور الطبيعى أن ترى نصف الناس حفاة فى الشوارع يلبسون أسمالاً . الثورة جعلت للناس كرامة بالتدريج وبالقدر المحدود من المساواة الاجتماعية الذى حققته . عندما أكلم أحداً من أعداء الثورة يقول : وإيه يعنى ، هذا هو التطور الطبيعى ، أن يتحسن النظام الاقتصادى ويرتفع مستوى معيشة الناس . هذا غير صحيح ، لأنه كان من الممكن أن يستمر هذا الفقر الطاحن ، وكان ممكنًا أن يستمر ذلك الإهدار لكرامة الإنسان لولا الثورة .. لو لم يكن هناك المجهود الإرادى .

المهم أنا فى تلك الفترة كنت أتمنى بالفعل أن تتحقق معجزة ، وحاولت أن أصنع هذه المعجزة بالعمل ، فاشتغلت مرة وحيدة لمدة شهرين بقروش زهيدة جداً .

*** فى ظل هذه الظروف ألم تطلب المساعدة من أحد !!**

– لا والله يا أخى .. بالعكس تمامًا ، ظل مستمراً دعمنا المحدود الذى نقدمه للأقارب فى الأقصر .

*** كمان !!**

- أى واللّه وحياة ربنا ، ظل مستمراً على حساب لقمة العيش التى نأكلها !

*** شطر كبير من طفولتك إذن ، كان فى أجواء هذا الفقر الشديد ، ما أثر ذلك عليك وعلى كتابتك :**

- لا أستطيع أن أرصد ذلك الأثر فى كتابتى ، إنما أستطيع أن أقول لك عن حاجات فى حياتى الشخصية . بدون كذب أو افتعال ، أنا أندهش جداً حين يكون معى من الفلوس ما يزيد عن حاجتى الشخصية ، أندهش جداً ولا أعرف كيف يمكن أن أستفيد من هذه الفلوس . أثرت أيضاً فى أننى - طوال عمرى - لم يكن عندى ، ولا عندى فى هذه اللحظة ، طموح لكماليات المعيشة . مثلاً أنا ليست لدى سيارة ولا أشعر بالحاجة إليها إطلاقاً ، بل أشعر بغربة شديدة جداً حين أقعد مع ناس يتكلمون عن تغيير العفش والشراء ... إلخ . باختصار فكرة الاقتناء غريبة عنى غربة تامة ، يكفينى - دائماً - الحد الأدنى للمعيشة ، أنا حتى عندما اشتغلت فى سويسرا وكان راتبى كبيراً ، كان زملائى يشترون أولاً سيارة ، ثم يغيرونها بأخرى أحدث ، ويتكلمون طوال الوقت عن هذه الحكاية ، وعندما جئت إلى مصر لم تكن لى شقة ، كنت أنزل فى شقة مفروشة ، وهذه الشقة التى تراها اشتريتها قبل التقاعد بسنة أو سنتين ، بمحض المصادفة ، قصدى أن فكرة الاقتناء هذه غير موجودة عندى أصلاً ، هل هذا بسبب تلك الفترة الأولى ، ربما ، أم بسبب أنى عشت سنوات التكوين فى ظل الشعارات الاشتراكية وكلام صلاح جاهين الجميل . لا أدرى !

عندى تفسير شخصى ، أنها لا هذه ولا تلك ، ولعلك تذكر تعليل النقاد لحرص المتنبى على المال بطفولته وما لاقاه فيها من عنت وضنك . قد يبدو هذا الاستشهاد مقحماً ، إنما أقصد به أن أقول : إن زهدك لو كان أثراً - كما تقول - من تلك الفترة ، لكان أدعى أن ترغب - بشدة - فى الاقتناء لا العكس ، وأن تحرص على المال ، ولا أظن أن الشعارات الجميلة وحدها تخلق نزعة من العدم ، إن لم يكن الطبع مواتياً . أعتقد أنه طبع يا أستاذ بهاء وقيم تحكم السلوك ، وأنت أدرى بنفسك .

راح بعيداً ، بداخله ، ثم تنهد وقال : ربما أنا - في الحقيقة - أكثر جشعاً وطمعاً ممن يحبون الاقتناء ، يمكن طموحي أكبر بكثير من أن يكون عندي ڤيلا وسيارة وشاليه على البحر إلى آخر الأشياء التي لا أكنّ لها أدنى أهمية بأى شكل من الأشكال . يمكن يكون طموحي لما هو أكبر من ذلك ، ولا تعتبر هذه مزايدة على أحد .

أظن أن طموحي أكبر لامتلاك المعرفة ، لامتلاك القدرة على الفهم .. القدرة علل .. **يخبط بيده على فخذه الأيمن قبل أن يقول مرتاحاً كأنه عثر على ضالته ، أو نفض عن صدره هماً ثقيلاً ، أو كأن ما قاله هو - بالضبط - ما يريد .**

على المعرفة يا أخي ، معلهش .. أنا آسف .

*** هل المعرفة متعبة ؟**

- متعبة جداً جداً .

وجميلة .

نعم .

*** ما العلاقة بينها وبين الحقيقة والحياة ؟**

هذا السؤال عنّ لي أن أسأله ، ولم أكد أفرغ منه حتى شعرت بثقل دمي حين قال ، كأنه لم يسمع شيئاً : نحن نتكلم دون ترتيب . وشعرت بالحرج ، ما معنى ذلك .. هل سؤالي سخيف ، أم أنتحل سؤالاً عويصاً - إن كان كذلك - أو أدعيه لأظهر ثقافتي ، ماذا يظن ، فعلاً شعرت بالخجل وبالغضب ، لكنه قفز بذكاء على الموقف وعاود الكلام بعد صمت قصير ..

هذه الظروف الصعبة جداً التي مررت بها في الطفولة كانت - بالإضافة إلى نموذج والدي - من المؤثرات التي جعلت متعتي الأولى والوحيدة هي القراءة . لن تصدق أنه وأنا في ابتدائي ، كنت أقرأ أشياء لم يعرفها غيري إلاّ بعد ذلك بمراحل ، بعضها كان في مكتبة والدي .. أذكر مصرع كليوباترا ٣ أو ٤ مجلدات ، وكنت أقرأ الكاتب المصري لطه حسين ، لأن والدي كان يشتريها . لم أكن أقف أبداً عند مستوى السن التي كنت فيها . ربما تكون النشأة الأولى هي التي لعبت الدور في ذلك ، أو ربما هو الاستعداد الشخصي .

*** هل شبعت من المعرفة ؟**

- إطلاقًا وأشعر - أقسم باللّـه - أنني مازلت في سنة أولى .

*** علاقتك بالموت مبكرة تعود - كما قلت إلى عام ١٩٤٢ - حين فقدت نصف أسرتك ، بعد ذلك توفي والدك ، وبعده أخوك الكبير ، ثم توالى الفقد من اتجاهات وبأشكال عدة . ألهذا أكثر الحزن في كتابتك . قل لي ، ما فكرتك عن الموت . هل الموت يلغي الوجود . هل الموت راحة !**

- صعب أن أرصد بنفسي هذا الحزن في كتابتي ، أما الموت ، فأذكر - وأنا طفل صغير - أني كنت مرعوباً من فكرة أن يموت أبي و وهو شيخ مسن ، طبعًا لم أكن أعبر عن هذا الرعب ، لأني كنت أعرف أن المسنين يموتون ، فكنت أظل مؤرقًا طوال الليل ، أنام وأصحو ، أنام وأصحو ، ولا أنام مطمئنًا إلاّ عندما أسمعه يصلي الفجر .

فكرة الموت المباشرة هذه ، أثرت عليَّ حتى من قبل حكاية الملاريا والوفيات الجماعية في الأسرة وفي القرية . إنما فكرة الموت الفلسفية بغض النظر عن ظاهرة الموت الفردية ، يهيئ لي أنها أهم سؤال مطروح على الإنسان أو على الكاتب ، وكما يقول هيمنجواي : « كل القصص تنتهي بالموت » هذه الحكاية حقيقية جداً . هناك في آخر السكة ذلك الحائط السد ، ولا سبيل إلى الهروب منه ، وربما أكون تطرقت لهذه الفكرة في قصة « محاورة الجبل » .

[فوق جبل - يدور حوار بين كهل وشاب ، جَرَّب كلاهما الحياة ، وكان الموت علامة فارقة في تلوين نظرتهما لها . الشاب ماتت أخته الجميلة محاسن وهي في العاشرة ، وعرف في الدنيا شيئًا لم يعرفه الكهل .. أبًا يموت وفي عينيه رضى وسلام . من ناحية الكهل - وقد جرّب الحياة طويلاً هذا الكهل - لا يرى في الحياة سوى أنها كف غليظة تحدفنا بصفعة واحدة إلى القبر منذ أن نولد .. فعلتها معه ، إذ مات أبواه في حادث سيارة في الخامسة عشرة من عمره . وهي - الحياة - فخ يحاذر هذا الكهل ألا يقع فيه . وهو يخادع الموت بألا يملك شيئًا أو يملكه شيء . هكذا وحيداً

خالداً – فيما يقول – يمضى فى مواجهة المعركة قوياً ، لقد صار سيد نفسه ويستطيع أن يفعل فى الدنيا ما يشاء . هذه فلسفته القديمة ، مذ كان شاباً يرد – إذا أراد – صفعة الكف الغليظة .

الموت إذن – المادى والمعنوى – يحدد موقف اثنين جمعتهما المصادفة وقطعة حشيش ومحاورة . هل يستمر الكهل – ومن عجيب أمر حيوته الكرامازوفية القديمة هذه – ليس فقط فى يقينه بأن الحياة نهزة لا يجب أن نضيعها فى الشعر أو الفلسفة ... إلخ ، ولكن فى معركته التى لا تهدأ معها ! أيستطيع هذه المرة أن يرد لها الصفعة حين يقنع الشاب – فى غواية جديدة / قديمة يتقنها تماماً ، كما فعل مع هانم وعباس وا ... وا ...

إن الكهل ليس سوى الموت / الكهل ، يحاول الشاب الآن أن يخادعه فيتركه وحيداً بشعره الأشيب فوق الجبل ، لكن السؤال .. إلى أين ؟! يقول الكهل فى تلك المحاورة : « الحقيقة أن هذه الحياة فخ .. فخ نتخبط فيه منذ نولد ، والغلطة أننا نحاول الخروج من هذا الفخ .. بالشعر كما تحاول أنت وقليل مثلك .. بالتصوف كما يحاول غيرك .. ترى عيوناً مسبلة ومتهدلة وميتة قبل الموت .. فى الشهرة ، أو المناصب كما يحاول آخرون .. يتسابقون ويضعون خططاً ويصنعون مكائد صغيرة لكى يصلوا .. وما يصلون إليه فى نهاية عدوهم هو ذلك الحائط الأصم الذى ترتطم به رؤوسهم .. رأيت أيضاً من يحاولون عن طريق الخمر والعشق ، وفى عيونهم نهم لا يرتوى كأنهم يرشفون سر الحياة نفسه .. ورأيت كثيراً من الأغبياء يتكالبون على اكتناز المال واقتناء الأشياء وكأنهم – مثل أجدادنا القدامى ، سيحملون معهم تلك الأوراق وذلك الحديد إلى مقابرهم ، كل تلك أيها الشاعر محاولات لمخادعة الموت .. لنسيان أنه يقف هناك ، قريباً جداً .. ممسكاً بخيوط الفخ » .

فى النهاية ينحدر الشاب – دون تردد – إلى الأرض ، يعود ، لكنه يلتفت حين يقول الكهل – بيقين – : أيها الشاعر سوف تبحث عنى ! وتعود إلىّ . يرد الشاب : ومن يدرى ربما بحثت أنت عنى !

« لا أظن » ، هكذا يحسم الغريب المحاورة وساعتها تنسحب – فى القصة – النجوم من السماء ، ويبدأ الغمام الأبيض – لون الكفن والشيب – يصبغ الليل !

قلت : إنه الموت / الكهل ، أو الحائط الأصم ، لا يتصارع هنا مع الحياة في معركة غير متكافئة ، وغير عادلة أيضًا ، بل يحدد - مسبقًا - موقفنا نحن الأحياء منها . يتركها قليلاً من الوقت ترقص فينا .. تقترب من السر ، نكاد نمسك به ، ولكننا لا نمسك به أبداً . نعم تملؤنا النشوة وننتظر أن تفيض الكأس ولكن بشروط الكهل .. بعبثيتها الفادحة] .

أرجع .. إلى بهاء طاهر ، وكان ما زال يتحدث . قال الأستاذ : أيضًا في مطلع الشباب كانت الوجودية شائعة جداً في الوسط الثقافي ، وتترجم في بيروت كتب سارتر وكامي وقرأناها جميعًا ، يحتمل أن تكون هذه المحاور الفكرية حول موضوع الموت قد أثرت فيّ ، إلى جانب الأحداث الشخصية في حياتي .

يخيل لي - كما يقول أحد الشخصيات في قصة محاورة الجبل هذه - : إن كل محاولاتنا وسعينا هي محاولات لمخادعة الموت ، أو كما يقول طرفة بن العبد :

لعمـــرك إن المـوت مـا أخطـأ الفتى   لكا لطـول المرخيّ وثنياه باليد

أليس كذلك ؟

*** عندي تصـور طفـولي للحكاية ، وهي أنه لو لم يكن هناك مـوت لضـاقت بنا الأرض ، ورغم ذلك أتساءل .. هل كان ضروريًا أن يكون هناك موت !**

- لابد أن تكون مؤمنًا ، لابد - لكي يرتاح قلبك في هذه المسألة - أن تجد البحث في الإيمان .. الإيمان الفطري البسيط الذي جعلك تعبر عن الحكاية بأنه لو لم يكن هناك موت لضاقت بنا الأرض .

*** هل هو راحة ؟تنهد طويلاً وقال :** راحة .. لا ، ولكنه إحدى حقائق الحياة التي يجب تقبلها ، أما أنه راحة ، فلا أسمي الموت « راحة » .. إنه مأساة كبيرة ، أو كما قال المتنبي :

إذا ما تأملت الزمـان وصـرفه   تيقنت أن الموت ضـرب من القتل

وعندي شخصية حشمت - في قصة أنا الملك جئت - تكلمت في هـذا الموضوع كثيراً .

[« لم يأتنى الموت لما سعيت له » هذا ما يقوله حشمت ، بعد رحلة كان سعيه فيها أن يفهم الموت أو – على الأقل – أن ينظم عشوائيته « حين يأتى فى غير أوانه » ، هذا الأوان يستفزنا لمواجهة مع الموت ، خاصة حين يتصل بنا شخصيًا وحولنا بقليل ... هنا تتفجر الحيرة الأصعب .. الحيرة البائسة وتتقوض فينا مكامن الطمأنينة واليقين .

يبدو حشمت فى المقطع الرابع من « أنا الملك جئت » (٢٨ مقطعًا) .. فى موضع مفصلى ، فبطل القصة فريد – طبيب العيون – يصل إلى قناعة بأن « أبشع شىء ليس هو الحزن ، ولكن اختفاء الحزن » ، ويقول ذلك لحشمت – زميله فى جامعة جريتويل وأعز أصدقائه ، وقد مرّ أيضًا بنكبة فادحة – يقول حشمت لفريد « عشت تجربة قريبة من تجربتك ، وفى نفس الوقت تقريبًا لما ماتت أمى » .

عاشت أم حشمت « أرملة بعد زواج قصير وغير سعيد » . وكان حلم حياتها أن تراه طبيبًا لتذوق – مرة واحدة فقط – طعم الفرح . تمرض بالتيفود – فجأة – عقب تخرجه مباشرة وتموت !! هنا يبدأ السؤال الكبير .. كيف يمكن تنظيم عشوائية المو ، كيف يكون عادلاً ، وما جدى الطب ؟

ويدخل حشمت بالسفر .. بالتيه فى أواسط أفريقيا حيث السحر والجذام والمرض والحشرات والحمى والتسمم ، حيث الموت هناك فى النهاية أيضًا . يدخل بذلك – فى محاولة أخيرة – تجربة الإجابة عن هذا السؤال السدّ ، إذا جاز التعبير . نفس المشوار سيقطعه فريد إلى الصحراء .

ومع كثرة ما كتب عن الموت – إبداعًا ونقدًا – فإن أحدًا لم يصل بعد إلى إجابة ، أو يعثر على يقين بهذا الشأن . الآن « كل محاولاتنا هى محاولات لمخادعة الموت » .. هذا هو موقفنا ، أقصى موقف وأبعد محاولة عند بهاء طاهر لفهم الموت أو فلسفته . هل الموت عادل ؟ وهذا هو السؤال التأسيسى للموت كفكرة فلسفية عنده . موت أم حشمت غير عادل تمامًا .. أى غير مبرر ، كذلك موت « مارتين » التى أحبها فريد أثناء دراسته فى إنجلترا . قال حشمت : لم يأتنى الموت لما سعيت له ، إجابة عن سؤال فريد .. ماذا تعلمت . يستسلم حشمت – التصرف الوحيد ، والنهائى ، المتاح – إزاء ما يحدث . لقد عاد من أفريقيا بهذه القناعة التى لم تمس قلب فريد ، وها هو

يقرر الخروج إلى الصحراء . فلماذا تموت أم حشمت وهى لم تفرح أبداً .. ثم إن حلمها بالسعادة كاد أن يتحقق بتخرج ابنها طبيبًا . ومارتين تختفى من يده فى أوج سعادتهما معًا !! فريد ، هذا الذى فرّت السكينة منذ ٧ سنوات من قلبه . الآن – فى خريف ١٩٣٢م بعد النهاية .. نهاية مارتين (إبريل ١٩٢٥م) ، ولا نعرف من القصة ، على وجه اليقين ، أى نهاية تلك ، ولكن المؤكد أنها الموت المحوم فى فضاء بهاء طاهر دائمًا – ها هو فريد يقرر السفر ، فلا يجد الشيخ « عبد اللّـه » القاضى بالمعاش بُدًّا من أن يبارك إصرار ولده على الخروج إلى المجهول . ويؤمه فى الصلاة ليلة السفر مع « راضى » – لاحظ دلالة الأسماء – خادم الشيخ الخاص ورفيق فريد فى الرحلة المزمعة ، ثم يهمس الشيخ فى أذن ولده « سلم أمرك تعد السكينة إلى قلبك » .

هل تعود السكينة يومًا ما إلى قلبه !

الآن يخرج من القاهرة – عبر الصحراء – بالجمال إلى المجهول .. هناك فى معبد فرعونى بسيوة يقرأ فريد فى المقطع ٢٥ من القصة – « أنا الملك جئت ، ولما المرأة ذهبت .. ولما تفرق الذين اجتمعوا حولى .. ولما وجدت نفسى وحيداً اكتملت فى تمامى . ولما كنت أنت إلهى وأنا صفيك .. أنت النور وأنا صدى النور .. أتملى فى ذاتى فأراك وأتملى فيك فأرانى ، فإنى بعيداً عن الآحاد جئت لتكون واحداً أنا وأنت . الآن ولم يبق وقت ويبقى الأبد . الآن أناجيك فتعرفنى ، أدون سرى بعيداً عن الأعين لعينك أنت فتعرفنى ، أتطلع إلى قرصك اللامع الذى يرقب من السماء كل شىء وأنقش على الصخر سرى : أنى حزين » .

هل عادت إليه السكينة – بعد أيام مضنية – ! أعتقد أنه لم يعد الآن مشغولاً بها ، أو قادراً حتى على أن يقرأ – من نفس النص المستقيم – « ولما وجدت كل فرحة تلد نهايتها وجدت فى فرحتك أنت المنتهى » ، ولكن نفسه تمتلىء إحساسًا بها . فريد يسقط الآن – فى المعبد نفسه – مرتعشًا على الأرض وآخر كلام على لسانه – فى خاتمة القصة أو خاتمة المطاف – سؤال إلى شخص تشير عيناه إلى إناء لبن من فخار ، يقول بصوت خافت لفريد : اشرب ، ستكون بخير ، وكان صوت مارتين قد جاءه – قبيل لحظات – من ماضٍ بعيد حى يناديه : اعطنى يدك ، سنشرب معًا من هذا النبع .. أو من هذه الكأس ، كأس النهاية الأبدية التى ستشملنا جميعًا .

آخر كلمة كانت على لسان فريد لهذا الشخص الملثم الوجه ذى العينين السوداوين .. من أنت ؟

فى « أنا الملك جئت » لن تجد إجابة عن سؤال الموت ، ستجد مزيداً من الأسئلة عن « الحائط الأصم » الذى فى آخر المشوار : كان حشمت يقول لفريد : هل من الضرورى أن أكون قد تعلمت شيئًا .

عدت ..

هذا كل ما حدث .

والآن يعود فريد أو يموت – سيان – سينتهى فى النهاية – فى آخر السكة – كل شىء .

لا بأس .. عزاؤنا فى تلك المحاولة .. محاولة البحث عن السكينة والسلام ، أن ننتزع الفرحة والرضى من الشقاء والعزلة والاستسلام] .

وعدت أسأل بهاء طاهر : هل فكرت فى موتك أنت شخصيًا ، فاختلجت جفونه وقال :

– أتمنى أن يكون سهلاً ، لا يسبقه مرض طويل ، أو فقدان للوعى . أتمنى أن أموت كما مات أبى وهو يقرأ .

قلت : الموت سيأخذنا – بالضرورة – إلى الحياة الأخرى .. هل تؤمن بها ، وبأن الروح خالدة . وكان رده :

نعم مؤمن جداً .

ثم نظر بعيداً وقال : ليست لدى مرجعية فى ذلك غير ما نتعلمه من القرآن الكريم .

*** « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » . هل هى أيضًا حائط سد ؟**

– طبعًا .

*** إذن نعود إلى الحياة الدنيا ما شكل علاقتك الآن بأسرتك .**

– طيبة جداً ، أنا آخر الذكور الأحياء من إخوتى ، مع الأسف كلهم ماتوا .. انتقلوا إلى رحمة الله ، علاقتى بأولادهم طيبة جداً ، وكذلك بأخواتى البنات ، أعتقد أننا كأسرة – بصفة عامة – أسرة متماسكة . كل منا يخدم الآخرين بقدر استطاعته . ليست هناك مشكلة .

*** تذكر .. فى السنة الثانية الابتدائية ، قتلت كثيراً من النمل الفارسى .. يضحك ، وأكمل السؤال .. هل عثرت على خاتم سليمان ؟**

– لا لم أجده ، وجدته بعد ذلك ، لما نفس الشخص ، أين هو الآن أحمد الجبالى ، دلنى على روايات الجيب ، كانت فعلاً خاتم سليمان الحقيقى الذى فتح لى كنز القراءة . أنا مدين لهذا الكنز أكثر بكثير جداً ، مما لو كنت وجدت خاتم سليمان .

*** كان أول لقاء بينك وبين الكتاب فى مكتبة الوالد ، ثم اكتشفت – عن طريق أحمد الجبالى ، الذى لا تعرف مكانه – روايات الجيب . حدثنا عن هذا التكوين الأول فى حياتك .**

– هو تكوين لا انتظام فيه ، إذا استثنيت فترة الكُتَّاب التى حفظت فيها جزءاً لا بأس به من القرآن الكريم . هذا التكوين كان عشوائيًا جداً . طبعًا الكتب الدينية مثل كتب التفسير التى كانت فى مكتبة الوالد . كان من الصعب علىّ فهمها فى هذه السن المبكرة . كنت أحاول القراءة فى الكامل لابن الأثير وكتب الطبرى وبعض كتب التاريخ . لكن قرأت كليلة ودمنة ، كان عندنا طبعة جميلة جداً جداً منها ، قرأتها عشرات المرات ، وما زال ابن المقفع من أهم الكتاب فى تكوينى الوجدانى .

أيضًا قرأت مصرع كليوباترا ورواية ضخمة – أجهل مؤلفها – اسمها « باب القمر » قرأت فتح العرب لمصر ، وأشعاراً كثيرة من مكتبة الوالد لطرفة بن العبد ، وامرئ القيس ، والبحترى . فى فترة التكوين الأولى هذه ، فى سن ١٠ أو ١٢ سنة ، كانت القراءات – كما قلت لك – عشوائية ، وكنت لما أقرأ حاجة زى « مدام بوفارى » أتلخبط جداً .. إيه ده ، دى لا فيها جريمة ولا مفتش بوليس ولا قاتل .. إيه الحكاية دى . طبعاً تركت فى نفسى أثراً . أكيد .

*** فى السنة الرابعة الابتدائية ، فازت أول قصة تكتبها بالمركز الأول على المدرسة ، بعد ذلك بنصف قرن ، فازت كتب كثيرة لك بجائزة أحسن كتاب ، وترجمت أيضًا . وأخيرًا فى عام ١٩٩٨م ، حصلت على جائزة الدولة التقديرية . إذن كيف كانت – كما تقول – أول قصة هى أول وآخر مجد .. ماذا تقصد .**

أنا عندما كتبت هذا الكلام ، كان لى فى جنيف أكثر من ١٥ سنة ، وكنت – فى هذه الفترة – أكتب ولا أعرف على الإطلاق صدى كتابتى فى مصر . لم تكن عندى فكرة عما إذا كنت مقروءًا أو معروفًا أم لا ، إلى أن حدث وزرت مصر . فى الأتيلية كانت هناك ندوة عن « بالأمس حلمت بك » ، فوجئت بعدد كبير جداً من الشباب وواقفين ، فانتابتنى حالة من الدهشة لا حدّ لها ، وتساءلت كيف عرفونى .

ففى الوقت الذى كتبت فيه حكاية أول وآخر مجد ، لم يكن عندى أدنى تصور عن أن كتبى يمكن أن يختارها أحد كأفضل كتاب . لم تفتح الأمور إلاّ بعد ذلك ، بعد الفترة التى كتبت فيها مقدمة « خالتى صفية والدير » وقلت فيها هذا الكلام .

*** بعد رجوعك نهائيًا إلى مصر ، هل كثرت الكتابة عندك ؟**

– لا .. بالعكس ، قل معدل الكتابة ، لأنى – ولا تندهش مما سأقوله لك – أشعر أنى عدت إلى بلد غير الذى تركته ، إلى الأبد مختلف تمامًا ، أحتاج أن أقرأه إلى آخر العمر إن كان فى العمر بقية . كل شىء تغير .. نوعية العلاقات ، عادات التذوق ، كل شىء .

أنا أكتب ، أكتب كثيرًا ولكن لا أفرج عما أكتبه ، لأنى لا أحس فيما كتبت حتى الآن أنى وصلت إلى هذه المفاتيح التى أكلمك عنها .. إلى مفاتيح فهم هذا العالم الجديد الذى فوجئت به بعد عودتى من الخارج .

*** حدث أن تركت بيت الأهل فى الجيزة واستأجرت غرفة فى بنسيون بوسط البلد .. هل تذكر ؟**

– طبعًا ، كانت للمسألة أسباب ، لأن إخوتى الأكبر كان من تزوج منهم تزوج ، ومن سافر سافر ، ولم يبق سوى أنا والوالدة ، طبعاً هى اختارت أو آثرت ، وهو شىء طبيعى ومفهوم جداً ، أن تبقى مع أختى الأكبر منى مباشرة لترعاها ، فوجدت نفسى

وحيداً فى هذا البيت ، فتركته إلى بنسيون فى وسط البلد ، ظللت فيه ٣ سنين قبل أن أتزوج .

وفيما أهم بسؤاله عن بنت الجيران استطرد بصوت منفعل : كان شيئًا حزينًا جداً أن تجد نفسك وحيداً فى هذا البيت الذى كان يضج بالحياة . كان شيئًا لا يحتمل ، فكان علىّ أن أتركه رغم العبء المادى ، لأنى كنت أدفع إيجار البيت والبنسيون ، وكان دخلى محدوداً جداً .. دخل موظف فى الإذاعة وأنت سيد العارفين .

برق فى خيالى أنى اهتديت إلى مفتاح شخصية بهاء طاهر ، فقلت معقبًا : أنا أحسّ أنك تهرب مما تحب !

– واللّه وارد يا بهاء .. ده تحليل نفسى منك ، وارد أن يخاف الإنسان جداً على ما يحب لدرجة أن يهرب منه ، ولكن هذه الفكرة لم تخطر ببالى قبل ذلك لأعللها لك .

*** على فكرة ، لم تحدثنى عن بنت الجيران !**

– **يضحك** ، يا نهار زى بعضه ، أول حب فى حياتى كان حبى لبنت الجيران ، أذكر أننى كتبت شيئًا عن ذلك فى قصة « شتاء الخوف » . كنت فى الثانوية حين تزوجت ، فقررت أن أنتحر . اشتريت ٣ سجاير .. كنت لأول مرة أدخن فى حياتى ، على أساس أن المنتحر لازم يدخن ، ولما وصلت إلى كوبرى عباس ملأنى الرعب ، فرجعت إلى البيت طبعًا ، لم أنتحر .

*** تجربة الزواج والطلاق ، ماذا تركت بداخلك ؟**

– تجربة قاسية جداً جداً ، لا أستطيع – بدون التعرض لمسائل شخصية بحتة – أن أخوض فيها ، ولكن يكفى أن تعلم .. **يسكت قليلاً** .. ، أن هذه التجربة منحتنى أعظم سعادة فى حياتى .. أنى أنجبت ، ولكن إلى جانب هذه الفرحة الغامرة ، فإن حزن لحظة الانفصال كان أكبر . كان كبيراً جداً جداً .

مأساة أن عالمًا بأكمله يتقوض من حولك ، عالمًا مشيداً أنت شاركت فى بنائه ، وتعرف أوله وآخره . ثم يتقوض فجأة من حولك ! إنها تجربة فادحة لا أتمناها لأحد .

*** أبتسم وأداعبه ، ولا حتى لأعدائك .**

– واللّـه ، ولا لأعدائى .

*** بالمناسبة ، هل لك أعداء ؟**

– هناك أشخاص بحكم طبيعتهم يحملون أحقاداً صغيرة ، ولكننى لست ممن يجتذبون العداوات . ببساطة لأن الأشياء الدنيوية بالنسبة لى شىء تافه فى الحقيقة ، وأسمح لنفسى – وأنا فى هذه السن – أن أقول : إنها لا تعنى لى شيئًا على الإطلاق . أُقسم لك ، ولم أسع إلى شىء قط . يعنى أنا الآن أملك شوية فلوس ، لأنى اشتغلت فى الأمم المتحدة ، واشتغلت هناك لأنى طردت من عملى . عندى فلوس تكفينى لكى أعيش ، لكنى لم أسع إليها ، ولا إلى الشهرة أو الجوائز .. شكراً لمن يعطينى جائزة ، ألف شكر ، لكنى لم أسع إلى شىء ، وكلما سئلت عن الجوائز التى أحصل عليها أقول : هذه جائزة للجيل بأكمله وتقدير له .

أسأله : هل هذا تواضع ؟ فينفى بحماس :

يمكن من قبيل الغرور ، وأخد بالك ، لا من قبيل التواضع . أذكر وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى ، كانت صورى تنشر فى مجلة الإذاعة والتليفزيون ، وفى جرائد كثيرة ، ولكن لم يكن هذا يعنى شيئًا بالمرة .

*** الذين ينتهجون هذا النهج فى الحياة تواريهم الظلال ، لا سيما فى هذا العصر ، ولكن أنت مشهور ، ويسعى إليك التقدير ، هل كان سلوكك هذا من قبيل .. اطلب الموت توهب لك الحياة !**

– **يضحك ، ويقول** : جائز ، لكن – وأول مرة أقول هذا الكلام – هناك أصدقاء يقولون لى : قدم على الجائزة الفلانية ، أقول لهم : متشكر ، لا أريدها ، .. أكتب فى الجورنال الفلانى أقول شكراً . لا أدرى ، هكذا خلقت ، وقد يكون مصدر هذا – كما قلت لك – غرور شديد ! ما أعرفه – يقينًا – أن كل الأشياء الدنيوية لا تعنى لى شيئًا . ما يهمنى كثيراً أن أكتب شيئًا أرضى عنه ، وما يتلو عملية الكتابة شىء لا يخصنى .

قلت متخابثًا : ألم يعدك المتنبى ، وإعجابك به لا حدّ له ، بدنيويته الواسعة ، ألا تذكر قوله مثلاً :

أريـد مـن زمنـى ذا أن يبلغنـى   ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

- أنا إعجابى بالمتنبى له حد . إعجابى به عليه تحفظات كثيرة .. هناك جوانب في شخصيته وفى شعره لا أوافق عليها ، ولكن ما أوافق عليه مبهر . ضحك ثم قال **مؤنبًا طريقتى فى المشاكسة** : أنا لا أريد أن أقول يا أستاذ بهاء : إننى زاهد أو عازف عن الدنيا . هذا غير صحيح على الإطلاق ، ولكن الحقيقى ، وما أريد أن أقوله : إن إحساسى بأعظم مجد يحققه الكاتب أن يكون لكلمته تأثير يوازى ما كان يطمح إليه . يوازى ما كان يهدف إليه ، ولكنى أرى أننا فى هذا العصر ، وفى تلك المرحلة الزمنية وربما بدءًا من السبعينيات ، أن الثقافة فقدت تأثيرها ودورها وأهميتها ، فكأن كل أنواع التكريم والتشريف « ألقاب مملكة فى غير موضعها ..» أو شىء من هذا القبيل .

أذكر أننى عبرت ، فى مرة من المرات ، تعبيرًا متشائمًا عن هذه الحكاية ، قلت : إن كل أنواع التكريم التى تصادف الكتابة الآن أشبه بباقت الزهور التى ترسل فى الجنازات .. جنازات الثقافة ، لأنه لم يعد للثقافة - فى حقيقة الأمر - أى تأثير على المجتمع لأسباب ليس هذا مجال ذكرها .

زفرت نفسًا مكتومًا وقلت : خاصة أنها ستأتى فى الفصول التالية . على أية حال ، بعيدًا عن هذه الشجون أستاذ بهاء ، والتفت إليه ، كان حزينًا ومتعبًا ، فقلت فى نفسى : هل طلق الدنيا بالثلث ، واكتفى بالحزن الجارح والكتابة ! غريبة كيف لم ألحظ أن تلك اللوحة النحاسية الصغيرة على باب شقته مكتوب عليها « بهاء طاهر .. كاتب » ، هكذا فقط . بدون « حزين » !

كبر بهاء طاهر !

حين فتح لى الباب فى الثامنة والنصف مساء قلت له : باب شقتك صغير يشبه باب الدير فى قريتنا . ضحك ، وأردت أن أسأله عن الخالة صفية وحربى والمقدس بشاى ، لولا أن بادرنى .. هذا أهم شخص فى حياتى . تعال ، نظرت فرأيت فى يده المفرودة صورة لحفيده . لم أعلق سوى بابتسامة .

الآن – بعد منتصف ليل القاهرة بنصف ساعة – أتذكره . سينقذني هذا الطفل من الحرج الذى أحسه .. أكيد ، لقد طلب منى جده منذ قليل ، فى آخر السؤال الفائت أن نكتفى اليوم بهذا القدر .. اتفقنا ، لكن ما زال معى سؤال عن بهاء طاهر الأب ، ورغبة فى أن يطول الحوار بيننا أكثر ، رغم تأخر الوقت ، ونحن فى الشتاء . ماذا لو تخابثت عليه ثانية . سأسأله عن هذا الحفيد .. .

قال وبريق يلمع فى عينيه : أنا متعلق بشدة بهذا الولد الصغير الذى ، ككل أبناء هذا الجيل أو هذه السن ، لا يرجو لأحد وقاراً .. **يضحك بطفولة بالغة ،** فعلاً « أغلى من الولْد ، ولْد الولْد » . يتعامل معى بقسوة بالغة ، ولكنى أحبه حبًا شديداً ، مافيش فايدة ، سافرت له أكثر من مرة إلى الخارج ، وأسافر له الآن فى الداخل ، وهو أصعب من السفر فى الخارج ، لأنه ساكن فى مدينة نصر ، وأنا فى دولة جنوب القاهرة ، وأنت تعلم صعوبة المواصلات من هنا إلى هناك ، ولكنى أركب له الصعب فى كل الظروف ، سواء كان هذا الصعب طيارة فى الخارج ، أو تاكسى فى القاهرة !

ضحك وسكت قليلاً قبل أن يقول بصوت خافت : ليس لدى ما أقوله ، غير أنى أحبه جداً . **أردت أن أستعيده ، فسألته عنه كأب ، قال :** اسأل ديناويسر .

وراح بعيداً ، مع أحزانه وتأملاته ودخان سجائره الكليوباترا سايز . منذ فترة كان يدخن المارلبورو الأحمر . لماذا كفَّ عن ذلك ، ولماذا يسحب نفس الدخان بهذه القسوة !

لو أعرف فيما يسرح الآن .

لو أعرف كيف أن « أبشع شىء ليس هو الحزن ، ولكن اختفاء الحزن »(*) .

* * *

(*) « أنا الملك جئت » .

« موسيقى وملك ومظاهرات »

* حين اكتشفت طه حسين وشعر المتنبي والموسيقى ، ماذا حدث ؟

– في الحقيقة حدث خلق جديد . إذا كنت تريد الدقة ، حدث ميلاد جديد ، بمعنى أن الحياة قبل ذلك كانت محدودة بحدود القراءات المحدودة التي كلمتك عنها ، القراءات العشوائية .. روايات الجيب ، الحاجات التي لا تندرج في سياق تكوين ثقافي كامل ، واخد بالك ، إنما هي مكونات أولى ، يعني تمهيد أرض ، إذا جاز التعبير ، لكن مكتبة المدرسة السعيدية الثانوية كان لها فضل كبير جداً عليّ .

أنا قلت لك قبل ذلك : إني اكتشفت طه حسين في بعض أعداد « الكاتب المصري » ، لكن كتبه اكتشفتها في هذه المكتبة . كان أمين المكتبة شقيق الشاعر إبراهيم ناجي ، وكان يشبهه كثيراً ، وهو شخص ودود وسمح إلى أبعد الحدود ، بمنتهى البساطة يقول لك : بدل ما انت قاعد تلعب في الفسحة كده ما تيجي تقرأ لك شوية في المكتبة .

في الأول بدأت بقراءة الحاجات السهلة .. المختار من « ريدرز دايجست » ، وحاجات ممكن تقضي بها وقت جميل بعيد عن وجع الراس بتاع الدروس الجافة . لكن لا أعرف هل قرأت « أيام » طه حسين في مكتبة السعيدية الثانوية ، أم ضمن الكتب التي كانت توزع علينا للقراءة الحرة .. أفتكر إنه اتوزع علينا كتاب لمحمود تيمور ، و « يوميات نائب في الأرياف » . هل « الأيام » كانت ضمن هذه الكتب . لا أذكر في الحقيقة . ولكن قراءة « الأيام » كانت شيئاً فاصلاً في حياتي . كنا نخجل من فقرنا ، لكن لما تشوف كاتب عظيم يتكلم بالجرأة دي عن نشأته الأولى وفقره المدقع ، وإنه الوجبة الأساسية بتاعته كانت هي العسل الأسود ، وبعدين تشوف الطريقة السلسة التي يعبر بها عن تجارب باللغة الصعوية ، تكتشف أن في حياة الواحد تفاهات كثيرة لابد أن يتخلص منها . أنا أظن ذلك ، بالنسبة لي على الأقل ، لأن الحياة جد جداً ولا تحتمل العقد النفسية أو الشكوى من الفقر والمشاكل .. لازم تتعاش جد . هذا هو الدرس البسيط والأول الذي تعلمته من قراءة « الأيام » .

قرأت الأيام – مؤكد – فى السنة الأولى من الدراسة الثانوية ، بعد ذلك أصبح طه حسين رفيق حياتى .

* والموسيقى .

– اكتشفت الموسيقى بفضل صديق لنا اسمه حامد البلاسى ، شقيق الشاعر البورسعيدى مكرم البلاسى . كان حامد زميلى فى السعيدية الثانوية ، وكان عامل حاجة اسمها « جماعة الجرامفون » .. يجيب جهاز جرامفون عتيق كده ويقعد يسمعنا . أنا رحت من قبيل الفضول .. سمعت شهر زاد لكورساكوف ، وحاجة اسمها «١٨١٢» لتشايكوفسكى .. دى مقطوعة حماسية قوى ، سمعت الموسيقى الكلاسيكية البسيطة . وده كان ذكاء من حامد إنه مادخلناش على السيمفونيات والكونشيرتات ، إنما على مقطوعات الموسيقى الكلاسيكية التى يمكن أن يجذب اللحن فيها الأُذن .

طبعًا فيه ناس كانوا يحضروا الجلسات دى ويمشوا ما يرجعوش تانى . أنا الحقيقة استهوتنى جداً ، لأنى – طول عمرى – أحب الموسيقى .. كنت أسمع أم كلثوم .. كنا نقعد – البيت كله – نسمعها فى السهرة بتاعة الخميس الأول من كل شهر . كنت أسمع عبد الوهاب والإذاعة اللى هى الحاجة الوحيدة المتاحة ، كنا نسمع فى الصبح شافية أحمد « الورد .. الورد » ، والحاجات اللى كان يُعتقد أنها تدى الإنسان نوع من التفاؤل مع بداية اليوم . كانت هناك – أظن – أغنية أخرى فى الإذاعة اسمها يا بنفسج ، وأغانى لمحمد قنديل ، وكارم محمود ، وبرامج غنائية زى نعسة وأرزاق وكده . المهم أضيف إلى ذخيرتى هذه من الموسيقى والأغنيات المصرية ذخيرة من الموسيقى العالمية .

كانت المسألة خلاص دخلت جوايا قوى ، فابتديت أدور على الأماكن اللى ممكن أسمع فيها موسيقى . طبعًا كان من قبيل الترف المستحيل أو حتى الخيالى إنه يكون عندى جرامفون . دى مسألة لم تكن موضع تفكير على الإطلاق . ابتديت أدور علشان أسمع هذه الموسيقى مجانًا ، كانت بعض المراكز الثقافية تقدم هذه الموسيقى فى اسطوانات . بعد ذلك اكتشفت كنزى الرئيسى وهو « مكتبة الفن » التى كانت تقع قرب ميدان التحرير .. كانت رائعة ، فيها تماثيل لمختار وكتب فى الفن التشكيلى ، كنا نقعد

نقلب فيها فنتعرف على جوجان وفان جوخ ، ثم نسمع موسيقى – ليس من قبيل المبالغة – كنا نسمعها آناء الليل وأطراف النهار .

فى الإجازات الصيفية كنا نروح المكتبة من الساعة ٩ الصبح لغاية الساعة ٩ بالليل ، ما عدا فترة الراحة . فى الحقيقة كانت مرحلة من أخصب وأثرى ما يكون ، لاسيما فى الإجازات . ما أريد أن أقوله : إن ودنى تربت على سماع الموسيقى الجيدة بفضل « مكتبة الفن » التابعة لوزارة الأوقاف العمومية ، وكانت فى قصر جميل جداً . **ويستطرد بهاء طاهر بأسى بعد رشفة شاى** : هدّوا هذا القصر ، لا أدرى لماذا ! فى الستينيات جات لهم هوجة ، يهدوا القصور القديمة ويبنوا مطرحها لوكاندات ، زى ما هدوا القصر الجميل قوى ده اللى مطرحه فندق « ماريوت » ، كان قصر إسماعيل ، وكنت كل ما اعدّى عليه أتخيل محمود سامى البارودى ، لأنه كان فى الحرس الخديوى فى هذه المنطقة ، وكان يحب جارية فى القصر ، وكتب فيها قصائد غزل جميلة .

وكانوا عايزين كمان يهدوا قصر محمد على فى المنيل ! لكن ربنا ستر ، يعنى هدوا قصور كثيرة أوى ما تفهمش ليه . المهم ده مش موضوعنا ، موضوعنا إنى كنت أروح أسمع موسيقى فى « مكتبة الفن » ، واستمرت الحكاية دى طول الفترة الجامعية . وهناك تعرفت على أصدقاء كيثرين على رأسهم صديق الشباب وحيد النقاش – رحمه اللّه – ، وحلمى حنا ، وصبحى شفيق وآخرين . لم نكن فى مدرسة واحدة ولكن جمع بيننا هذا الحب للموسيقى ، هذا الشغف بها .

أيضًا اكتشفت الأوبرا ، وكان صعب جداً إنك تدخل الأوبرا ، أنا بكلمك عن العصر الملكى .. **ضاحكًا** ، كنت أدبّق المليم على المليم واقطع تذكرة بـ ٢٥ قرش ، وتلك ثروة طائلة ، كنت أحوّش علشان أحضر أوبرا « لا ترافيتا » فى مكان اسمه «زيرو وقوف» ، زيرو وقوف ده تبقى واقف ودماغك تخبط فى السقف.. **يضحك الآن بشدة يرتج معها جسده النحيل ، ويرفع يده عالياً فيما يستكمل** ، فوق خالص خالص فى الأوبرا . كانت أرخص تذكرة ، وجنب منى جمهور الأوبرا الحقيقى .. البقالين الطلاينة بريحة البسطرمة والجرسونات . هؤلاء كانوا السميعة الحقيقين للأوبرا . جات لى مرحلة من مراحل عمرى ، عشقت الأوبرا عشقًا شديداً بفضل مكتبة الفن . عشقت فردى واكتشفت موزار ، وفاجنر ، وبوتشينى ، وليون كافالو .

أحببت الأوبرا ، لأن الصوت البشرى نفسه يصبح آلة موسيقية . وشعرت بحب شديد جداً لهذه الموسيقى الصوتية ، وكنت لما أروح فى السنة مرة أو مرتين يبقى رضا . لكن برغم ظروف الفقر الشديد التى كلمتك عنها ، تربيت ثقافيًا تربية أرستقراطية ، بفضل مكتبة الفن ، بفضل جماعة الجرامفون ، بفضل مكتبة السعيدية الثانوية ، بفضل الكتب المجانية التى كانت توزعها علينا وزارة المعارف كقراءة حرة . الواحد وصل إلى أرستقراطية الفكر بوسائل زهيدة جداً تكاد لا تكلف الإنسان مليماً .

*** نعود لوالدك ، خريج دار العلوم ، هل كان له نشاط سياسى ، ألم يحدثك عن شىء ، أو عرفت شيئًا من هذا القبيل .**

– هو ما كلمنيش ، بس عرفت من أخى الأكبر إنه كان فى التنظيم السرى لثورة ١٩١٩، وأذكر قصة طريفة جداً عن الحكاية دى .. بعد ما توفى والدى ، ابتدينا نوضب المكتبة ، فلقيت فى وسطها مسدس .. **ابتسم وهو يشعل سيجارة أخرى ويقول** : لقيته مستخبى بين الكتب . قال لى أخويا الكبير : تعرف حكاية المسدس ده ، أبوك كان فى التنظيم السرى بتاع الوفد . لكننى – حتى الآن – لم أفهم لماذا كان أبى يكره الوفد ! هل لأنه معترض على المفاوضات ، هل شاف أن الوفد انحرف عن طريقه . لا أعرف . هذه تكهنات . المهم سبب لنا المسدس مشكلة فظيعة ازاى نتخلص منه ! لأن الثورة قامت ولو عثروا عليه معنا ، كان يبقى اسمنا عاملين تنظيم إرهابى ، **يضحك** ، مش فاكر أخويا اتخلص منه ازاى .

*** نعود إليك ، ماذا عن مظاهرات السعيدية الثانوية ضد الملك والإنجليز ؟**

– يا أخى دى كانت حاجة زى الحلم كده .

السعيدية الثانوية مدرسة كان لها وضع خاص جداً ، لأنها جنب جامعة القاهرة مباشرة ، والجامعة كانت تغلى بالتيارات السياسية ، وكذلك مدرستنا . أنا قلت ، فى مرة من المرات ولم أكن كاذبًا : إن الفصل الواحد فى السعيدية الثانوية كان برلمانًا كاملاً . كنت تلاقى فيه الوفديين والسعديين والأحرار الدستوريين ، أبناء أصحاب الحزب ، وتلاقى الإخوان المسلمين والشيوعيين ، وكنا نعرفهم من طريقتهم فى الكلام ، وكانت المناقشات والخناقات بين الطلبة لا تنقطع بسبب الخلافات السياسية طبعاً . وأنا وصفت الحكاية دى فى مقدمة « خالتى صفية والدير » .

كان الطلبة فى معظمهم ، والبلد فى معظمها فيها حس الغليان ، والإحساس بأن الأوضاع لا يمكن أن تستمر على ما هى عليه . الملك طول الوقت فى قمار ومغامرات غرامية ، بينما البلد محتلة بالإنجليز ، والأزمات الاقتصادية متلاحقة . كنا نعلق آمالنا الأكبر على حزب الوفد ، **صمت طويلاً كأنه يتذكر قبل أن يواصل** .. كان الوفديون هم الذين يتبنون المظاهرات فى الأغلب الأعم ، وكانت تهتف - دائمًا - بسقوط حكم الإرهاب أيام حكومة عبد الهادى ، والنقراشى ، ولم يكن يتاح لها أن تستمر طويلاً . أول ما تقوم مظاهرات ، تقفل المدرسة لأجل غير مسمى ، ثم يعاد فرز الطلبة (أ، ب ،ج ، د) . الطلبة غير المشاغبين فئة (أ) .. إلى آخر زعماء لجان الأحزاب (د) .. وكانوا يدخلون آخر ناس .

بعد ما جاءت حكومة الوفد ، بقيت المظاهرات - فى أغلب الأحوال - للمطالبة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وكان يتبناها الإخوان والشيوعيون والمستقلون . أذكر أننا شاركنا فى مظاهرة وتكلم معنا محمد صلاح الدين باشا .

وزير الخارجية .

نعم ، كان فى ذلك الوقت وزير الخارجية .. شوف أد كده الروح الليبرالية كانت موجودة . وزير خارجية يكلم طلبة ثانوى !!

شرح لنا أسباب عدم إلغاء المعاهدة ، طبعًا بعد إلغائها ، كانت المظاهرات للإعراب عن التأييد للحكومة ولتأييد الفدائيين .

بعد صمت قصير يستكمل :

هذه الحقبة كانت شديدة الثراء بفضل المناقشات والخطب التى كانت تقال فى المظاهرات . كانت المظاهرة تبدأ بـ « يسقط الطلبة الجبناء » ، أى اللذين لم يشاركوا فى المظاهرة ؛ ولأن أحدًا منا لا يريد أن يكون جبانًا ، فكلنا كنا تخرج فيها . مرة كان يخطب الوفدى ، ومرة الإخوانى ، ومرة الشيوعى ... إلخ . وطبعًا أنا كنت أستلف من الوفدى جرنال « المصرى » ، أقرؤه فى الفسحة ، ومن السعدى جرنال « الأساس » ، ومن الشيوعى جرنال « الملايين » . كانت فترة تثقيف خصبة .. فترة تكوّن وعى . أشعر بمنتهى الحنين إليها حين أتذكر ذلك .

كانت كلمة الحنين هذه محمّلة بحمولات شتى حين قالها بهاء طاهر ، منها الشوق الملح للعودة إلى الماضى . لكنّ الدلالة الأبعد للكلمة ، وقد بدأت نبرات صوته تتصاعد حين قالها ، ذلك الأسف على الحاضر .. على مجتمع بلا رأس . ثم هو الخوف من المستقبل فيما أظن .

ويتدفق الروائى :

إلى هذه الدرجة كان الإحساس بالانتماء ! إلى هذا الحدّ كان الإحساس بأن مشاكل البلد هى مشاكلنا الشخصية . كان الحب متأصلاً فينا !

*** فى ظل هذه المذاهب ، سياسية وفكرية ، وكنت تتشكل ، ألم يغرك مذهب أو حزب بالانضمام إليه ؟**

– لا لم أنضم لأى تنظيم ولا لأى حزب أبداً .

حتى وأنت كبير !

– ولا حتى لما كبرت ، أنا متأمل ، ولكن ما أشعر أنه واجب لا أتردد عنه . يعنى أنا تطوعت – بدون أدنى تردد – فى ١٩٥١ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ولو أتيح لى الذهاب للحرب لذهبت . وكنت أشترك فى المظاهرات ، لأن هذا واجب وطنى .. كان عندنا مدرس تاريخ اسمه « السعدنى » ، كان أكثر قسوة على الطلبة الجبناء من زعماء المظاهرات ، كان يقول لنا : مش بلدكم دى ، ما بتطلعوش ليه ، ما بتتكلموش ليه ضد الإنجليز وضد السراى . أنا لا أذكر ميول الأستاذ « سعدنى » ، ولكنه كان شعلة من الوطنية ، وكانت دروسه فى الفصل دروساً فى الوطنية أكثر منها فى التاريخ .

المهم ، فى هذه الحدود كنت أشارك ، أمشى فى مظاهرة ، أشارك فى ندوات الأحزاب ، وكنت أحضر ندوات الحزب الاشتراكى .. حزب أحمد حسين ، أكثر من غيرها ، وكانت جريدته هى أكثر جريدة أقرؤها ، أو أشتريها ، ولكن لم أنضم لأى حزب .

*** نعود إلى طه حسين .. هل رأيته شخصياً ؟**

– طبعًا .. مراراً وتكراراً ، كنت أحضر محاضراته عن الشعر في العصر العباسي الثاني ، طه حسين كان شخصاً مهيبًا ، وكان يلقي المحاضرة وينصرف . لا تنس أننا كنا في السنة الثانية من الثورة ، والجامعة مليئة بالمظاهرات وبالغضب ، ووضع طه حسين حساس جداً ، لأنه كان وزير المعارف في الحكومة السابقة على الثورة . فكان يأتي مع سكرتيره فريد شحاته ، يدخل المحاضرة ومنها إلى العربية . لم يكن متاحًا لي أو لغيري أن يناقشه في شيء .

هل تمنيت ذلك ؟

– طبعًا ، وكان من حسن حظي أنني حين عملت بالبرنامج الثاني ، سجلت كلمة ألقاها في افتتاح أحد المعارض كرسالة صوتية لا غير ، ثم اتصلت به تليفونيًا لتسجيل المسرحيات اليونانية التي أخرجتها للبرنامج الثاني ، ولكن كان السكريتر هو الذي يرد عليّ . لم ألتق بـ طه حسين مباشرة ، ولا أجريت معه حواراً .. لكني أحببته من بعيد .

*** ماذا يبقى من طه حسين ومن عصره .**

– أعتقد أن هذا موضوع لا يصلح للحوار ، لأنني كتبته في كتاب « أبناء رفاعة » ، كتبت عن أثر هؤلاء الرجال العظام في حياتنا ، وكيف أن الكارثة الحقيقية التي حلت بالثقافة وبالوطن هي أن المشروع متتابع الحلقات منذ رفاعة وحتى طه حسين ، ويمكنك أن تقول حتى نجيب محفوظ ، ويوسف إدريس . هذا المشروع انقطع ، وكان الدعامة الأولى لكل التطورات الإيجابية التي حدثت في المجتمع ، بدءاً من نشر التعليم العصري ، مروراً بالثورية على النفوذ الغربي والاستعمار التركي ، انتقالاً للدعوة إلى الديمقراطية والدستور ، ثم بعد ذلك الدعوة لإنشاء الجامعة الأهلية وإنشائها بالفعل ، وتحرير المرأة ، بعد تحقق الاستقلال النسبي والدستور الأول – دستور ١٩٢٣ ، أفضل الدساتير التي عرفتها مصر على أي الأحوال – ثم انتقلنا للدعوة إلى العدالة الاجتماعية .. أن يكون لكل مواطن نصيب في الوطن ، إلى أن قامت الثورة وقالت : إنها تحتضن كل هذه المشاريع ، وأنها هي التي ستنفذ ، وليس للمثقفين ولا لغيرهم دور في ذلك ، فنجحت في أشياء وأخفقت في أشياء أخرى ، ولكن أبرز إخفاق ، في

تصوري ، أن الثورة لم تترك للمثقفين فرصة تطوير مشروع كان هو الوسيلة ، لا أقول الأولى ، وإنما المشروع الوحيد للنهوض بالمجتمع .

*** أعود للسؤال عما بقي من هذا العصر .**

– هذا هو ما بقي منه .

باختصار .

بلوروا ما وصفته في مرات كثيرة بالحلم المصري ، الذي هو – باختصار شديد جداً – حق التعليم للجميع والديمقراطية ، وأن تكون الأمة فوق الحكومة كما عبرت عن ذلك ثورة ١٩١٩م ، وفكرة العدالة الاجتماعية وحقوق المرأة ومساواتها بالرجل .

هذا هو الحلم المصري الذي تتابعت الحلقات في سبيل تجسيده ، وما زال – فيما أعتقد والله أعلم إن كان ذلك سيحدث أم لا ، **عاد بهاء طاهر وكرر** .. ما زال ، برغم خفوت نبرة الدعوة إليه – كامناً في وجدان المصريين جميعاً .

*** وما رأيك ، على ذكر الحلم المصري ، في رؤية طه حسين للغرب ؟**

– طه حسين رأى أن الغرب يمثل الحلقة الأخيرة من حلقات الحضارة الإنسانية ، ولكنه لم يكن راضياً عن هذه الحلقة ، وكان يحلم حلماً رأى أن السبيل إلى تحقيقه ميسور ، ولكن ثبت أنه غير ميسور ، هو أن تقوم مصر بدور الجسر بين حضارة الغرب والشرق ، مستفيدة بأرقى إنجازات الغرب وبتراثها العريق ، لكي تتكرر مرة أخرى ، تجربة الحضارة الإنسانية التي رأى أن هناك عصرين زاهرين يمثلانها .. مرحلة الإسكندرية التي كانت يونانية مصرية شرقية ، ومرحلة بغداد العباسية في العصر العباسي الثاني ، عندما كانت أيضاً نقطة الالتقاء للحضارات الفارسية واليونانية والعربية .

كان يحلم بقيام ثقافة إنسانية تجمع وتجسد أفضل ما في الغرب والشرق معاً ، ورأى أن مصر هي المؤهلة لتكون بؤرة هذه الحضارة . أما القول بأن طه حسين دعا إلى أن نتشبه بالغرب ، ودعا إلى أن تكون مصر قطعة من أوروبا ، كما يقول من لا يعرفون شيئاً ، فهؤلاء لم يقرءوا لا طه حسين ولا مشروعه ، ولا يعرفون عنه شيئاً .

*** وكيف ترى أنت هذا الحلم .. هل مصر مهيأة فعلاً له ؟**

– جداً ، أنا رأيى أن مصر كان يمكن أن تحقق هذا الحلم بفضل تراثها الحضارى العريق والمتعدد المصادر ، وبفضل موقعها الجغرافى ، ولكن الحديث – الآن – عن هذا ضرب من التاريخ ، فقد مرت من تحت الجسور مياه كثيرة .

نعود إليك فى الثانوية السعيدية .

التفت إلىّ مندهشاً وقال : هو احنا لسه ما خلصناش السعيدية .. لسه ما خلصناش الجامعة ؟

لا لسه .

يا نهار زى بعضه ! **كذلك قال ثم ضحك ، وعدت أسأل :**

كلمنى عن بهاء طاهر ابن السادسة عشرة ، حدثنا عن وجوده وأحلامه .

– لا يوجد أكثر مما قلته من قبل ، وهو أننى كنت طالباً – شأن غيرى من الطلبة – شديد الانشغال بهموم الوطن عامة . فى حياتى الخاصة كنت تلميذاً فقيراً ، ليس لدى من الإمكانيات غير ما يتاح لمثلى من الاستمتاع بفرص الثقافة المجانية التى كانت متاحة فى ذلك العصر .

*** ماذا بقى من هذه المرحلة ؟**

ما بقى عند جيلى كله ، ذلك الإحساس بأن الانتماء للوطن ولقضاياه شىء أشبه بجلد الإنسان . لا تجد منه فكاكاً .

الآن ...

كثيراً ما ألتقى بأجيال جديدة وأستمع إلى حديثهم ، فتصيبنى دهشة بالغة من أن فكرة الوطن عندهم ، وهموم الآخرين موضوع ثانوى جداً ، فكرة هامشية وليس لهم فى ذلك من ذنب .

أنا وجيلى صناعة عصر ، وهذا الجيل صناعة عصر مختلف .

* * *

« أيــام الجــامعــة »

*** فى عام ١٩٥٢م ، وقعت أحداث فارقة فى حياتك وفى حياة الوطن ... دخلت الجامعة . وتوفى والدك وقامت ثورة يوليو . لماذا اخترت التاريخ ، وما وقع وتأثير هذه الأحداث على طالب فى سنة أولى جامعة .**

– أنا مش كلمتك قبل كده عن الجمعية التاريخية فى السعيدية الثانوية .

لا .

– أيامها أنا كنت رئيس الجمعية ، وما زلت أحتفظ حتى الآن بصورة لى وأنا ألقى محاضرة عن « مذبحة المماليك » . كنت فى ثالثة أو رابعة ثانوى ، لا أذكر ، كانت المحاضرة ضد محمد على من أولها لآخرها ، وكنا فى العصر الملكى . وظل الناظر ، وكان يحضر المحاضرة ، يحاول معى بكل الطرق لأغير رأيى فى محمد على ومذبحة المماليك ، فرفضت رفضًا شديداً ، لم يكن أمامه غير أن ينهى المحاضرة ، لأنه شعر بحرج شديد ، كان اسمه حامد نبيه بك على ما أعتقد ، أنهاها بنكتة وانصرف حتى لا يؤخذ عليه أنه استمع إلى محاضرة تهاجم رأس الأسرة المالكة . ولكن لم يحدث شىء . كانت هناك تلك الليبرالية التى تسمح بالبحث العلمى دون أن يصيبك أذى .

*** هل كانت حرية حقيقية ؟**

– كانت نسبية .

أردت أن أذكره بالسؤال فقلت : كانت هناك دوافع إذن لاختيار التاريخ ، لكن الروائى واصل كلامه ، بعد صمت ، عن زمن السعيدية :

... وبعدين فى خامسة ثانوى – الثانوية العامة الآن – دخلت مسابقة التاريخ ، كانت تُجرى سنويًا مسابقة فى كل مادة من مواد الدراسة ، ويسمح للعشر الأوائل فيها بدخول الجامعة مجانًا ، فضلاً عن ٢٠ جنيهًا جائزة . أظن أننى كنت الرابع فى هذه المسابقة ، وفعلاً تمتعت بالمجانية فى التعليم الجامعى وحصلت على قيمة الجائزة . كانت الـ ٢٠ جنيهًا ثروة طائلة فى حينها ، المهم امتحنا فى أربع كتب .. الجزء الثانى من تاريخ الجبرتى ، وكتاب باللغة الإنجليزية اسمه « فائدة التاريخ » ، وكتاب اسمه

« صور من التاريخ الإسلامى » للدكتور عبد الحميد العبادى ، وكتاب عن تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط ، لا أذكر عنوانه ، للأستاذ محمد رفعت ، الذى كان وزيراً للأوقاف .

كنت محباً للتاريخ غاية الحب ، وما زلت قارئًا نهمًا له ، ولما دخلت الجامعة ، كان مسجل الكلية يسألنى عن القسم الذى أريده ، أنتظر أن أختار قسم الإنجليزى ، لأن مجموعى متقدم جداً فى الإنجليزى ، وكان هذا القسم هو فاكهة الكلية ، فقلت له : طبعًا قسم التاريخ ، فأصاب الرجل ذهول ، لأن التاريخ قسم الغلابة ، ونسيتك فى القول ، أن أبى حزن جداً حين دخلت كلية الآداب ، لأنه لم يكن يريد لأحد من أبنائه أن يكون مدرساً .

كان يعتبرها مهنة جاحدة .

– جداً ، كلمتك أظن عن الحكاية دى .

آه .

وقال أبى : كمان قسم التاريخ !!

*** لم تقل لى ، كيف استقبلت لحظة قيام الثورة .**

– كانت فرحتى عارمة طبعًا ، وهرعت مع من هرعوا إلى ميدان عابدين ، كانت دبابات الجيش العتيقة اللى عاملة زى الكراكات .. **قال ذلك وهو يرجع بظهره للوراء على كنبة الصالون العربى البنية ، كان يضحك ضحكته العميقة الصافية وأكمل ..** كانت هذه الدبابات تحيط بالقصر ، أظن أن التفافنا حولها كان فيه رسالة فهم منها الملك أن بقاءة مستحيل . كان الملك وقتها فى الإسكندرية ، وكان فى ذهننا فى ذلك الحين ، عرابى ووقفته فى ميدان عابدين والخديوى توفيق يقول له : أنتم عبيد إحساناتنا .

فجأة توقف بهاء طاهر وقال لى : معلهش عايز أستطرد ، استطراد صغير قوى ، **ولم يكن بالطبع فى حاجة إلى إذن منى ، بك كنت أحب استطراداته تلك ، كنت أعيش معها لحظات حية فى عينية ووجهه المتغضن ، وهو يحكى بحب عن أيامه وعن الوطن ،**

قال بحماس : شوف تفاصيل تاريخ مصر كانت بالنسبة لجيلي شيئًا لا ينتمي إلى الماضى أبداً ، وأنا حين كنت أقف فى عابدين ، والميدان غاص بالبشر ، حتى الشوارع الجانبية ، كنت كأني – وكل الناس – نرد على الخديوى توفيق .

الآن لا أحس أن هذه الحكاية موجودة أبداً

طبعًا فرحنا بالثورة غاية الفرح ، وكان يوم خروج الملك عيداً . ولا أنسى موقفًا طريفًا حدث فى ذلك اليوم ، موقفًا يشبه النكتة .. كنت راكب طرماى ١٥ اللى بيروح من الجيزة إلى العتبة ، وطلع ولد صغير بتاع عشر سنين ، بجرنال وهو يقول : انتحار الملك السابق ، انتحار الملك السابق . فكل الناس اشترت الجرنال بتعريفة ، كان مكتوب عليه « المصرى » ، وكان « المصرى » جرنال شهير جداً طبعاً .

بعد ما اشترينا الجرنال لقينا فوق « المصرى » كلمة صغيرة قوى اسمها « العلم » ... يعنى العلم المصرى ، وتحت مانشيت .. انتحار الملك السابق ، مكتوب .. ماديًا وأدبيًا ومعنويًا !!

ضحكنا معًا بعمق ، بينما كان يمسح بهاء طاهر عينيه قائلاً : كانت الفرحة بالثورة عارمة طبعًا ، إلاّ عند أصحاب المصالح !!

وكان لابد إن يستريح ، فاقترحت أن نعدّ الشاى . فى المطبخ كان يستدرجنى للكلام عنى .. عن مشاريعى – الكثيرة كما قال – وعن خطيئتى وعن المستقبل ، وآخر القراءات ... ، وقال : إن قصائدى مكثفة أكثر من اللازم ، وأنه مختلف مع قصيدة النثر ، قلت : فليكن ، أنا أيضًا مختلف ، ولكن مع « النثريين » لا مع المشروع .

وقلت : ليس مهمًا فى أى شكل نكتب ، المهم – وأنت سيد العارفين – ماذا وكيف نكتب . ذلك رأيى .

على كل دعنا من هذا الآن ، وحملت عنه صينية الشاى ، ولم يكد يرجع لمكانه المفضل .. على الكنبة واضعًا ساقًا على ساق ، حتى سألته .

فى هذه الفترة ، أقصد فترة الجامعة ، بدأت مرحلة جديدة فى تكوينك مع وحيد النقاش ، مصطفى أبو النصر ، صبحى شفيق وغيرهم . هل تذكر . حدثنا عن هذا التكوين . وبدا لى أننى فاجأته ؛ لأنه راح يشرب الشاى . ساكتًا . لكنه قال :

التقيت – كما قلت لك – بوحيد النقاش فى مكتبة الفن ، ومرة خرجنا معًا لا هو معه فلوس ولا أنا طبعًا . كنا مروحين ، وحيد « بين السرايات » ، وأنا كنت أسكن فى الجيزة . فى الطريق دلنى على حاجة كويسة اسمها مجلة « الآداب » وقال لى : هاوريك عدد منها ، وأنا كلمته عن قراءاتى ، وبعد ذلك قدمنى إلى صبحى شفيق وأخوه رجاء ، والتقيت – فى ظروف لا أذكرها – بمصطفى أبو النصر وواحد معاه اسمه بهى الدين شعيب ، وعبد المنعم عواد يوسف ، وكامل أيوب .. وعلى مبعدة عرفت حسن حنفى ، وكان .. **يصمت قليلاً يتأثر ويكرر** .. ، كان من أساتذتنا القريبين منا جدًا الدكتور محمد كامل حسين رحمة اللّه عليه ، والدكتور محمد أنيس الذى لم تكن علاقته بى علاقة أستاذ بتلميذ ، بل علاقة صداقة .. كان يحكى لى همومه وكنت أحكى له ، ربطتنى به علاقة ود شديد جدًامع المرحوم جلال السيد الصحفى .. كان معى فى قسم التاريخ .

كانت الجامعة مليئة بالمظاهرات فى تلك الفترة ، ولكنها كانت تقمع قمعًا شديدًا ، أذكر أن أول مظاهرة .. تلك التى قلنا فيها : « يسقط حكم البكباشية » استقبلت من على باب الجامعة ، كان الجو السائد جو خوف ، ثم بدأ فى السنة الثانية أو الثالثة لى ، نظام الفصلين الدراسيين لمنع الطلبة من التظاهر والاعتصام .

*** أسألك عن التكوين الثقافى فى تلك الفترة .**

ذكرته بالتفصيل فى مقدمة « خالتى صفية والدير » .

*** ألم تنس شيئًا ؟**

لا .

*** طيب قل لى ، رغم فرحتكم بالثورة ، هتفتم « يسقط حكم البكباشية » كما قلت ، وفى فترة تالية كتبتم ضدها ، ماذا كنتم تريدون ، ألم تشاركوا فى صنع هذه الثورة !**

– كنا نريد الحرية ، ولعلمك ، ولعله من مفارقات القدر ، كان أشد أنصار الثورة فى السنة الأولى « الإخوان المسلمون » كانوا يشاركون فى تحطيم اضرباتنا ، بل كانوا يشاركون فى الضرب أحيانًا ، وبعدها مباشرة كانوا هم يُضربون من الثورة .. غريبة !

*** وكيف كانت الثورة مسئولة عن الازدواجية التى كتبت أنت وجيلك تحت وطأتها !**

– تم هذا بطريقة تلقائية ، لأن كل خطوة إيجابية كانت تعملها الثورة كنا نؤيدها تأييداً شديداً .. زى صفقة الأسلحة التشيكية . على فكرة اتفاقية الجلاء لم نكن متحمسين لها ، لأنها تنص على أن يكون للإنجليز بقاء أو قاعدة عندنا . إنما بصفة عامة زأطتنا لما طلع قانون الإصلاح الزراعى . لما طلعت القوانين الثورية الأولى .. بتاعة إلغاء الألقاب وتطهير المؤسسات من الموظفين المرتشين . كل هذه الأشياء فرحنا بها جداً .

وكنا نشعر بحزن قاتل لعمليات قمع الديمقراطية ، ومحاكمات الثورة ، وأزمة مارس ، وإلغاء حرية الصحافة ، وإلغاء حق التظاهر ، وإلغاء حق تكوين الأحزاب ، والمحاكمات الباطشة للخصوم السياسيين . كان جمال سالم يشتم المتهمين !! يا أخى كانت حاجات غريبة . فى مثل هذه المحاكمات الدكتاتورية الهزلية ، كنا نبقى فى غاية النكد .

من هنا كانت هذه الازدواجية .

نعم .

*** لكن ألم يكن للثورة قيم إيجابية تمثلها جيلك ، أو حاول التعبير عنها بعيداً عن واقعية نجيب محفوظ والشرقاوى .**

أظن أننا حاولنا – بشكل أو بآخر – من خلال كتابتنا ، إلى جانب الاحتجاج على المظالم الفردية ، أظن كنا نستكمل ما كان يكتبه يوسف إدريس ، ونجيب محفوظ فى مجال الدعوة إلى العدالة الاجتماعية باعتبارها مجالاً لازدهار الحرية الفردية .. أفتكر ذلك ، وارجع إلى كتابات تلك الفترة ، سواء ما كتبه صنع الله إبراهيم ، أو ما كتبه يحيى الطاهر عبد الله .

*** كيف ترى عبد الناصر .**

– أخ خ .. أصعب سؤال سألته لى حتى هذه اللحظة . سأصارحك ، أنا لم أكن أحبه أيام الثورة الأولى . كان يمثل لى رمز القضاء على الأشياء التى أحبها فى ذلك

النظام الليبرالى .. كحرية الصحافة ، حرية التعبير ، الأمان النسبى الذى كنا نشعر به فى أن نعارض الحكم . لم أكن أحبه . الفترة الوحيدة التى أحببته فيها لدرجة أننى خاصمت فيه أعز أصدقائى ، هى الفترة منذ تأميم القناة حتى نهاية حرب السويس . لم أكن أقبل فيه كلمة من أحد ، لكنى لا قبلها ، ولا بعدها كنت من دراويش عبد الناصر ، ولكنى أحببته .

فيما بعد أيضًا ، حتى بعد النكسة ، عندما رأيته فى التليفزيون منهارًا يعلن تنحيه .

*** هل كان حقيقيًا ؟**

– جداً ، أنا لا أحكى لك نقلاً عن .. ، أنا أحكى تجارب عشتها ، كنت أسكن أيامها فى التوفيقية ، نزلت جرى فلقيت كل الناس نازلين جرى ، كنا حاسين بأن علم الوطن واقع ، وعايزين نرفعه ، والرمز هو جمال عبد الناصر .

*** هل نضعه فى مصاف الزعماء التاريخيين .**

– طبعًا ، هو القائد التاريخى الوحيد فعلاً ، مافيش غيره . أنا أعترف أننى أحببت عبد الناصر بعد موته أكثر مما أحببته وهو حى ، وهناك أشياء كثيرة فهمتها عنه بعد ما مات لم أكن أدركها فى حياته . أنا لا ألتمس أعذارًا للدكتاتورية ولا لقمع الحريات ، ولكن – على الأقل – الواحد فهم بعض الأشياء ... فى خانة السيئات هناك أشياء كثيرة ، ولكن فى خانة الحسنات هناك أشياء أكثر .

*** أهكذا نحسب التاريخ !**

– التاريخ – فى الحقيقة – لا يحسب إلاّ هكذا. لا يوجد حكام ملائكة على الإطلاق . هناك حكام شياطين ، لكن لا يوجد حكام ملائكة ، وهناك حكام لديهم من النوايا الحسنة أكثر مما لديهم من أدوات تنفيذ نواياهم .. منهم عبد الناصر .

*** هل كان بوسع الثورة أن تخلق إنسانًا مصريًا جديدًا ؟**

لا تنس أننى دارس للتاريخ ، وفى التاريخ لا مكان لكلمة « لو » على الإطلاق ، بمعنى أن ما حدث تاريخيًا كان حتمًا أن يحدث بهذه الصورة . كانت الثورة تواجه

أعداء كثيرين جداً في الداخل وفي الخارج ، وهي مضطرة إلى حماية نفسها ، وفي سبيل هذه الحماية ارتكبت قدراً كبيراً من التجاوزات ، أصابت الأبرياء والمذنبين معاً . هذه مسألة لا أدافع عنها ولكني أسجلها . أسجل أن هذا حدث .

*** هل يغفر لهم شبابهم وقلة الخبرة ؟**

– ممكن تلاقي مليون عذر .

*** أنا لا أفتش عن أعذار ، ولكني أريد أن أفهم .**

– تاريخياً ، هذه الثورة قامت في بلد فيه الإقطاع قوي جداً جداً ، وتاريخي منذ ٧ آلاف سنة ، وسطوة رأس المال على الحكم قوية جداً . كان المليونيرات يقيلون وزارات ويأتون بوزارات ، والقوة الشعبية – كوسيلة للضغط – لم يكن يعمل لها حساب يعني . **صمت طويلاً شبه متفكر واضعاً أصبعه على فمه قبل أن يكمل** .. لولا وجود حزب الوفد ، ولولا أن الناس كانت تلوذ به ، ليحقق لهم مطالبهم .. ، لكان من المستحيل على حزب الوفد أن يجري التغييرات الجراحية التي أجرتها الثورة .. قانون تحديد الملكية وخلافه . كان من المستحيل .

*** عبد الناصر كإنسان .. هل كان سوياً ؟**

– لم أقترب منه حتى أحكم عليه من هذه الزاوية .

*** كيف تراه بحكم وعيك له وقراءتك عنه .. بحكم المعاصرة ؟**

– أرى أنه السوي الوحيد وسط الثوريين .

*** من يذكرك من الحكام العرب الآن به ؟**

– لا أحد .

*** وما رأيك في السادات ؟**

– رأيي فيه سلبي جداً .

*** خلاصته :**

– خلاصته أنه رجل كان من غمار الشعب ، فتنكر للفقراء ، وانحاز لعثمان أحمد عثمان ، وسيد مرعي ، وأمريكا ، أنا أعتقد أنه عمل عملاً عظيماً بحرب أكتوبر .

*** حرب أكتوبر .. هل هى انتصار سلاح شوهته السياسة ؟**

انتصار شعب فى واقع الأمر ، لأن الناس ، رغم ٧ سنوات فى الخنادق ، لو قلت لهم : ارموا نفسكم فى النار لفعلوا ، وقد حدث .. هناك قصيدة جميلة جداً للشاعر كمال عبد الحليم – نشرت فى تلك الأيام – يتحدث فيها عن الجنود الذين كانوا يحزمون أنفسهم بالديناميت ويرتمون فى خط بارليف ، لا أذكر نص القصيدة ، ولكن لولا حرب أكتوبر لكان الشعب المصرى قد أكل نفسه ، فعلاً كان العبور حتمياً .

*** لكن السادات لم يستغل هذا العبور .!!**

– أوافقك ، لم يعرف كيف يستغل روح شعب كان على أتم استعداد ، لأن يفقد ثلاثة أرباعه ؛ لكى يسترد كرامته ، لكنه فاجأنا – كالدش البارد – بنغمة إنه مش عايز يضحى بأولاده ، كانت نغمة جديدة خالص ، بعد نغمة الاستعداد للفداء والتضحية ... إلى آخره .

*** هل كان مهرجًا ؟**

– عندما كنت أراه على الشاشة ، كنت أراه كذلك ولم أكن وحدى . هناك كلمة مأثورة عن محمود السعدنى .. أن عبد الناصر موِّتنا من الرعب ، والسادات موِّتنا من الضحك .!!

كمان كان أسلوب السادات فى الحديث ، وطريقته فى الخطابة طريقة فجة ومبتذلة . سمعته بأذنى وهو يشتم بعد أحداث سبتمبر .. كان يقول : فلان مرمى زى الكلب ، وقال – قبل ذلك – كلامًا لا يصدق عقل إنسان أن يصدر عن رئيس دولة على شاشة التليفزيون ، كان يشتم « محمود القاضى » رحمة اللّه عليه ، لأنه قدم استجوابًا عن عثمان أحمد عثمان فى البرلمان ، قال السادات : واحد مقدم استجواب عن وزير مع أن جزمة الوزير أنضف من شعر رأسه . هذه لغة لم نسمعها أبدًا .. **يضحك ساخرًا** .. فى حياتنا !!

*** من أعجبك ممن كتبوا عن حرب أكتوبر .**

– محمد حسنين هيكل .

* وممن كتبوا عن السادات .

– أحمد بهاء الدين .

* نعود إلى ثورة يوليو ، بعد كل هذا العمر ما تقييمك الآن لها ؟

فترة صمت يقول بعدها بإصرار .. إنها تاريخيًا كانت حتمية ، من عاش مثلى ما قبل الثورة يدرك أن قيامها كان حتمياً ، وأنها قدمت للوطن أشياء إيجابية كثيرة ، وقصرت عن تقديم أشياء أخرى ، كان لابد أن تقدمها ، ولكن الخطأ الأكبر الذى ارتكبته ثورة يوليو وثورات المنطقة العربية كلها ، هى أنها قامت الرد على سلبيات موجودة فى نظم قائمة ، ولكنها فى سبيل القضاء على تلك السلبيات ، قضت أيضاً على الإيجابيات التى كانت موجودة فى النظم السابقة عليها . من يريد أن يحدث ثورة أو نهضة أو تقدمًا عليه أن يكمل على ما هو موجود بالفعل ، لا أن يقوم بنقضه وهدمه . بمعنى أن الثورة قامت وكانت هناك مكاسب للشعب المصرى ، تحققت نتيجة كفاح طويل مثل الدستور والبرلمان والأحزاب ، واستقلال القضاء واستقلال الجامعات وأشياء إيجابية عظيمة كانت موجودة من الفترة الليبرالية ، كان المفروض أن نستكملها ، ولكن الثورة – للأسف – هدمت هذا كله من الأساس . هكذا أرى الثورة .

* باختصار أيضًا ، كيف كانت الحياة الثقافية فى الخمسينيات ؟

– كانت حياة تنبئ بازدهار عظيم عرفناه بعد ذلك فى الستينيات .. كانت هناك كتابات نجيب محفوظ ، ويوسف إدريس ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وعبد الرحمن الخميسى ، ونعمان عاشور ، وألفريد فرج ، وصلاح عبد الصبور ، وأحمد عبد المعطى حجازى ، وفرقة كاملة من الكُتَّاب العظماء . كانت حياة خصبة جداً جداً .

* كانت كتابة جيلك ، ما اصطلح على تسميته بجيل الستينيات ، كتابة مغايرة ، أولاً ، ما رأيك فى هذه التسمية ، ثم ألا تتفق معى ، أننا لم نحدد بعد السمات المشتركة لهذا الجيل .

– بالنسبة للتسمية خلاص اكتسبت قوة تاريخية ، وبالمناسبة أنا ضد هذه التسمية ، لأنه لا معنى لها .. هل هناك تيار أدبى أو اتجاه فى العالم كله يقاس بعقود

السنين ! إذن ما معنى جيل الستينيات ؟ إنها تسمية لا تدل على شيء ، لأنها لا تحيل إلى سمات معينة .

أما تحديد السمات ، فليس مطلوبًا - فى الحقيقة - أن نحدد سمات مشتركة ، ولكن علينا أن ندرس هذا الجيل فى تنوعه وفى تفرد مبدعيه ، أما إن كنت تريد أن تخلص إلى المشترك بين هؤلاء المبدعين فهذه مهمة النقاد .

*** وماذا عن المؤثرات التى أثرت فى هذا الجيل ؟**

أظن كل ما حدثتك عنه من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية ، كلهم كانوا مثلى .. فقراء ، لم أر واحداً منهم غنيًا ، أو تعود به أصوله إلى أسر ثرية . كلنا طلعنا من الطبقة الوسطى الفقيرة ، وكلنا كنا مهمومين بالوطن .. فينا الماركسى ، والليبرالى والمستقل زى حلاتى ، ولكننا مهمومون بالوطن .

*** أعتقد أن جزءًا كبيرًا من أزمتكم كجيل يكمن من تمردكم ، فى ذلك الوقت ، على المؤسسات ، واحتياجكم الملح إليها من جهة أخرى . كيف حللت أنت شخصيًا هذه الأزمة ؟**

- نحن عشنا على هامش المؤسسات ، ولم ننتسب إليها قط ، وكان معروفًا أن الكاتب منا يقعد على قهوة ريش وليس فى جيبه ٥ صاغ ، وهو يعلم أنه لو ذهب إلى يوسف السباعى وطلب العون ، سوف يعين فى جورنال أو فى المجلس الأعلى ... إلى آخره . ولكن لم يفعلها أحداً أبداً . كان من العار أن يقال عنك إنك ذهبت للمجلس الأعلى للآداب أو طلبت منه عونًا ، طبعًا هناك أشياء كنا نغتفرها تمامًا ، مثلاً يحيى طاهر عبد اللّه لم يكن يجد ما يأكله ، فطبيعى أن يعمل فى منظمة التضامن الأفروآسيوى .

*** وكيف ترى عملك فى الإذاعة وهى من مؤسسات الدولة ؟**

- أنا دخلت الإذاعة من خلال امتحان ديوان الموظفين ، وهى هيئة حيادية تماماً ، وامتحاناتها شديدة الصرامة والصعوبة ، وكنا ٢٠٠٠ ، رسينا فى الآخر على ٦ ؛ كانت هناك امتحانات تحريرية وشفهية ، وامتحانات صوت ، وامتحانات معلومات عامة .

أتذكر ، أن هؤلاء الناجحين الستة لم يكن لهم واسطة ، احنا نجحنا بقدراتنا الذاتية ، ولكن الراسبين ممن كانت لديهم واسطة ، عينوا بعد ذلك وثبتوا وظلوا فى العمل وطردنا نحن منه .. ، **يضحك بسخرية ويستكمل** .. ، يا أخى كانت الثورة تعلن مبادئ نبيلة مثل تكافؤ الفرص وخلافه ، ثم يتم التحايل عليها من داخلها لإفسادها .

*** أخيراً ، كيف ترى هؤلاء .. يحى الطاهر عبد الله ؟**

– كاتب فذ . هو شاعر القصة القصيرة .

*** هل تشترك معه فى هذه الصفة .**

– أنا لست شاعراً ، هو شاعر .

*** وماذا عنه كإنسان ؟**

– كان شديد العذوبة والجمال ، لا أنسى ابتسامته العذبة ، كانت بتخلى وشه يكرمش وينوّر فى نفس الوقت ، معرفش ازاى ! كان حين يرانى يقول لى .. **يتقمص بهاء طاهر الآن – بشكل غاية فى البراءة والحميمية ، شخصية يحيى فيفتح ذراعيه ويقول له** : أهلاً يا خويا ، ازيك حبيبى . وكان شخصاً محبوباً برغم بوهيميته . كان شخصاً رائعًا يا أخى ، أذكره حين فاجأنى بميدان التحرير ، كنت عائداً لتوى من جنيف ، وبينما أقف بالسيارة فى إحدى الإشارات ، إذا به يحشر رأسه فى الشباك فجأة ويقبلنى ، ثم قال لى : كنت عايز أسلم عليك . وبعدها سمعت أنه مات .

*** وسليمان فياض .**

– لولا هذا الرجل ، بدون مبالغة ، لما نشرت حرفًا .

*** وكيف تقيم دوره كمبدع ؟**

– عظيم هو وأبو المعاطى أبو النجا – كل فى مجاله – كانا رائدين واستطاعا أن يحدثا النقلة التى مهدت السبيل لجيل الستينيات .

* هل أخذا حقهما ؟

– لا ، لأنه يغلب عليهما التواضع الشديد وإنكار الذات البالغ في الحقيقة ، فهما يجدان فرصاً في تقديم سواهما ، لا في الإعلان عن نفسيهما ، وبما أننا نعيش في مجتمع غابي – نسبة إلى الغابة – طبيعي ألا يأخذا حقهما ، أبداً !

* وإبراهيم أصلان .

– أعيد قراءة أعماله ، وكأنني أعيد الاستماع إلى مقطوعة موسيقية أحبها .

* وعبد الحكيم قاسم .

– **يصمت طويلاً ، فأسأله لماذا سكت ؟ يقول** : أفتش عن مفتاحه .. تقدر تقول : إنه مبتدع الواقعية الجديدة في الكتابة ، أظن أن روايته « أيام الإنسان السبعة » تختلف عن كل ما كتب عن الريف قبلها .

* وأمل دنقل .

– الشاعر .

* وماذا عن جمال الغيطاني ؟

– الغيطاني صاحب موهبة فريدة ، وله أعمال ستظل من كلاسيكيات الأدب العربي « الزيني بركات » ، وأعمال أخرى كثيرة .. أنا معجب به جداً .

* ومحمد مستجاب .

– أنا معجب بمحمد مستجاب ، وبأسلوبه الساخر الفريد في الكتابة العربية ، وبقدرته على أن يخلق عالمًا فانتازيًا فريداً ، عالمًا يخصه وحده .

* وجميل عطية إبراهيم .

– صاحب صوت خاص .. شوف كل الأسماء التي ذكرتها ، كل منهم لا يشبه سواه ، كل منهم نفسه فحسب ، وكل منهم ليس فرداً ، بل أمّة .

* هل هناك أحد نسيت أن أسألك عنه ؟

– لم تسألني عن صنع الله إبراهيم ، ومحمد البساطي .

تخيل لم أكمل « صخب البحيرة » ، لم أستطع .

– أنت غلطان خالص .. محمد البساطى ، كاتب صاحب رؤية عميقة ونافذة ، ولغته فريدة فى السرد القصصى والروائى . البساطى من أهم كتاب هذا الجيل .

*** وصنع الله .**

– واحد من الرواد الكبار ، بكل جدارة ، وروايته « تلك الرائحة » هى التى تتضمن ملامح التغيير عن الجيل السابق فى الكتابة . هذه الرواية علامة .

*** لو اخترنا واحداً فقط من هؤلاء لنضعه على القمة .. من يكون ؟**

– لا .. صعب خالص .

*** وماذا عنك ؟**

– لا تضطرنى إلى الكذب .

بمعنى ...

إما سأتواضع ، أو أقول : إنى فريد زمانى ، فلا تضطرنى إلى الكذب . أنا غير راضٍ عن نفسى ، أشعر باستمرار أن الإنجازات تقصر عن الأحلام كثيراً .

*** هل تأثرت بكتابة أحد من هؤلاء ؟**

– لا ، بالمرة .

*** من أقربهم إلى قلبك ؟**

– إبراهيم أصلان ، ومحمد البساطى ككتاب ، أما الصداقة فكلهم أصدقاء .

*** اقتربنا من نهاية الفصل .**

– استنى لم تسألنى عن خيرى شلبى ولا إدوار ولا غالب .

تفضل .

– إدوار الخراط صوت متفرد ينسب إلى نفسه فقط لا إلى جيل . أما خيرى شلبى فهو مبتدع ما بعد الواقعية .. مبتدع تيار الكتابة عن الهامشيين ، وحقق فى ذلك إنجازًا عظيمًا . تبهرنى كتابته ، إنه كاتب كبير جداً .

يبقى غالب هلسًا .

– مع الأسف الشديد فى الفترة الأخيرة من عمره لم نلتق إلاّ مرة واحدة .. فى بغداد قبل وفاته بـ ١٥ سنة . إننى أتذكر شقة غالب التى كان يلتقى فيها كل أبناء الجيل . أتذكر المقاهى وكتابتنا وقسوتنا عليها . أتذكر ذلك الزمن الجميل وأتحسر .

*** نعود إلى أيام الجامعة ، وأنت فى الليسانس ، عملت مترجمًا بمصلحة الاستعلامات ، فأخفيت هويتك ككاتب . لماذا ، وكيف اعتبرت أن هذا من علامات الوفاء لحلمك أنت وجيلك بتقديم أدب جديد .**

– هذه المصلحة كانت إحدى أجهزة الثورة ، وأنا كنت مترجمًا ، فلم تكن لى علاقة بشىء سوى بالترجمة . كانت المصلحة تحتل عمارة كاملة بشارع سليمان باشا اسمها عمارة « ريشا » ، وفيها أقسام كان ممنوع علينا ندخلها . هذه الأقسام أشبه بأجهزة سرية . والجو فى المصلحة كان مخيفًا . بالنسبة لى كنت حريصًا على ألا يعرف أحد شيئًا عنى غير أننى مترجم . وبقيت هناك أقل من سنتين .

أما علامات الوفاء لحلمنا أنه كان من المغرى أن أشتغل فى هذه المصلحة بقسم التحرير مثلاً ، فتبص تلاقى نفسك مترقى بسرعة ، وتاخد علاوات ومكافآت ... إلخ ، ولكنى آثرت أن أبقى بعيداً . وأنا فى المصلحة حدث العدوان الثلاثى على مصر ، كلنا تطوعنا ورحنا فى طابور عسكرى إلى نادى الجزيرة لنتدرب على ضرب النار . بعد أول يوم طلب منا مدير المصلحة عشرة أشخاص ، فرفضنا بشدة أن نترك التدريب ، لكنه قال : الشغل زى الحرب وأوعدكم أن أدربكم فى المصلحة ، فرجعنا ، كنا نعمل ، بدون أدنى مبالغة ، ٢٤ ساعة فى اليوم نترجم ما يأتى من وكالات الأنباء عن معركة السويس . فاكر أننى وصديقى جلال الرشيدى ، فاكر كنا فى الفترة المسائية ، وجاءت برقية من ملحقنا الصحفى فى واشنطن ، كانت خاصة بالحرب ، لا أذكر تفاصيلها ،

لكن كان مكتوب فيها كلمة صعبة قوى قلبنا عليها كل القواميس ، كان اسمها "Tobe" ، فقلت لجلال : بطّل شغل فوراً ، قال لى : ليه ، قلت له : علشان بدأنا نخرّف من التعب . الكلمة المصلحة معانا هى "To - be" .. **يضحك** ، إلى هذه الدرجة زغلل الكلام فى عنينا ، وبعد انتهاء الحرب ، أرادوا أن يعوضوا الناس عن التعب ، فأرسلوهم إلى أوروبا تحت مسمى « بعثات لشرح القضية للرأى العام العالمى » . طبعاً لم يكن الهدف هو الشرح ولا يحزنون .. إيه رأيك جميع الناس اللى راحوا أوروبا ، كانت مكاتبهم فى المصلحة مغلقة ! والناس اللى تعبت حقيقى لم يذهب منهم غير واحد فقط من العشرة !

الذين سافروا كانوا داخلين المصلحة كجهاز ، أما نحن - المترجمين - فلم يكن لنا دخل بتيار الدعاية السياسية أو خلافه .

*** لم تقل لى حتى الآن ، كيف كان إخفاء هويتك ككاتب من علامات الوفاء للحلم بكتابة أدب جديد .**

- أننى لم أرد أن أكون أحد تروس جهاز الدعاية للثورة ، لأننى لم أكن مقتنعاً . لو أنى اندمجت فى هذه المصلحة ودخلت فى عملها السياسى والدعائى كنت بقيت مجرد ترس لا كاتب !

*** إذن ما سبب اشتغالك أصلاً فى هذه المصلحة ؟**

- كان هناك امتحان للمترجمين ، وأنا أعرف الإنجليزية ، فأعلنت عن مسابقة بمرتب « ٥٠ جنيهاً » ، نجحت فيها ، لكن الخمسين جنيهاً انقرضت إلى « ١٠جنيهات » بعد مساومات مريرة ! **يضحك** ..

*** وماذا أضافت لك ؟**

- رسخت عندى سمة الهروب من الدخول فى التهريج السياسى .

*** ألم تستلهم شيئاً منها فى أعمالك ؟**

- لا .

* **هل كنت موظفًا ملتزمًا فى كل المواقع التى عملت بها ؟**

– فيما عدا مسألة المحافظة على مواعيد الحضور ، دائمًا كنت أذهب متأخرًا .. **يضحك** .

* **وما موقفك من الوظيفة كأديب ؟**

– لو أمكن الاستغناء عن الوظيفة سيكون شيئًا عظيمًا للأديب .

* **هل هى عبودية كما يقول العقاد .**

– نعم .

* * *

"هنـــا القـــاهـــرة"

*** فى عام ١٩٥٧ عملت بالإذاعة ، فاخترت البرنامج الثانى ، ما حكايتك مع هذه المحطة ، وما الدور الذى لعبته فى حياتك ؟**

– هذه أهم مرحلة فى تكوينى فى الحقيقة ، يعنى أنا كنت فى مصلحة الاستعلامات قاعد منزوى على جنب كده ، وحريص على ألا يعرف أحد حكاية الأدب دى ، كما قلت لك ، فما بالك أنا رايح مكان كله أدب وكتابة .

أنا دخلت امتحان المذيعين ، كنا عدة مئات ، وصَفْصَفْنَا على ٦ أنفار . اجتزنا امتحانات كانت شديدة القسوة ، شفوى وتحريرى وصوت . وبعدما نجحنا استقبلنا رئيس الإذاعة .

*** هل تذكره ؟**

– محمد أمين حماد – اللّه يرحمه – فاكر كويس إنه فى الامتحان الشفوى الرهيب ده ، طلب منى أوصف له معبد الأقصر ، فوصفته بالترتيب . قال لى .. فى حاجة تانية غير كده ، قلت له .. إيه هيه ؟ قال لى .. أثر غير فرعونى ، قلت له : أيوه فيه بوابة عملها بطليموس الثالث . قال لى .. لا ، فين وفين عرفت إنه يقصد جامع سيدى يوسف أبو الحجاج . سألنى عن كرامة سيدى يوسف .. قلت : لا أعرف ، قال لى : كرامته خاصة بعقم النساء ، لكن مهدى علام – وكان فى لجنة الامتحان – قال له : لا يا أمين بيه ، دى كرامة سيدى عبد الرحيم القناوى . كان الامتحان مجزرة ، مهدى علام خلانى أقرأ له من كتاب إنجليزى ، ومن كتاب عربى علشان يشوف النطق ، وفى الآخر سألنى عن المكان اللى تعلّمت فيه الإنجليزى ، لم يصدقنى حين قلت له : تعلمته بنفسى ، أقصد أن تعرف إلى أى درجة كانت هذه الامتحانات شديدة الصعوبة .

بعد ذلك ، هؤلاء الذين سقطوا فى الامتحانات أصبحوا رؤساء لنا .. **يضحك** .. ازاى .. كان اللى ينجح يتعين بحوالى ١٥ جنيه ، واللى سقطوا اتعينوا بعدنا بشهرين

بـ ١٥ جنيه إلاّ ربع تحت بند « خارج الكادر » لم يعينوا على درجات ، وأصبحوا رؤساء . احنا ترفدنا .. **ضاحكًا بسخرية** ، والحمد للّه .

المهم كان البرنامج الثانى له حوالى شهرين أو تلاتة ، فلما سألنى أمين حماد عايز تشتغل فين ؟ قلت له : فى البرنامج الثانى . اندهش الرجل جداً ، قلت له : أنا أحب هذا المكان ، فوافق ، لكنى لم أستقبل بترحاب هناك . كانت به مجموعة من خيرة المثقفين .. سميرة الكيلانى ، وصلاح عز الدين – اللّه يرحمه – ، ومحمود مرسى ، وفؤاد كامل وغيرهم . كانت مجموعة من كبار المثقفين فعلاً ، وكنت لسه ولد طالع عنده ٢٢ سنة .. ما عسى أن أكون بين الجباه العالية !

وتصادف أن عقد الاجتماع الشهرى لتقرير برامج الشهر التالى . سعد لبيب كان أستاذًا إعلاميًا كبيرًا ، قلت له بعد ذلك : أنت أفسدت حياتى فى الحقيقة ، لأنه كان .. **سكت قليلاً وقال لى بإعجاب** : كان الديمقراطية نفسها فى العمل ، وكنت جديداً لا أعرف شيئًا فى الدنيا . كان كلما عُرضت فكرة برنامج يقول لى : وأنت رأيك إيه ؟ فأندهش .. كيف يترك هؤلاء الفطاحل ويسألنى عن رأيى أنا . ويبدو أننى قلت شيئًا لا بأس به ، فاستوعبت وأصبحت واحداً من هذه الأسرة الجميلة بعد أسبوع . كانت أسرة جميلة جداً .

منذ وقت قريب قلت للأستاذ سعد لبيب : أنت أفسدت حياتى ، لأنى اعتقدت أن العمل فى الدنيا كلها هكذا .. ديمقراطية ، أتارى الدنيا غير كده خاص .. فضحك .

فى البرنامج الثانى قضيت أجمل أيام حياتى فعلاً . برنامج منزو لا أحد يسمعه ، لكنه يقدم روائع ، والعاملون به كانوا يعملون بكل إخلاص العالم . كنت أتمنى أن يرى أحد محمود مرسى مثلاً ، وهو يخرج مسرحية «الآنسة جوليل » لستريندبرج . أتذكر أنه ظل ٦ ساعات ، سجل فيهم ٦ دقائق فقط . وكان معه فطاحل .. سناء جميل وسميحة أيوب ، وصلاح منصور . كانوا يتقبلون ببساطة كل تعليماته.

كان فيه حب .

– فعلاً كان فيه حب . علشان كده قعدت ٨ شهور تحت التمرين ، أحضر المسرحيات التى يخرجها صلاح عز الدين ، ومحمود مرسى ، وبعد انتهاء العمل

أقول رأيي . أذكر عندما أخرجت أول مسرحية - بعد فترة التمرين - كنت أرتجف . ذاكرت المسرحية وكانت قصيرة جداً ، لمدة أسبوع حتى حفظتها . المهم استمريت فى البرنامج الثانى عدة سنوات ، فاعتبرونى غالج جداً ونقلونى لصوت العرب رغم احتجاجى الشديد .

*** عملت مذيعًا أم مقدم برامج ؟**

- كنت مخرجًا ومقدّم برامج . فى البرنامج الثانى كنت مذيعًا ومخرجًا ومقدم برامج ومدير ندوات . كان العمل بهذا الشكل . لا يتخصص أحد فى شيء . **فجأة سكت وقال لى ، للمرة الثانية** : لا أدرى هل أجيب عن سؤالك أم لا ، **قلت : نعم ، فواصل كلامه شبه مقتنع ، ويتداع فى الذكريات يمكن استنتاج سياقه قال** : ذهبت إلى صوت العرب ، وكانت - أيضًا - أيامًا بالغة الروعة . كانت أيام القومية العربية ، وبينما كنت - فى البرنامج الثانى - أنتج برنامجًا واحداً فى شهرين ، كنت أنفذ فى صوت العرب برنامجين وثلاثة فى اليوم الواحد .. برنامجًا لصوت الجزائر الحرة ، وبرنامجًا لإذاعة فلسطين ، وثالثًا للخليج . كانت هذه المحطات تبث من صوت العرب . فى فترة الزهو العربى سنوات (٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) ، والوحدة مع سوريا .

كنت أعمل بحب أيضًا إلى أن ابدأ . **سكت وقال مستدركًا كأنما يخشى أن يضيع تاريخ هذه الفترة من رأسه** : على فكرة ، الدور العظيم الذى لعبه الإعلام فى حركة التحرير العربية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت لابد أن يكتب ، لابد . المهم استمريت إلى أن بدأ الخلاف بين عبد الكريم قاسم ، وجمال عبد الناصر بسبب المنافسة على الزعامة ، وبدأت بعدما كنت أعمل برامج ضد الاستعمار .. ضد الفرنسيين فى الجزائر ، وضد الإنجليز فى الخليج ، والصهاينة فى فلسطين ، أصبح مطلوبًا منى أن أعمل برامج ضد عبد الكريم قاسم ، ساعتها مررت بمحنة لا يمكن أن تتصورها يا بهاء ، فاستشرت صديقى العزيز جداً محمود مرسى ، قلت له : أحس أنى أنتحر ، ولابد أن أستقيل بدلاً من الخيانة .

سألته .. خيانة من ، قال : خيانة نفسى . **واهتز جسده النحيل مشيراً بإصبعه كأنه تذكر شيئًا مهما لابد من قوله فوراً** : آه نسيتك .. فى صوت العرب عملت البرنامج الذى أعتز به جداً « قصة عربية » ، وكان لأول مرة فى الإعلام العربى ، تقدم

أعمال درامية مأخوذة من روايات أدبية . قدمت ثلاثية نجيب محفوظ ، أذكر أننى طلبت من أحمد سعيد مدير صوت العرب أن نعطى ١٠٠ جنيه أجرًا خاصًا لنجيب محفوظ ، قال لى : معقول ندفع هذا المبلغ فى قصة لواحد ، وحين يأس منى قال : طيب هاته أشوفه ، فاتصلت بالأستاذ نجيب ، طبعًا أحمد سعيد لم يكن يجهله ، وجاء الأستاذ نجيب وصرف أجره .

عملت فى السنة التالية « قصر الشوق » مسلسلاً ، ونجح نجاحًا فظيعًا حتى إن الناس كانت تردد فى الشوارع كلام الولى .. هو اللّه ، هو اللّه ، ازيك يا سيد أحمد يا عبد الجواد ، كيف حالك ، بارك اللّه لك فى بيوتك فى قصر الشوق ، وبين القصرين والسكرية .

شفيق نور الدين هو الذى مثل هذا الدور ، وكانت تلك هى المقدمة التى رددتها الناس فى الشوارع . وعملت لعبد السلام العجيلى ، وسهيل إدريس ، وتوفيق يوسف عواد ، ومحمد ديب ، ومولود فرعون . كل هؤلاء قدمتهم فى برنامج « قصة عربية » من صوت العرب .

المهم عندما بدأت هذه الأزمة قلت للأستاذ محمود مرسى : أنا قررت أن أستقيل ووافقنى . كان قرار الاستقالة أيامها أشبه بالانتحار . الذى أنقذنى هو الأستاذ عبد الحميد الحديدى – رحمة اللّه عليه – ، كان نائب رئيس الإذاعة ، فاستدعانى وناقشنى فى الاستقالة ساعات طويلة . فوجئت بعد ذلك بالأستاذ الحديدى يكتب على الاستقالة .. ينقل للبرنامج الثانى . فرجعت ، ولكنى لم أجد هناك صلاح عز الدين .. كان قد رجع إلى الـ B.B.C ، وكان محمود مرسى قد نقل إلى التليفزيون . وانضم بدلاً منهم إلى البرنامج الثانى نور الدين مصطفى .. كان إنسانًا عظيمًا رحمة اللّه عليه .

*** حدثنى – بتلخيص – عن الدور الذى لعبه البرنامج الثانى فى حياتك .**

– أولاً ، أننى كسبت عددًا عظيمًا من الصداقات مع مثقفين حقيقيين ، ظلت علاقتى بهم وثيقة حتى النهاية . كان منهم المخرج الراحل عبد الرحيم الزرقانى ، والمخرج فتوح نشاطى ، ونبيل الألفى ، وحمدى غيث ، وعبد اللّه غيث ، وعبد الرحمن أبو زهرة وفاروق شوشة ، والدكتور نعيم عطية ، وإدوار الخراط ، وسليمان فياض ، وأبو المعاطى أبو النجا ، وغيرهم .. كانت صداقات عظيمة .

الحاجة الثانية ، فكرة التفانى فى العمل .. كنا ننام ونأكل ونشرب فى الإذاعة ، وفتح لى البرنامج الثقافى آفاقًا من المعرفة لم يكن ممكنًا أن تتوفر لى بدونه .

وفكرة أن تبتدع أشياء غير مسبوقة ، وتقترح أفكار برامج ، وهكذا . أيضًا كسبت معرفة سعد لبيب ، وهذا وحده كنز حقيقى . ولكن البرنامج الثانى جنى علىّ إبداعيًا ، لأننى لم أنشر فيه شيئًا ، مخافة أن يقال عنى أننى أستغل عملى ، ثم لا تنس ذلك الوهم ، وهم التحقق ، لا التحقق الحقيقى ، الذى يتكون لديك حين تعمل فى الإذاعة .

*** وكيف أسهم البرنامج الثانى فى الحركة الثقافية ، والمسرح بالذات .**

– البرنامج الثانى قدم أشياء غير مسبوقة ، هو نفسه تجربة غير مسبوقة . كان فيه برنامج « مع النقاد » استضاف فطاحل النقاد فى ذلك الحين .. محمد مندور ، وأنور المعداوى ، وعلى الراعى ، وعبد القادر القط ، ورشاد رشدى ، ليناقشوا رواية أو قصة . بالنسبة للمسرح ، كان دور البرنامج الثانى محوريًا فى نهضة المسرح فى الستينيات ، أولاً – عدد المسرحيات المنشورة قبله لم يكن يتجاوز أصابع اليدين ، ولكن البرنامج الثانى كان يقدم مسرحية جديدة مترجمة كل أسبوع . وهذه المسرحيات نشرت . كان البرنامج يقدم مسرحيات باللغة العربية الفصحى . لم يكن هناك من يجيد اللغة الفصحى من الممثلين . المدرسة .. مدرسة تعليم الأداء بالفصحى . كانت هى البرنامج الثانى .. أذكر أن سناء جميل ، ولا أدرى هل تغضب منى أم لا ، لم تكن تستطيع أداء بضع دقائق بالفصحى ، ولكن بإصرارها وعنادها الفنى الجميل ، صارت من أحسن من يؤدى فى هذا اللون .

هذا دور إيجابى تمامًا للبرنامج الثانى فى النهضة المسرحية . وكل الكتاب المسرحيين ، تأثروا بالمناخ المسرحى الذى خلقه البرنامج . وأظن أن له دوراً كبيراً ، إلى جانب دوره فى النقد والمسرح ، فى القصة القصيرة ، لأن مجالات نشرها كانت محدودة جداً . إن لم تكن منعدمة . لم يكن هناك سوى الملحق الأدبى للمساء ، ومجلة المجلة . لم تكن هذه المنابر تستوعب طوفان القصة القصيرة التى كانت تكتب في ذلك الوقت ، فكنا نقدم فى كل أسبوع قصة أو أكثر. أما الدور الذى أعتبر أن لى – أيضًا – دوراً فيه هو تقديم الكتابة الجديدة .. كان عندنا برنامجان .. « بريد المستمعين » الذى كنت أقدمه ، وبرنامج « كتابات جديدة » .

*** كنت حالاً سأسألك عمن قدمتهم في برامجك من الكتاب .**

– كلهم ، باستثناء اسم أو اسمين . أنا سجلت مع كل الأجيال . مع شكرى عياد . عز الدين إسماعيل . ألفريد فرج . نعمان عاشور . سليمان فياض .. مع كل الكتاب الموجودين فى ذلك الحين .

*** أقصد الكتاب الجدد .**

– كل الأسماء التى ظهرت بعد ذلك فى السبعينيات ، وفى الثمانينيات .. أذكر المنسى قنديل ، محمد فريد أبو سعدة ، محمد صالح ، وغيرهم كثيرين .

*** ماذا أضاف لك الإخراج الإذاعى .**

– الإخراج الإذاعى كتجربة تعلم الإتقان الشديد .. أى عدم السماح بأى تراخ ، أو عدم الاستسهال .. لا أعرف هل نجحت أو لا ، ولكن – على الأقل – هذا هو المسعى الذى أحاوله .. أن أكون قاسياً على نفسى مثلما كنت قاسياً على الممثلين أثناء الإخراج .

*** ترقيت فى العمل الوظيفى إلى نائب مدير البرنامج الثانى ، وهنا نقلت مغضوباً عليك إلى البرنامج الأوروبى . حدثنا عن هذه الظروف .**

– **أخذ نفساً طويلاً قبل أن يقول** : ظروف مأساوية كوميدية فى نفس الوقت ! كانت أيامها الحملة الفظيعة على كل الكتاب التقدميين واليساريين . كل الناس خرجت من البلد فى ذلك الوقت ، ولكن خُيل لنا أن البرنامج الثانى بمنأى عن هذا ، لأننا من الأصل ، كنا حريصين على عدم الانحياز لأى تيار من التيارات . لكن كان هناك تيار أدبى يسعى إلى أن يفرض نفسه على الساحة عن طريق استئصال غيره ، لا عن طريق المنافسة الحرة الشريفة .

الأستاذ يوسف السباعى كان يعتقد أن البرنامج الثانى ضده ، لا أدرى لماذا ! على فكرة كانت علاقتى به على المستوى الإنسانى طيبة جداً .. سافرت معه إلى دلهى ، وكان باستمرار يدعونى عندما تأتى وفود أجنبية لدار الأدباء .. كانت علاقتى به لطيفة ، وهو نفسه كان إنساناً لطيفاً ، لكن عندما جاء وزيراً للثقافة والإعلام أعلن أن سياسته ، هى تطهير الإذاعة من التقدميين واليساريين والمثقفين ! ولما لم يجد أحداً ،

قال .. بهاء طاهر شكله يتقع يسارى ! وكان أصلاً غضبان على البرناج الثانى ، فقرر أن أمشى من أول يوم جاء فيه . قالت لى السيدة تماضر توفيق - رئيس التليفزيون أيامها - قالت لى فيما بعد : أول كلمة قالها الوزير بعد تعيينه .. البرنامج اللى بيعمله بهاء طاهر ده في التليفزيون يتوقف فوراً ، ولا أريده أن يعمل !

فى نفس الشهر سألتنى صفية المهندس رئيس الإذاعة : إيه اللى بينك وبين الوزير ؟ قلت : كل خير ، قالت لى : عندى أوامر منه بأنك لازم تمشى من الإذاعة ، فخلى بالك . وظلت تقاوم فترة من الوقت ، لكن خروجى من الإذاعة كان له إخراج درامى مأساوى .. كنت أرأس اجتماعاً للبرنامج الثانى ، نظراً لغياب فؤاد كامل رئيس البرنامج كنا نناقش مشكلاتنا .. ضعف الميزانية ، ضعف الموجة . وأثناء الاجتماع دخل علينا الزميل الشريف خاطر ، قال : معى أمر إدارى بنقل الأستاذ بهاء من البرنامج الثانى . قلت : إيه ده ، ولماذا لم تقل لى الأستاذة صفية !

كان مكتوباً فى ورقة النقل .. ينقل مراقباً للدراما بالبرنامج الأوروبى ، مع أنه لا توجد مراقبة دراما بالبرناج الأوروبى حتى يومنا هذا !! لكن المقصود أن آخذ مرتبى فقط وأمشى . والمرتب لم يكن يمثل سوى ربع الدخل .

بالإضافة إلى أنى منعت من الكتابة فى الصحف والمجلات بعدما وصلتها « كلمة السر » من الوزير . فانعدمت - تماماً - مصادر دخلى . مررت بفترة صعب جداً أن أصفها لك .. **يكرر بعد صمت قصير جداً** ، أصبحت فجأة فى العراء ، كان ممنوعاً حتى أن يذكر اسمى . كانت أصعب فترة فى حياتى ، خاصة أننى صدمت فى ناس كنت أظن أنهم أصدقاء . وكانت هناك - فى نفس الوقت - مواقف نبيلة .. أذكر أن الدكتور شكرى عياد - رحمه اللّه - زارنى فى أيام الأزمة الفظيعة هذه ، ولم تكن بيننا علاقة على المستوى الإنسانى أو زارنى قبل ذلك . دهشت من زيارته المفاجئة ووصلنى معناها ، رغم أننا لم نتكلم عن هذه الظروف المؤلمة . **ثم صمت الروائى وانتظرت ....**

هو الآن فى لحظة شجن قاسية .. شجن من ماضٍ بعيد حيّ ، وفى هذه اللحظة عادت دواعيه !

وكانت مصادفة جميلة أن يرن التليفون عند هذا الحد .

كان المتحدث محمد مستجاب .

...... وقال له بهاء طاهر : معى صديق (يقصدنى) ، لا أظن أنك تعرفه ! المهم طلب منه الأستاذ مستجاب أن يكلمنى .

تبادلنا السلام .. ثم أبدى اندهاشه من السياسة التى فرضها بهاء طاهر على نفسه ، وقال : لماذا لا يرد ؟

كانت الاستقالة من اتحاد الكُتاب قد أثارت على بهاء طاهر ردود أفعال حادة ، بينما لزم هو الصمت . من جانبى لم أتابع ما حدث ، لكنى رأيته متألمًا جدًا فى ذلك اليوم .

بعد انتهاء المكالمة جلسنا ، معًا على السجادة الحمراء المزركشة .. كان قبالتى تنعكس بقايا قرص الشمس على وجهه ، وبجواره – على منضدة بنية صغيرة – تمثال « الكاتب المصرى » كما هو .. فى صمته الأبدى مقرفصًا لا يمل .

قلت له : لم أحدثك عن رحلتى إلى سيوة .. إننى أبذل غاية جهدى كى لا يحزن أكثر . قال : تعال « نتغدى » أولاً .

الآن لا أذكر أسماء الطعام الذى تناولناه .. بهاء طاهر وابنته الرقيقة يسر – فى الجامعة الأمريكية – وأنا . ولكنى أذكر – جيدًا – أن الرجل كان يمسح قعر طبقه بقطع الخبز المتبقية ، ولا يأكل كثيرًا ، ويهتم بالمضغ ، مستمتعًا بالاستماع للـ B.B.C فى هذا الوقت من كل يوم .. تمام الرابعة .

قال ، ونحن نأكل : ما أخبار سيوة ؟

ذكرنى فقلت : جميلة كما تعرف .

لكن فاجأنى حين نفى أى معرفة له بها . اندهشت فعلاً ، ولاحظ هو دهشتى فقال : تخيل لم أذهب إلى هناك . إنما تخيلتها حين كتبت « أنا الملك جئت » .. على فكرة ، كثيرون غيرك اندهشوا ! قلت : معهم حق ، دقة الوصف وروح سيوة التى فى القصة لا يمكن أن تأتى من التخيل وحده .

– هذا ما حدث .

*** ألم تكن تعرف عنها شيئًا ؟**

– قرأت ما كتبه أحمد حسنين باشا .

*** تخيل طوال الرحلة لم يغب عنى فريد .**

– أعلم أنك تحبه .

ولكنى أحب الأكل أكثر .

ضحك أخيراً ، وقمت أنا لأغسل يدى ، ثم عدنا إلى الأسئلة ....

*** أتاحت لك هذه الفترة فرصة استكملت فيها الإنجليزية والفرنسية . لماذا لم تعمل فى نفس المجال حين غادرت مصر .. مثلاً فى الـ B.B.C التى تحبها ، أو مونت كارلو أو صوت أمريكا .**

– كانت أمامى الفرصة ورفضتها ، جاءنى خطاب من صوت أمريكا ، لا أدرى كيف عرفوا .. آه افتكرت ، أنا أرسلت لهم خطاباً عندما أعلنوا عن حاجتهم لمذيعين ، هل كان فى اللجنة سعد لبيب وعرف ؟ لا أدرى .. هذا هو صوت الضمير ، قال لى بعدها : ازاى كنت عايز تشتغل فى صوت أمريكا يا بهاء .. قلت له : أنا ! إزاى . وتذكرت عندما جاءنى الخطاب . لم أذهب طبعاً ، لكنى الآن لا ألوم ولا أدين من عمل فى هذه المحطات ، ولكن أيامها كان العمل فى الإذاعات الغربية عملاً مع الخصوم .

*** ترى ألا يقتصر تقديم البرامج الثقافية على قناة أو إذاعة بعينها ، ما فلسفتك فى ذلك .**

الحقيقة أن الفكرة فى البرنامج الثانى كانت فكرة عظيمة .. أن تنشئ برنامجاً يضرب المثل لبقية القنوات الإذاعية فى كيفية تقديم البرامج الثقافية.. **صمت متململاً ثم قال** : كان المثل الأعلى هو البرنامج العام ، البرنامج الثانى هو البرنامج الثقافى ، وكانت إذاعة الشعب موجهة للعامة . كانت الفكرة أنه فى النهاية ، تبقى الثقافة الرفيعة هى ثقافة البرامج الثلاثة ، أى أنك بالتدريج ترتفع بثقافة الجماهير بحيث تتذوق بشكل رفيع الموسيقى والدراما والفنون ... إلى آخره . كان المنشود أن تكون هذه الثقافة على مدى عشرين أو ثلاثين عاماً هى الثقافة العادية التى تقدم للناس .

كانت هذه هي فلسفة البرنامج الثاني عند إنشائه ، وكان العمل يتم وفق هذا الهدف .. أذكر أنني عندما ذهبت « لصوت العرب » اتريقوا عليّ ، لأني قدمت برنامج « قصة عربية » ، وبرنامج « مع التراث » قالوا : إني نقلت البرنامج الثاني لصوت العرب .. يعني عملت برامج ثقافية في إذاعة جماهيرية .

هذه الفكرة شحبت بالتدريج وتحولت إلى معازل .. جيتوهات للثقافة ، اللي عايز ثقافة يروح الحتة دي . لا ليس هذا هو الغرض ، ولا هذه هي الفكرة الأساسية من عمل برامج ثقافية . لذلك أنا ضد هذه البرامج الثقافية المتخصصة ، إذا ظلت الثقافة حكراً عليها دون أن تبثها أو تنشرها في بقية القنوات والبرامج الأخرى ، لكي تتحقق فعلاً مسألة الارتفاع بالمستوى الثقافي .

*** أنت إذن ضد عزل الثقافة .**

– طبعًا على خط مستقيم .

*** وما رأيك في البرامج الثقافية اليوم .**

– لكي لا أظلمها هي أشبه بكل المستوى الثقافي اليوم ... ميتة !

« .. سألت نفسي : لو شاء أعتى خصوم العرب تصويرهم كأمة متخلفة ، لا يستطيع اثنان فيها تبادل حوار متحضر لمدة نصف ساعة فقط ، فماذا ترى ذلك الخصم كان يفعل أكثر من عرض هذه البرامج على الناس » .

قلت ذلك تعقيبًا على إحدى القنوات العربية (الجزيرة) ، وما تطرحه من قضايا تمس مصر والمصريين . هذه القناة وأمثالها تمثل الآن « الإعلام العربي » ، فهل عندنا ، فعلاً ، إعلام عربي له رؤية لا قواميس هجاء .

– إطلاقًا ، وإن كان ما زال إعلامنا – على تخلفه – أفضل من هذا النوع من الإعلام ، الذي يلجأ إلى الإثارة وإلى الديماجوجية لنشر أفكاره أو نشر خططه ونواياه التي لا يعلمها إلاّ اللّه . أنا لا أتهم أحداً جزافًا ، أنا – فقط – لدي علامات استفهام ، عن الهدف الذي تهدف إليه هذه القنوات .. هل هو التشكيك في قدرة العرب على عمل أي شيء إيجابي ، هل هو التشكيك في ثوابت الأمة الوطنية والقومية ، هل هو التشكيك

فى زعمائها التاريخيين ؟ إيلام تهدف هذه القنوات الفضائية بالضبط ؟ دعك من حكاية الديمقراطية من فضلك . أنا مع الديمقراطية على خط مستقيم ، ومع الحوار بين مختلف التيارات .

ألا نسميه نقداً للذات .

ومع نقد الذات على خط مستقيم ، ولكنى لست مع البلبلة . يا بهاء لكى يقوم حوار على نقد الذات ينبغى أن تحاور ممثلين لتيارات فكرية مختلفة ، وأن تكون لكلمتهم أهميتها وصداها . أما أن تأتى بنكرات ، وبأشخاص ليس لهم تاريخ فى الحياة الثقافية على الإطلاق وتتركهم يشوهون ويلوثون تاريخنا القومى والوطنى ، فاسمح لى أن أشك فى نواياك ومراميك . أنا عندى شك قوى جداً فى أهداف هذه القنوات الفضائية . أشك فى أنها لا تعمل لمصلحتنا على الأقل . لا أقول : إنها تعمل لمصلحة أعدائنا ، لأن هذا اتهام لا أملك الدليل عليه .

*** والإعلام المصرى ، ماذا ينقصه وكيف تراه ؟**

– تنقصه أشياء كثيرة . عد بالذاكرة إلى ما حدثتك عنه بشأن أساليب اختيار المذيعين . كانت تستصفى أفضل العناصر التى تصلح لهذا العمل . الامتحانات الآن شكلية جداً ، الواسطة تلعب دوراً كبيراً فى الاختيار ، سواء فى الإذاعة أو الصحافة والتليفزيون .. الوظيفة المناسبة لا تذهب إلى الشخص المناسب . هذا عنصر أساسى ، لأن هؤلاء – فى لغة الإعلام – اسمهم حراس البوابة . ينقصنا هؤلاء الحراس . ينقصنا أيضاً الاستراتيجية .. ما الذى نهدف إليه . هل نحن فى الموسيقى نهدف إلى إحياء الموسيقى العربية الأصيلة مثلاً ، هل نهدف إلى إحياء التراث الشعبى ، أم نهدف إلى ماذا ؟

ليس لدينا مخطط لشىء ، لا فى السياسة ولا فى الفن ولا فى الإعلام . الأمور ماشية بالتكال والجهود الشخصية لكل فرد مشرف على قناة أو إذاعة ... إلى آخره . ينقصنا – وهذا ما لا أفهمه – قدر كبير من الديمقراطية فى الإعلام ، لأن ادعاء الديمقراطية ، وليس الديمقراطية ، الموجودة فى المحطات الفضائية هذه ، هو الذى جعلها عالية الصوت .

نحن من حيث الإمكان لا من حيث القوة ، كما يقول الفلاسفة ، عندنا الإمكانيات التى تجعل من إعلامنا إعلاماً قوياً وفعالاً ، لكن بالفعل ، أو القوة هو غير ذلك ، لأننا لا نسعى إلى أن نكون أقوياء . كما يقول المتنبى :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام !

نحن قادرون على هذا الكمال ، ولكن فينا العيب الذى .. **ابتسم وهو يقول** : لا يوجد إلاّ فينا .

*** فى ضوء حكايتك عن اهتمام الجماهير بأخبار أيلول الأسود فى السبعينيات وانصرافها عن متابعة مأساة أبشع بعد ذلك ، هى اجتياح « تل الزعتر » لسماع مباراة كرة ! فى ضوء هذه المفارقة ، وهى مستمرة إلى اليوم ، أتساءل عمن يمكن أن ينور هذه الجماهير ، كيف تقرر - والأمر كذلك - مصيرها ، وتعرف مصالحها الحقيقية .**

- هذا أهم سؤال فى تقديرى ، ولا أملك الإجابة السحرية عليه ، ولكنى - من خلال تجربتى الشخصية - أعرف أن الجماهير هى ما تصنعه منها قيادتها ، طبعًا يمكن أن ترد علىّ بأن الجماهير هى التى تصنع القيادات . هذا لا شك فيه ، لكن فى عصرنا الحديث ، اهتمامات الجماهير تصنعها القيادات التى توجه أجهزة الإعلام والثقافة فى أى مجتمع من المجتمعات . من الذى تسمح بظهوره ، وما الذى تصر على غيابه من الرسائل الإعلامية ، فإذا أنت أبرزت فى كل الأوقات كفاح الوطن ، سوف تهتم الجماهير بذلك . عندما كنا صغاراً كنا نطلع مظاهرات علشان تونس والشام ، لأن الإذاعة كانت تذيع :

سلام من صبا بردى أرق   ودمع لا يكفكف يا دمشق

كانت هذه اهتماماتنا ، وكان ثمة توازن بين مختلف الاهتمامات . فى عز النكسة أذكر أن هيكل قال : يبدو أن مصير الأمة متوقف على نتيجة مباراة الأهلى والزمالك . هذه هى الظروف التى منع فيها الدورى . لم تمنع الكرة لأنها السبب فى الهزيمة ، وإنما لأن الدورى كان يحرف اهتمامات الناس عن قضية مصيبة وهى احتلال اليهود لسيناء .

أنت تستطيع من خلال الإعلام ، ومن خلال الحفاظ على التوازن فى الإعلام ما بين اهتمامات المجتمع المختلفة ، تستطيع أن توجه الناس حيث تريد . أنا رأيت الناس فى الشارع تبكى ، وهى تسمع أخبار كارثة أيلول الأسود . بعد ذلك بسنوات ولله الحمد ، مش بس رجعنا الدورى ، إنما أعطيناه كل اهتمامنا لدرجة أن الأخبار الوطنية تنشر فى ذيل الجرنال .. أن هناك مذابح فى بيروت ... إلخ .

عامة الناس لا هم ملائكة ولا أشرار . المهم إلى أى شىء توجه اهتمامهم الحقيقى ، فأنت قررت – لأسباب يعلمها اللّه – من بعد حرب ١٩٧٣م أن توجه اهتمام الناس نحو عدم الاهتمام . **يبتسم بسخرية** ! فأصبحت صحفنا تعطى للرياضة ٦ ، ٧ صفحات فى اليوم ، وللثقافة صفحة ميتة جداً . حراس البوابة ليسوا مؤهلين لا لحراسة بوابة ، ولا لحراسة جحر حتى . ونفس الشىء ينطبق على الإذاعة والتليفزيون . حراس البوابة لا يعرفون شيئًا . والمادة التى تقدمها لا تغرى طفلاً بأن يتحمس لها . بينما كل عناصر الإغراء والجاذبية للرياضة والمطربين ونجوم السينما ... إلى آخره ، فكيف تريد من الناس أن تهتم اهتمامات وطنية ، وهى موجهة إلى غير ذلك ؟

*** إيه حكايتك مع « بيت الجمالية » ؟**

يضحك ضحكة متقطعة صغيرة ويقول : حكاية تافهة ، ففى الوقت الذى اشترى فيه التليفزيون « خالتى صفية والدير » ، اشترى منى قصة قصيرة علشان تتعمل سهرة ، والشاب – مخرج القصة – أرسل لى فى نيويورك ، حيث كنت معاراً هناك من جنيف ، مخطط السهرة ، فبعثت له ببعض الملاحظات ، فإذا بى أفاجأ أن هذه السهرة أخذت من الشاب الصغير ، وهو شاب مجتهد لا أذكر اسمه مع الأسف ، وأُعطيت لكاتب آخر ، لا أعرفه ولا عرض علىّ الأمر ولا أى شىء ، إلى أن فوجئت بها معروضة كمسلسل لا علاقة له بالقصة ، واستسهلوا فشالوا اسمى ، فأخذتنى الجلالة ، وقررت أن أرفع قضية على التليفزيون ، وذهبت – بالفعل – إلى أحد المحامين ، وبعد أن أنذرهم المحامى ، وجدت أن الحكاية تافهة جداً لا تستحق أن أُضيع فيها وقتى .

*** هل نجح التليفزيون فى تقديم « خالتى صفية والدير » ، ولماذا لم يكن لك رأى فى الشكل الذى قدم به العمل .**

– الحقيقة أن الذنب مشترك ، ففى الوقت الذى كان التليفزيون يخرج فيه « خالتى صفية والدير » ، كنت أمر بظروف عائلية بالغة السوء ، فقدت أحب إنسان إلى قلبى ..

ابن أخي الذي كان سفيراً في الفلبين ، على أثر فشل كلوي . وهو – في الحقيقة – بطل « شرق النخيل » إذا كنت تريد أن تعرف . غايته أنني حزنت لوفاته ، ولم أستطع أن أراجع المسلسل ، فخرج العمل بمجهودهم الشخصي وهم مشكورون لأنهم اجتهدوا ، وبالعمل جوانب إيجابية ، وفيه جوانب لو كنت في ظروف أحسن ، كان يمكن تداركها ، ولكن للأسف لم أكن في وضع يؤهلني لذلك .

*** لنتوقف عند أدباء متواضعي الموهبة ، يخلق منهم الإعلام نجوماً ، والأمثلة كثيرة !!**

– ليست لهذه المسألة أي أهمية ، أنا على مدى عمري هذا ، رأيت أناساً ينفخ فيهم الإعلام ويعطيهم جوائز وأوسمة ، وبمجرد زوال هذه الهالة ، يختفون من الإعلام ومن خريطة الحياة الأدبية . لا تصدق أن لهم أهمية من أي نوع . في الخمسينيات لم يكن يوسف إدريس أشهر كاتب ، كان هناك أدباء يكتبون في كل الصحف والمجلات . الآن هؤلاء اختفوا وبقي يوسف إدريس .

أنا أقول دائماً : هناك محكمتان .. الحكم الأول حكم الجمهور ، وهو قابل للخطأ ، لأن الجمهور من الممكن أن يقبل على شيء لا قيمة له ، أو يعزف عن شيء مهم جداً .. مسرحية شيلر ، الكاتب الألماني ، التي سقطت على المسرح ، فقال : أنا مصرٌ على أن يستمر عرض هذه المسرحية ، إلى أن يكتشف الجمهور أن المسرحية أفضل بكثير من رأيه فيها . وطبعاً عاشت « اللصوص » . الجمهور ممكن يغلط ، ولكن المحكمة الثانية « محكمة الزمن » هذه المحكمة الاستئنافية لا يمكن أن تخطئ أبداً .

أريد أن أقول لك : لا يغرنك الآن أي كاتب ، في أي مكان في العالم محاط بهالة إعلامية . مثلاً « ميلان كونديرا » أنا أرى أنه كاتب متوسط القيمة ، وكان هناك نفخ إعلامي يحيط به ، لأنهم كانوا يجهزونه لنوبل ، بوصفه معادياً للشيوعية ، وحينما سقطت الشيوعية سقط كونديرا .

قل لي اسم شاعر واحد ممن أخذوا نوبل في السنوات الأخيرة ، عائش في وجدان الناس . لكن بابلو نيرودا حيٌّ ، لوركا حيٌّ . أليس كذلك !

* * *

« كاتب وكتابة »

*** نشرت فى عام ١٩٥٧م مسرحية بعنوان « بلا رجل » ، وفى عام ١٩٦١م مسرحية « كان » ، وكنت مسئولاً عن تحرير باب المسرح فى مجلة « الكاتب » فضلاً عن عضويتك فى المكتب الفنى للمسرح القومى .. لماذا لم تستمر فى الكتابة المسرحية .**

– فى الحقيقة ليست لدى إجابة عن سؤالك هذا ، فأنا لا أختار الكتابة ، هى التى تختارنى ، دائمًا أقول ذلك ، بمعنى أننى لا أختار القصة القصيرة أو الرواية أو المسرحية ، قد يأتى يوم تندهنى فيه « نداهة » المسرح . إن كان فى العمر بقية .

*** هل أفادك المسرح فى كتابة القصة والرواية ؟**

– بالتأكيد ، فأنا عاشق قديم للمسرح ، السبب هو طه حسين ، وقد أشار إدوار الخراط إلى أن الحوار عندى له مذاقه الخاص . ربما يرجع ذلك إلى هذا العشق .

*** فى الستينيات شهدت مصر نهضة مسرحية حقيقية .. قل لى : هل يزدهر الأدب فى ظل الحرية ، أم العكس ، وما شهادتك على هذه الفترة مسرحيًا ؟**

– الأدب يزدهر فى ظل الحرية ، وفى ظل غياب الحرية ، يزدهر فى غياب الحرية لماذا ؟ لأن الأدب رسالة احتجاج فى الأساس ضد المظالم فى الحياة ، ربما لا يزدهر النشر عندما تغيب الحرية ، ولكن يزدهر الإبداع ، وعندما توجد الحرية ، فإن هذا الازدهار يتم التعبير عنه ، لأن المظالم التى يشكو منها الإنسان لا نهاية لها ، فعندما تتاح الحرية يزدهر الإبداع والنشر – أيضًا – وإمكانية التعبير . المهم أن غياب الحرية لا يؤدى إلى القضاء على الأدب . انظر إلى روائع الأدب الروسى الكلاسيكى التى كتبت فى عز الرقابة القيصرية . كل روائع بوشكين، وجوجول ، وتشيكوف . وديستويفسكى ، كانت تخضع لرقابة حديدية ، لكنهم كانوا يعرفون كيف يمررون آراءهم بالكتابة . عندما أعيد قراءة « دبروفسكى » لبوشكين . أجد أن الرواية كلها هجوم على الأرستقراطية الإقطاعية فى روسيا . وفيها فصل يصور الإقطاعيين على أنهم نبلاء جداً ، ولا تخرج منهم العيبة علشان الرقابة .

الكُتَّاب يعرفون – لو غابت الحرية – كيف يوصلون رسالتهم . بالطبع عندما تقرأ « دوبروفسكى » ستبقى فى ذهنك تلك الفظائع التى ارتكبها الإقطاعيون.

*** وما شهادتك على هذه الفترة مسرحيًا .**

– أعظم فترة نضج مسرحى شهدتها مصر ؛ لأنه قبل هذه الفترة كان هناك مسرح بلا مسرحيين : مسرح سلامة حجازى ، ويوسف وهبى ، وروز اليوسف ... إلى آخره .

أما فى الستينيات فكان هناك المسرح والمسرحيون معًا .

*** من أهم كتاب هذه المرحلة فى تصورك ؟**

كثيرون ، منهم ألفريد فرج ، نعمان عاشور ، سعد الدين وهبة ، صلاح عبد الصبور ، والكاتب الفذ محمود دياب .

*** المسرح التجريبى الآن .. من يكلم من ، وما حاجتنا إليه .**

– بإيجاز .. المسرح التجريبى يخاطب أهل المسرح التجريبى ، وليست لنا به آية حاجة ، المسرح التجريبى يمكن أن يكون موجودًا عندما تكون هناك حركة مسرحية عادية راسخة ، وعلى هامشها مسرح تجريبى ، ولكن هذا ليس هو الوضع القائم . المسرح التجريبى له الآن ١١ سنة تقريبًا . فى هذه السنوات لم أر أن هناك نهضة فى المسرح المصرى العادى توازى أن نعمل جنبها مسرحًا تجريبيًا .

*** هذا يجعلنى أسألك : كيف ترى المسرح اليوم ؟**

– المسرح ، كما قلت لك ، « مسرح ومسرحيون » ، أين هم المسرحيون اليوم ، أين هم كُتَّاب المسرح . آخر اسم كبير رحل عن دنيانا هو « سعد اللّه ونوس » . ألفريد فرج وغيره من الكبار لا يكتبون . والكتاب الشباب لم يصلوا بعد لمرحلة إصدار حكم . إذن ليس هناك كتاب ولا جمهور مسرح . المسرح الوحيد الذى أشير إليه وأشيد به هو مسرح « محمد صبحى » لأنه يحاول – على الأقل – أن يبقى المسرح حيًا .

* **تعلم أن الأسلوب هو الرجل ، حدثنا عما فعلت لتستقر على كل هذا الصفاء .**

– لو استطعت أن أحدثك عن هذه المعركة ، لما بقيت عندى أدنى مشكلة . أنا أعافر وأحارب لكى أصفى الأسلوب من كل ادعاء وافتعال وبلاغة شكلية ، أو أى زخرفة لكى أصل إلى الجملة التى أعتقد أنها صادقة ، ومن ثم أصل إلى الأسلوب الذى إذا قرأه الجاهل ظن أنه يحسن مثله كما يقول ابن المقفع .. أى أن تكتب كلامًا عاديًا ولغة عادية ، ولكن فيها الجمال الأدبى .. كيف . لا أستطيع أن أعرف ذلك .

* **ومن مثلك العليا فى الكتابة ؟**

– مثلى العليا فى الكتابة ذكرت الآن واحدًا منها .. ابن المقفع ، وأذكر لك بدون ترتيب .. يحيى حقّى ، يوسف إدريس ، نجيب محفوظ ، هيمنجواى ، الجاحظ ، المتنبى ، ألبير كامى .

* **من أثَّر فيك منهم ؟**

– هذه مسألة أتركها للنقاد .

* **أنت كاتب مقل جدًا .. لماذا ؟**

– الكتابة لا تقاس – إطلاقًا – بالكم ولا بالطول ولا بالوزن ، وإنما تقاس بقيمتها الفعلية . إذا استطعت من خلال روايتين أو ثلاثة أو أربعة أو أربعين رواية ، أن توصل رسالتك أو صوتك الخاص ، أكرر ..الخاص ، إذا استطعت أن تفعل ذلك ، فإن مكانك محفوظ فى الحياة الأدبية وتاريخ الأدب . على مر التاريخ هذا هو الوضع . هناك كُتَّاب غزيروا الإنتاج احتفظ لهم التاريخ بمكانة عظيمة ، وكتاب قليلوا الإنتاج احتفظ لهم التاريخ بنفس المكانة .. مثل ابن المقفع ، المتنبى ، وغيرهم . المهم ما الذى تتضمنه الكتابة ، لو عاش لكاتب روايتان أو مجموعتان ، على مدار الزمن فهذا شيء كاف جداً .

* **ما الذى يجعلك تنفعل وتكتب ؟**

– بأمانة لا أعرف . أنا تأتينى حالة روائية أو قصصية ، أستطيع ساعتها أن أوظف كل الجزئيات التى تصادفنى فى الحياة ، والتى تنشأ فى الذاكرة ، فى العمل الروائى . وفى حالات أخرى .. عندما أجلس للكتابة عامداً متعمداً ، أجد أن ما أكتبه

لا روح فيه ولا طعم ، وغالبًا يكون مصيره سلة المهملات . الكتابة تأتينى .. بعض الناس يسمى هذا إلهاماً ، وبعضهم يسميه الجهد والعرق ... إلى آخره . أنا شخصياً أسميه الحالة القصصية أو الروائية . عندما تنتابنى هذه الحالة أستطيع أن أكتب . وعندما تهرب منى ، مهما بذلت من جهد لا أفلح فى استردادها . أخطر كارثة أن تهرب منك هذه الحالة أثناء الكتابة . أنا عندى رواية كتبت فيها جزءًا كبيراً جداً قبل نشر « شرق النخيل » . لكن الحالة هربت منى من منتصف الكتابة .

*** ما القضايا التى تمثل همًا دائمًا لديك ؟**

– العدل .. دائمًا .

*** وأنت تكتب ، هل تحرص على طقوس معينة ، أوقات تفضل فيها الكتابة ، أقلام معينة ، ورق ... إلخ .**

– أكتب عادة بالقلم الرصاص . وأمسح بالأستيكة .. **يضحك** ، أكتب على « بلوك نوت » من حجم معين ، وحين يختفى أتنكد غاية النكد ، وأوقاتى المفضلة بعد منتصف الليل .

*** ماذا تقرأ الآن ؟**

– أهتم الآن بقراءة الإنتاج القصصى والروائى الجديد . المصرى والعربى .

*** هل لدينا مذاهب نقدية عربية ؟**

– ليت أحداً يتفرغ لدراسة هذه المشكلة .. يقرأ الجرجانى وقدامة وابن سلام الجمحى ، ليقول لنا : ما هى نظريتنا النقدية العربية ؟

*** الكاتب وجمهوره .. لماذا انقطع التواصل بينهما ؟**

– ارجع إلى ما قلته لك عن الإعلام ، ارجع إلى الوضع الحالى .. ما نعيشه الآن ثقافيًا . يعنى أنا قلت لك : إننا – فى المدرسة – قرأنا يوميات نائب فى الأرياف ، وأبو الهول يطير والأيام . كانت توزع علينا هذه الكتب للاطلاع ، لا لنمتحن فيها . هل يحدث هذا الآن فى نظم التعليم !

لماذا لا يعيدون طبع « المنتخب من أدب العرب » ، أو كتاب « التوجيه الأدبى » وغيرهما .

ثم أضاف قائلاً بيأس : انقطع التواصل يا بهاء ، لأن التعليم لا يشجع على حب الثقافة ، وانقطع التواصل لأن الإعلام ينفّر من الثقافة ، وانقطع التواصل لأن أجهزة الثقافة تؤدى عملها بشكل روتينى ، لا بشكل مدروس بحيث تعرف احتياجات القارئ ، أو احتياجات خلق القارئ المحتمل . لا توجد هذه الخطة . دعنى أعبر عن إعجابى بأنه لا يزال هناك قراء ، حتى لو كانوا قلة ، وأتعجب كيف يقرأ هؤلاء ، وكل شىء حولهم معاد للثقافة . كيف ما زال هناك بعض القراء . هذا هو ما يدهشنى فى حقيقة الأمر .

*** الجيل الجديد من الأدباء ، تفاءل بالتغيير الذى حدث فى اتحاد الكُتّاب ، لكنه يتساءل : متى يصبح الاتحاد فاعلاً ، ولماذا لا يتحول إلى نقابة تضمن للأدباء حقوقهم وتدافع عن حرياتهم ؟**

– فى الجوانب القانونية ، لا أستطيع أن أفتيك ، متى يتحول إلى نقابة .. هو المفروض أنه نقابة بحكم المادة الأولى من قانونه ، إنما يخيل لى أنك لا تقصد ذلك ، أنت تقصد أن يكون الاتحاد تجمعًا للأدباء يدافع عن مصالحهم ، والأهم أن يدافع عن كرامة المهنة ودورها ووظيفتها ؛ ولأن الاتحاد – فى تصورى – لم يبذل مجهوداً كبيراً فى تأدية هذا الدور ، استقلت منه . إنما متى يستطيع أن يؤدى هذا الدور ، فعلم ذلك عند الكتاب أنفسهم . لابد أن يفعلوا شيئًا لكى يساندوا – أولاً – المبادئ التى يؤمنون بها ، وأن يساندوا الاتحاد فى تجسيد هذه المبادئ . متى يفعلون ذلك . اللّه وحده يعلم .

*** أعرف أنك مولع بالسينما والشِّعر والفن التشكيلى . احك لنا عن تجربتك مع هذه الفنون .**

– السينما بالنسبة لجيلى كانت اكتشافًا مثيراً ، أذكر أول مرة ذهبت فيها إلى هناك .. كنت طفلاً صغيراً ، وكانت – لأول مرة – تُفتح سينما فى الجيزة (فانتازيا) . كانت تعرض فيلمًا عربيًا أو أجنبيًا ، ومعه مسلسل يتوقف عند جزء مثير ، لكى نذهب مرة أخرى . اسم المسلسل « فلاش جوردون » على أيامنا .

كانت السينما هى الهواية الحقيقية فى عمرى إلى جوار القراءة ، ولكن لم يكن معى فلوس ، لكى أذهب إليها بانتظام ، فكنت أتفرج على السينما من سطوح بيت أحد زملائى بمدرسة الجيزة الابتدائية . ثم أقيمت – فى الجيزة أيضًا – سينما شهر زاد ، وكانت تعرض ثلاثة أفلام فى بروجرام واحد . كنا ندبر الـ ٥ صاغ بمعجزة . واكتشفت بالتدريج بعد المرحلة الأولى .. مرحلة الإثارة ، اكتشفت الأفلام الحقيقية .

طبعًا أحببت كل نجوم السينما المصريين خاصة « فاتن حمامة » التى كانت – وما زالت – عشقى الأول ، رأيت كل أفلامها ، ثم بدأت أتعرف على السينما العالمية . فى سينما « ستراند » فى باب اللوق ، وسينما « إيديال » التى حل محلها مسرح الجمهورية الآن .

شفت أفلام هيتشكوك والممثلين العظام : إدوارد چى روبنسون ، وچون كروفورد ، وسبنسر تريسى ، وچينفر چونس ، ووالتر بتچون ، ولورانس أوليڤييه طبعًا ، وڤيڤيان لى . وشفت – فى هذه السينمات – الأفلام المأخوذة عن قصص عالمية مثل : « ما كان أخضر وادينا » . و« البؤساء » ، « ومدام بوڤارى » . بعد ذلك بدأت أكتشف سينما «ليدو» فى شارع عماد الدين . كانت تعرض أفلامًا إيطالية ، فعرفت الأفلام العظيمة .. أفلام الواقعية الجديدة « روما مدينة مفتوحة » ، « سارق الدراجات » ، « الأرز المر » . كانت هذه الأفلام بعيدة تمامًا عن إبهار السينما الأمريكية .

وعرفت السينما الفرنسية فى سينما « فيمنا » فى شارع عماد الدين ، وسينما اسمها « لابوتينير » مكان مسرح ميامى الآن . كانت للسينما الفرنسية نكهة خاصة جدًا .. سينما رقيقة تقدم أحداثًا إنسانية .

ما أستطيع أن أقوله ، أن السينما لعبت دورًا رئيسيًا فى تكوينى .. فهمى للناس والحياة والتجارب . أنا مدين للسينما بالكثير . عندما كبرت كنت عضوًا مؤسسًا فى جمعية الفيلم ، وكنت دائم التردد على نادى السينما « أوبرا » ، وبدأت أقرأ وأعرف جماليات السينما أكثر . على فكرة وأنا صغير كنت أقرأ المجلات السينمائية ، فاكر « دنيا الفن » ، والاستديو ، وغيرها من المجلات .

*** ألم تحلم بأن تكون ممثلاً ؟**

– إطلاقًا ، لم يراودنى هذا الحلم .

*** لماذا لم يمثل شيء من أعمالك فى السينما ؟**

– لا أشغل نفسى بذلك . أنا أعتبر أن الكتاب سيظل – إلى الأبد – منسوباً إلى صاحبه . أما السينما فيتفرق دم الكاتب فيها بين القبائل .

*** وماذا عن الشِّعر ؟**

– حدوتة الشعر طويلة جداً معى ، فأنا – لحسن الحظ – باستثناء قصائد باللغة الردائة كتبتها فى مطلع الشباب ، أحب الشعر حبًا شديداً . كان الشعر مدخلى إلى الموسيقى وإلى العالم . قرأت فى مكتبة والدى كل دواوين الشعر الكلاسيكى .. أبو تمام والبحترى ، أبو نواس ، بشار بن برد ، المتنبى الذى وقعت فى غرامه من بداية التعليم الثانوى . وكان للأستاذ عبد الفتاح مدرس العربى فى السعيدية الثانوية ، طريقة فى الإلقاء جميلة حببتنى أكثر فى الشعر . كانت هذه المصادر متاحة لى ، وهذا ما جعلنى أكتشف موسيقى اللغة ، وبالتدريج كونت « شعرائى » الذين يقف على رأسهم المتنبى طبعًا . ما أحبه فيه شيء خفى هو الإحساس بنبرة حزن مكتومة فى كل قصائده . فى شعره حُزن مأساوى عميق ، تحسه من تتابع الأبيات ، هو لا يقول أنا حزين ، ولكن شجنًا شاملاً ، يبطن قصائد هذا الشاعر القريب جداً من نفسى .

وأحب أيضًا « أبو فراس الحمدانى » .

قلت : غريبة . فضحك بهاء طاهر ، وقال وهو يلتقط نفس الكلمة :

فعلاً غريبة أن تجمع بين المتنبى وأبو فراس ! وأعشق طرفة بن العبد ، وفى ذاكرتى إلى الآن ، أبيات كثيرة من معلقته ، وأحب امرء القيس وصوره الصحراوية المتتابعة التى تشبه قرع الطبول ، وأحب « أبو العلاء المعرى » بنزعته التأملية الفلسفية . ومن الشعراء الصعاليك أحببت « مالك بن الريب » ، وكنت أحفظ قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه   وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

*** ومن من الشعراء المحدثين .**

– أقرب الشعراء المحدثين إلى قلبي صلاح عبد الصبور، الذي استطاع أن يقتنص روح العصر .. الشاعر العظيم هو الذي يستطيع أن يُعبِّر عن روح العصر . صلاح اقتنص روح التناقضات المأساوية التي تطحن الفرد في هذا العالم المعاصر ، وفي وطننا على وجه التحديد ، وفي مصر على وجه أخص . أنا لا أكف عن الرجوع إلى دواوين صلاح وعن قراءته . هناك أيضًا أمل دنقل ، ونزار قباني الذي أحب شعره رغم أن المثقفين ينظرون إليه باستخفاف . أنا رأيي أن نزار شاعر جميل وشعره غني بصور تستعصي على أعتى المحدثين . وأحب قصائد أدونيس الحلوة .

*** والشعراء الأجانب .**

– أحب – أولاً وأساسًا – بابلونيرودا ولوركا .. لوركا الأول ، وشكسبير ، و ت .س . إليوت ، وييتس ، وسان چون بيرس .

*** ماذا تحب في الشِّعر ؟**

– ما أحبه في الشعر ، أن يكون الفكر والتأمل نابعين من القصيدة ذاتها ، لا مفروضين عليها ، أن تكون الفكرة جزءًا من نسيج اللغة نفسه . أظن أن هذا متحقق في كل الشعراء الذين ذكرتهم .

*** يبقى الفن التشكيلي .**

صمت طويلاً وقبل أن يجيب اعتدل في جلسته ، ثم قال : دعني أتذكر كيف أحببت الفن التشكيلي .. أيوه ، لما كنت أروح مكتبة الفن ، كان فيها أرفف مخصصة لمستنسخات لوحات كبار الفنانين ، كنا نقلّب في هذه الكتب العظيمة والموسوعات عن هؤلاء الفنانين . وأثناء مطالعتي هذه المستنسخات ، توقفت عند التأثريين الكبار : فان چوخ ، چوچان ، رينوار ، والفنانين الكلاسيكيين رافاييل ، وڤيلا سكويز .

ومن فناني عصر النهضة ، توقفت عند دافنشي بشكل خاص . ثم بالتدريج بدأت أكتشف عوالم الفن التشكيلي الجديدة . كان هناك كتاب عن الفنان النرويجي « إدوارد مونش » فيه لوحة اسمها « الصرخة » ، ظلت تطاردني في منامي فترة طويلة . أحببت

أيضاً جويا وبيكاسو . مكتبة الفن أيضاً هى التى قدمتنى للفن المصرى المعاصر ، لأن فى قلب الجنينة كانت هناك تماثيل مختار . مازلت أذكر تمثاله الجميل « الفلاحة » ، كنت أقعد مسنوداً عليه وأنا أستمع للموسيقى . مع الأسف لم تكن هناك مستنسخات لمحمود سعيد ولا لغيره ، ولكن كان هناك معرض دائم لأعمالهم ، فعرفت ناجى والأخوين وانلى وغيرهم . أنا لا أعتبر نفسى خبيراً فى الفن التشكيلى ، أنا مجرد عاشق للوحة ، ويشدنى جداً التكوين والتعبير فيها .

*** ما الذى يجمع بين اللوحة والقصيدة والفيلم ؟**

– من الخارج يمكن أن تقول : « الصورة » ، ولكنى أتجاوز عن هذه العلاقة الخارجية ، وأتكلم عن قوة التعبير الكامنة فى أفضل النماذج فى هذه الفنون .. تلك القوة التى تملأ « داخلك » ، تملأ نفسك بعد الفراغ منها .

*** المازنى ، توفيق الحكيم ، يحيى حقّى ، نجيب محفوظ ، يوسف إدريس ، صلاح عبد الصبور ، أحمد عبد المعطى حجازى . كيف ترى هؤلاء ؟**

– من أحب كتب المازنى إلى قلبى كتابه « رحلة إلى الحجاز » .

رغم أنه أقلها شهرة ؛ لكنه ملىء بخفة الدم . وخفة الدم هى أساس كتابة المازنى ، وملىء أيضاً بقوة الملاحظة الدقيقة ، ملاحظات عين فاحصة . وأحب أيضاً « إبراهيم الكاتب » .

*** حدثنى عن موقعه فى الذاكرة الأدبية .**

– هو عندى بعد يحى حقّى ، أنا أحبه ، لكنى لست مفتوناً به ، وأرجو ألا تعتبر هذا تقليلاً منه . المازنى لم يترك بصمة علىّ .

*** وتوفيق الحكيم .**

نفس الشىء ، برغم أنه من أوائل من قرأت لهم ، أتذكر أننى قرأت ، فى سن مبكرة : « عودة الروح ، وشهر زاد ، ويوميات نائب فى الأرياف ، وأهل الكهف » ، وفى سنة أولى جامعة كتبت عن أهل الكهف بحثاً طويلاً أعجب به أستاذى الدكتور

محمد كامل حسين غاية الإعجاب . وقتها كنت مفتونًا بتوفيق الحكيم ، بعد ذلك ، ولا ينطبق هذا الكلام على المازني ، خفت إعجابي به .. شعرت أنه خفيف ، مقارنة بطه حسين ، أو يحيى حقي ، حتى بهيكل في الحقيقة . أنا أحس أنه كاتب خفيف . كل أمجاده مبنية على خفة الظل . نادراً ما أرجع له .

• ويحيى حقّي .

– أوه .. هذا أبي بكل معنى الكلمة ، أنا كنت أبوس رأسه كلما رأيته . أنا أحب هذا الرجل حبًا جمًا على المستوى الإنساني وككاتب ، أعتقد أن أسلوبه يتحدى أي كاتب ، حتى عندما يكتب مقالة ولو صغيرة ، تجد فيها من الفن ما قد تجده في مجاميع قصصية ، أو قد تقرأ مجاميع قصصية ولا تجد فيها ما تجده في مقال واحد له . وأنا وصفته ، وقد أعجبه هذا الوصف ، قلت : إن يحيى حقي لا نستطيع أن نصفه بأنه روائي أو قاص ، يحيى حقي هو « الكاتب » .

على فكرة ، والشيء بالشيء يذكر ، أذكر الآن مناقشة دارت بيني وبين الدكتور زكي نجيب محمود ، رحمه اللّه ، كان رافضًا لفكرة التلفيق بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية ، كما يسميها في « قنديل أم قنديل » . طبعًا زكي نجيب محمود كان يرى أنه ، لكي نتقدم ، لابد من الأخذ بأسس الحضارة الغربية لا تفاصيلها . لكن الزمن أثبت أن بحث يحيى حقي ، أكثر التصاقًا بحياتنا وواقعنا من تفكير زكي نجيب محمود . ما زال يحيى حقي مؤثراً ، بينما انحسرت أفكار زكي نجيب محمود مع احترامي له .

• ونجيب محفوظ .

– نجيب محفوظ أول من علّمنا الرواية طبعًا . أذكر أن صديقي مصطفى أبو النصر كان أول من قدّم لي كتبه ، وأنا طالب في سنة أولى جامعة .. أعطاني أظن « بداية ونهاية » ، و« السراب » ، وبعد ذلك التهمت كل ما كتب . إنما هذا الحب الشديد لنجيب محفوظ والإعجاب الشديد به ، جعلني حريصًا على ألاّ أكون نسخة مكررة منه . ونفس الشيء يصدق على يوسف إدريس الذي أعشقه . لم أحاول الكتابة بطريقته رغم عشقي له إنسانًا وكاتبًا وفنانًا . حياة يوسف إدريس نفسها فن . أنا

أعرفه من أيام الجامعة . كنا نقعد على مقهى محمد عبد اللّه فى ميدان الجيزة مع أنور المعداوى ، اللّه يرحمه ، كانت الظروف غير الظروف . أذكر سيارته الصغيرة ونحن نلف بها شوارع القاهرة فى منتصف الليل . يوسف شخص غير عادى . قطعة من الفن .. عصبى جداً ، يتخانق معاك بدون سبب ويحضنك بدون سبب . وكان عذباً . ثم أنا مدين له بشكل شخصى ، لأنه قدم لى قصة « المظاهرة » فى صفحة كاملة ، وكانت أول قصة تنشر لى ، قال الكلمة التى كنت أتحرج من ذكرها .. هذا كاتب لا يقلد أحداً ، ولا يستعير أصابع غيره . هذا كاتب بهائى طاهرى . كانت هذه الكلمة دفعة جبارة لى ، ولا أتخرج الآن من ترديدها .

*** وصلاح عبد الصبور .**

– ده شقيق الروح . بمعنى أننى لو كنت شاعراً ، كنت كتبت نفس قصائده . ولو كان هو روائيًا ، كان كتب نفس ما كتبت . كنا على موجة واحدة . تخيل أحياناً كنا نقعد بالساعات لا نتكلم ، نقعد فى سميراميس أو الجمعية الأدبية دون أن نتكلم ، لكن اتصالاً ما كان بيننا ، اتصالاً روحيًا يصعب الآن تفسيره ، وأنا أعتقد أن قيمة صلاح الحقيقية لم تكتشف بعد ، لأن هناك خللاً فى حياتنا الأدبية . خللاً عظيماً . لا نتذكره إلاّ فى ذكرى وفاته !! خسارة .. **قالها بأسى وسكت طويلاً ثم قال** :

يحدث كثيراً فى الحياة الأدبية أن تأتى فترات عتمة تُنسى فيها أقدار الناس . لكن لأن نغمة صلاح عبد الصبور متصلة أوثق اتصال بحياتنا وحضارتنا ومستقبلنا ، فسيأتى اليوم الذى تنجاب فيه هذه العتمة .

*** وأحمد عبد المعطى حجازى .**

– شاعر عظيم ، ونغمة أصيلة فى الشعر العربى .

وكنت أهمّ بسؤاله عن جائزة الدولة حين قال : لم تسألنى عن خليل حاوى .. أحد أبطال « الحب فى المنفى » . وأحد أبطالى الشعريين . ويصدق عليه نفس الكلام .. كان مهمومًا بروح الوطن . واخد بالك . وأنا كتبت دراسة عن العلاقة بين جبران ، وخليل حاوى ، قلت فيها : إنه برغم أن جبران شاعر رومانسى ، وخليل حاوى شاعر خشن ،

إلاّ أن رابطة وثيقة تجمعهما ، هي هذا الهم بروح الوطن ، كلاهما يرى أن هناك صدعًا في الدولة وصدعًا في الروح . كما يقول هاملت . كلاهما كان مهمومًا بصدع الروح .

ولم تسألني عن نازك الملائكة التي أحبها جدًا ، ولا عن السياب أو البياتي .. صديقي العزيز . ولم تسألني عن شوقي .. **وهنا قال بنشوة طفولية مقتضبة** : شوقي يا سلام .. دا شاعر هايل . وسيأتي الوقت الذي تعتدل فيه الموازين المختلة .

أوه .. وهناك حافظ ، حبيبي حافظ ، أعشق قصيدته :

لا تلم كفي إذا السيف نبا

وأكملنا في نفس واحد أنا والروائي.. صح مني العزم والدهر أبى .

وقال هو ضاحكًا : ده ممكن يكون شعار جميع الأدباء المصريين . **فسألته : بما فيهم المتحققون ! قال** : التحقق هو أن يكون للكلمة تأثير في المجتمع . أتحداك أن تدلني على كاتب الآن ، لكلمته عشر تأثير كلمة طه حسين ، أو سلامة موسى أو هيكل ، وليس هذا العيب في الكتَّاب ، إنما العيب في المجتمع .. في أدوات التوصيل . الكتَّاب يقولون كلامًا له نفس أهمية كلام طه حسين وجيله ، ولكن من يسمع الآن . لا أحد ، أدوات التوصيل مشغولة الآن بالعبث .

*** حصلت على جائزة الدولة التقديرية في الآداب لعام ١٩٩٨م ، هل تأخر عنك التقدير . وماذا تمثل الجائزة للكاتب في رأيك .**

– لا لم يتأخر . هذه الجائزة تمنح كتتويج لعطاء الكاتب ، وأنا أرى أن مجرد الترشيح جدير بالامتنان ، لأني كنت غائبًا عن مصر فترة طويلة جدًا ، ولم تكن أعمالي معروفة لعامة القراءة ، فإذا كانت اللجنة ، ولم أكن في ذلك الوقت أعرف أحدًا من أعضائها ، قد رأت في هذه الأعمال قيمة ، فأنا أشعر بامتنان شديد . أما الجائزة بالنسبة للكاتب ، فلا شك في أهميتها ، لكن لا يجب على الكاتب أن يضعها في باله ، أو أن تكون غاية في ذاتها ؛ لأن الجائزة العظمى للكاتب هي تقدير القراء . وأنا قلت لك : إن أكبر جائزة حصلت عليها هي تقدير القارئ . لا أنسى ذلك القارئ الذي رأيته في ميدان التوفيقية ، في منتصف الليل ، وكانت «ضحى» تنشر مسلسلة في المصور ،

رأيته تحت عمود نور ، ظل يقلب فى المجلة حتى وصل إلى « ضحى » . هذه هى أعظم جائزة حصلت عليها مدى الحياة .

*** الكاتب بين الأصالة والمعاصرة . الكاتب وتراثه .. قضية أريق حولها مداد كثير . ما رأيك ؟**

– أكره هذه الكلمة تماماً . الأصالة والمعاصرة . أمقتها ، ولم أشارك طوال عمرى فى أى جدل أثير حولها ، لأنها عبث .. أصالة إيه ومعاصرة إيه . المجتمع يتقدم دائماً . هناك عوامل جذب للخلف ، وعوامل جذب للأمام . وفى تراثك الممتد حتى الفراعنة ، ما يساعدك على التخلف أو التقدم ، وأنت لا تختار . الحياة نفسها هى التى تجرى الفرز . ما يستحق البقاء من هذا التراث ، لابد أن يعيش . وما لا يستحق يندثر . دون أن نتفلسف ! الحياة دائماً ، تتقدم للأمام . وهذا لا يعنى أننى ضد التراث ، بالعكس كل التاريخ مهم . ولكن يكفى ما أضعناه من وقت وجهد دون طائل .

*** صحافتنا الآن ، هل تتمتع الحرية ؟**

– لأننى عشت فى المرحلة السابقة على ١٩٥٢م ، ومرحلة الثورة وما بعدها ، والوقت الحالى ، أستطيع أن أقرر أن صحافتنا ، سواء فى المعارضة أو فى الصحف القومية ، تتمتع بحرية غير مسبوقة .

*** « أنا أكتب عن الأشياء المحزنة ، لا لتكتبوا عندها ، ولكن لتغيروها » ، مقولة لتشيكوف ذكرتها فى أحد حواراتك . أستاذ بهاء ، كيف تغير الكتابة المجتمع ؟**

– أنت سلمت أولاً أنها تغير المجتمع . لا ، ليس من المؤكد جداً أنها تفعل ذلك ؛ لأنه من الممكن أن تكون هناك كتابة ، ولا تحدث استجابة من المجتمع ، فلا يكون هناك تغيير . أى لا يكون للكتابة أى دور . الكتابة لكى تغير المجتمع ، لابد أن تكون هناك استجابة اجتماعية . أن يكون لما يُكتب قيمة ، ثانياً أن يكون المجتمع مهيئاً للاستجابة .

ولابد ، أقول ذلك من خلال تجربتى ، لابد أن تكون هناك مرحلة وسيطة بين هاتين المرحلتين . مرحلة توجه الاهتمام للكتابة . هذه المرحلة كانت فى وقت من الأوقات النقاد ، كانت الأحزاب ، كانت الحركة الثورية .. أى الأداة التى توصل كلمة الكاتب

للجمهور ، وبالتالى توضح أهمية الكتابة . تذكّر أن ما خدم رفاعة الطهطاوى هم تلاميذه الذين علمهم فى المدارس ، والذين خدموا النديم ، ومحمد عبده ، والبارودى هم الثوار العرابيون ، والحركة الوطنية ، والصحف هى التى خدمت سعد زغلول ، وقاسم أمين ، ومحمد عبده .. أى أن المنابر كانت تنقل رأى الكاتب للجمهور .

لابد من أن يكون هذا التفاعل وسيطًا حافزًا ، هذا الوسيط .. الحزب أو القيادة أو الصحافة ، يبدو أنه على نفس درجة أهمية الكتابة ذاتها . أنا أعتقد أن العيب الأساسى فى هذه المسألة ، هو وجود خلل فى الوسائط بين الكاتب والجمهور ، ولكى تحقق الكتابة تأثيرها لابد أن تستجيب الكتابة للحظة التاريخية التى تتحدث عنها ، وأن يكون هناك قدر من القوة فى عرض الرسالة ، حين يقول طه حسين « التعليم كالماء والهواء » غير ما يقولها كاتب فى صحيفة سيارة .. أقصد أن تكون الكلمة مهمة وصادرة عن إنسان له أهميته ومصداقيته لدى الناس ، وأن يكون هناك ذلك الوسيط الطبيعى للتفاعل بين الكاتب والجمهور ، وأن يكون الجمهور مهيأ لتقبل هذا الرسالة .

*** حدثنى عن موقفك السياسى ، وكيف ترى العلاقة بين الكاتب والسياسة ؟**

– فى حياتى لم أنخرط فى أى عمل سياسى ، ولا انتميت لحزب أبداً ، لكن العلاقة بين السياسة والكتابة علاقة مباشرة .. أى نوع من أنواع الكتابة ؛ لأن السياسة فى نهاية الأمر هى فن تنظيم الحياة فى المجتمع ، وللكتابة رأى فى هذا الشأن .. شأن تنظيم الحياة ، ولذلك لم يخطئ الرقباء ، ولا الساسة منذ قديم العهد ، عندما نظروا للكتابة نظرة الريبة والشك ، وعندما أرغموا سقراط على الموت ، وعندما صادروا الكتب ؛ لأنهم يدركون تماماً أن الكتابة تؤثر على مسعاهم لتنظيم المجتمع على النحو الذى يريدون .

هم يريدون من الكاتب – دائمًا – إما أن ينحاز إليهم ، أو – على الأقل – أن يكون محايداً ، لا إلى يمين أو يسار ، وهذا الكاتب لا قيمة ولا وجود له ، مثله مثل كاتب السلطة ، والناس بحسها الفطرى ، تعرف الكاتب الموظف من الكاتب الفارس الذى يقول رأيه بحرية ، وليس بالضرورة أن يكون معاديًا أو مخالفًا . هذا الكاتب حتى، إذا لم يتطرق للسياسة مباشرة . فإن لكتابته أهميتها وتأثيرها فى المجتمع

الذى يعيش فيه ، وبالتالى يصبح فى موقف الرفض من السلطة ، إن لم يكن فى موضع الحرب !

*** باختصار لماذا تكتب ؟**

– أكتب لأننى تعلّمت منذ الصغر أن الكتابة هى أشرف . **يسكت طويلاً ويستأنف** : هى أشرف مسعى لإصلاح أحوال المجتمع والبشر .

*** الناقد والكاتب بداخلك ، كيف تكون العلاقة بينهما أثناء العمل ؟**

– علاقة مرة ، لأننى بعد الكتابة أعيد صياغة ما كتبت مرة واثنتين وعشرة ، وهذا الناقد رغم ذلك ، لا يرضى حتى عن الصيغة العاشرة التى أدفع بها للمطبعة . هذا الرقيب الداخلى يفسد علىَّ حياتى .

*** هل تجمع ملاحظات ما قبل الكتابة ؟**

– أثناء الكتابة أحياناً ؛ لأننى لا أقرر سلفًا اتجاه العمل ، وأحيانًا أشعر بالرغبة فى قراءة موضوع معين أثناء الكتابة ، ولأننى لا أكتب أعمالاً تسجيلية أو توثيقية إلاّ فيما ندر ، فأنا لا أحتاج إلى جمع بيانات .

*** « عندما أفشل فى أن أكون واضحًا ، فإن عالمى كله ينهار » ستندال . ما رأيك فى الغموض والكتابة الغامضة ؟**

– ليس كل وضوح مستحبًا ، ولا كل غموض مستحبًا ، والعكس صحيح . درجة معينة من درجات الغموض ، تدفعك إلى التأمل وإلى الرغبة فى استكشاف العالم الذى حجب عنك الكاتب بعضًا من تفاصيله .. مثلاً حين تقرأ روايات كافكا ، ستشعر بالرغبة الشديدة فى أن تستكشف ما وراء هذا العالم . إذن فى كل كتابة حقيقية درجة من الشفافية والوضوح ، وفيها درجة من الغيم .. فى كل كتابة حقيقية ، والقارئ – أتحدث عن نفسى على الأقل – تستهويه هاتان الدرجتان من الوضوح والغموض أثناء القراءة ولا يفصل بينهما ، لكن الأعمال التى تقصد إلى الغموض قصداً ، وإلى التعمية تحديداً ، هذه الأعمال أنا لا أحبها على الإطلاق ولا أشعر بالرغبة فى قراءتها أو فك طلاسمها !

* الحياة بدون الفن ، كيف تتصورها ؟

– تكون الحياة تعيسة جداً ، فما الإنسان – على رأى شكسبير – إذا كان كل ما يعمله هو أن يأكل ويشرب . هو حيوان لا أكثر .

* أدب الاعترافات ، خاصة الجنسية ، هل يضيف للكتابة ؟

– هذا موضوع مثير لأشد أنواع الجدل ، أولاً الكتابة الأدبية عموماً ، موجهة لجمهور خاص ، وهذا الجمهور ليس ساذجاً أو يسعى وراء الكتابة الفضائحية ، إنما هو جمهور يسعى إلى فهم الإنسان بكل مكوناته بما فيها ذلك المكون الجنسى .. اقرأ دواوين الشعراء العظام المتنبى ، أبى تمام ، أبي نواس ، ستجد أشياء عن الجنس فظيعة . الكاتب يعلم أنه يخاطب جمهوراً ناضجاً ، تبدأ المأساة عندما تفسد العلاقة بين القارئ والكاتب ، بتدخل هؤلاء الرقباء والوعاظ الأخلاقيين الذين لا يعرفون أن رسالة الأدب هى كشف جوهر النفس الإنسانية ، وأن الجنس هو جزء من جوهر هذه النفس ، وأن الكاتب الذى يشعر أنه عثر على كشف ما ، فى هذا المجال عليه أن يقدمه للجمهور . لم يشعر الجاحظ بتحرج حين كتب عن الجنس ، ولم يشعر الفقيه ابن حزم زعيم الظاهرية ، حين كتب لا عن الحب والعشق فحسب ، بل عن الجنس المثلى ، فى كتابه « طوق الحمامة » ، لم يشعر بالحرج .

من المؤكد أن ابن حزم كان يعلم أنه يخاطب جمهوراً ناضجاً لا جمهوراً يبحث عن الإثارة . أنا لا أرى أى غضاضة فى أن يكتب كاتب عن الجنس ، إذا كان ذلك داخلاً فى صلب موضوعه ، وأن يقدم لنا ما اكتشفه عن هذا الجانب الإنسانى البالغ الأهمية ، وإن تعامى البعض عنه أو تظاهر بالعفة .

* أليس هناك حدود ؟

– ألاّ يكون الهدف من الكتابة هو الإثارة ، وأن يكون التعبير عن الجنس أمراً ضرورياً فنياً ، ثم ألاّ يكون هذا العمل موجهاً إلى جمهور قاصر .

* متى ينتهى الكاتب ؟

– إذا لم يعد لديه جديد يقدمه .

* * *

« الدنيـــا .. قصـــص ورواـيــات »

*** كلمنى عن لحظات الإبداع ، وماذا تمثل لك ؟**

– لو عرفت الإجابة عن هذا السؤال لانتهت كل مشاكلى فى الحياة . أنا لا أعرف متى تأتينى هذه اللحظات ، ولا متى تغادرنى . ما يحدث أننى أحس أحيانًا أن لدىّ الرغبة فى الكتابة ، وأن تفاصيل الوجود تحت يدى .. ذكرياتى وما أراه أو أسمعه ، أحس أنها تأتى ، وأحيانًا لا تأتى هذه اللحظات مهما تعمدتها ، مهما جلست على المكتب ، وتعمدت أن أكتب ، فمصير ما أكتبه وقتها هو سلة المهملات ؛ ولذلك لم أكن كاذبًا ولا مدعيًا عندما قلت : إن القصص هى التى تكتبنى، لا أنا الذى أكتبها .

*** وكيف تكون أثناء الكتابة ؟**

– فى حالة صعبة جدًا ، فى حالة معاناة فظيعة .

*** قبل أن نتحدث عن قصصك ورواياتك ، دعنى أسأل عن سبب عزوفك ، أو بالأحرى ، تأخرك فى نشر أول مجموعة .**

– شبهة تحقيق الذات أثناء العمل الإذاعى كان لها دور ، أنا أيضًا أتهيب النشر ، حتى قبل هذا العمل ، أول عمل لى « مسرحية بلا رجل » نشرها لى سليمان فياض ، وقبلها كنت أنشرمع صديقى صبحى شفيق أثناء الجامعة فى مجلة اسمها «المعرض» ، لم أكن أوقع موضوعاتى . صدقنى أتهيب النشر تهيبًا يقرب من القداسة .

ربما يكون ما نشرته من قصص قصيرة أقل من نصف ما كتبته بالفعل وحجبته عن النشر ، لأننى لم أرض عنها . على فكرة ، أنا لا أنشر أعمالى بعد كتابتها مباشرة ، لكى يتاح لى أن أحكم عليها بعد فترة زمنية معينة ، فإذا وجدت أن العمل غير مرض لا أنشره ، أذكر أن قصة « اللكمة » كتبتها قبل النشر بعشر سنوات . المهم هذا التهيب ، وقد يكون مرضًا أو عيبًا ، جعلنى أنشر فى وقت متأخر جدًا من عمرى .

*** هل يمكن أن نمسك معًا ببدء تخلّق جرثومة الإبداع لديك ؟**

– لا أعرف بكل بساطة ، ولا أستطيع أن أحدد كيف تتكون الجرثومة التى تسألنى عنها ، أنا أجلس وأكتب حين أكون مهيئًا لذلك ، وإما أن تنساب الكتابة أو تنقطع .

*** فلنقف الآن عند ظروف كتابة أعمالك ، نبدأ بـ « الخطوبة » .**

– كنت على مدى فترة طويلة ، أعانى من حالة تمزق فظيعة ، لا أنا مع الثورة ولا ضدها ، إذن ، من أكون وما موقفى . كانت الخطوبة – ربما – هى الخلاص من هذه الازدواجية التى حدثتك عنها قبل ذلك . من هذا الشلل الفكرى الذى أوقعتنا فيه الثورة بين التأييد والمعارضة ، بين الحب والكره ، فى ظل هذا الانقسام كتبت الخطوبة .

*** فى هذه المجموعة ، رغم قناع الحياد لدرجة البرودة أحيانًا ، تتخفى رغبة عارمة تدافع عن أشواق الإنسان وأحلامه وحقه فى أن يحيا حرًا مريدًا ، وثمة « فوضى عظيمة تحت السماء » .. ناس مقهورون ، أشواقهم مكتومة ، وتسقط الأحلام – قبل أن تولد – ميتة ، لا أحد منهم يقوى ثقتنا فى شىء ، أو يسمو بنا فوق أحزان الحياة . فى حانة بالليل تنتهى الآلام دون رغبة حقيقية فى أن يقتص المقهور من قاهره . قل لى : لماذا نعيش ؟**

– **قال متأملاً** : هناك كلمة جميلة يقولها وليم فوكنر فى « الصخب والعنف » ، وهى من أجمل الروايات التى قرأتها ، رغم تحفظاتى الكثيرة على الكاتب ، المهم فوكنر فى مقدمة الرواية يعرض للشخصيات المقهورة .. الزنوج وغيرهم ، يقول : «هم يحتملون» . أنا شخصياً أرى أنه ليس الاحتمال وحده ، إنما الاحتمال الإيجابى هو القيمة العظمى فى الحياة ، بمعنى ، وقلت ذلك كثيراً فى معرض الرد على أن شخصيات « الحب فى المنفى » سلبية ، قلت : بالعكس إنها شخصيات فى منتهى الإيجابية ، لأنها لم تستسلم لحظة رغم إدانتهم لذاتهم ونقدهم لحياتهم ، ولكن حين كان الفعل مطلوباً لم يترددوا لحظة .

ليس ضرورياً أن ينجحوا . هل الذين يذهبون إلى الحانة تنتهى آلامهم كما قلت أنت ، هل هذه الشخصيات سلبية ، أليست محاولة للفهم ، فهم مصدر هذه اللكمة لا الاستسلام ، أليس ذلك نوعًا من المقاومة ؟

[« حدث ذلك قبيل الظهر . كنت جالسًا إلى مكتبى أكتب مذكرة بحالتى الاجتماعية كما أمرنى رئيس القلم عندما دخل رجل متوسط الطول ، لم أره فى حياتى قبل ذلك ، انحنى على مكتبى وأخذ يشتمنى بهدوء وبصوت رتيب . فتحت فمى لأنطق فلكمنى فى فكى بعنف ، ثم أهوى بقبضته على رأسى . شاهدت نقطة من الدم تسقط على السطور التى أكتبها وغامت عيناى على منظر هذه البقعة الحمراء وأطرافها تتشبع بالحبر الأسود » .

تلك هى الواقعة والتداعيات عبثية أيضًا ، خاصة حين يتحول الموظف « الملكوم » إلى متهم مدان ؛ لأنه لا يعرف صاحب هذه اللكمة العبثية ، حتى بعد أن تفرس فى ملامحه . ثم إنه بلا أعداء ، وذلك مصدر اندهاش واستنكار الضابط الذى حقق فى الواقعة ، واندهاش رئيسه فى العمل ، واندهاش غير قليل من الناس فى المصلحة وخارجها .

ثانيًا عندما يقتنع – بتأثير من إلحاح الناس – بضرورة أن يعرف أعداءه ، فيجدّ فى البحث عنهم قبل فوات الوقت ! لدرجة أن يستدعى كل المشاجرات التى خاضها فى حياته ، دون جدوى بالطبع ، لأنها مشاجرة واحدة تافهة ، ومن ماضٍ بعيد جدًا .. من الطفولة .

ويظل المقهور فى حيرته ، يطارده سؤال : « ماذا يدفع رجلاً لا أعرفه إلى أن يضربنى » ! هل يجيبه أحد ؟ يجيب عن ماذا ! هو لا يعرف المعتدى أصلاً ، فليس ثمة مبرر لما حدث ! لا زملاؤه فى المصلحة ولا الضابط ولا رفاق الحانة فى المساء ، لا أحد يعرف ، هو نفسه – قبل الجميع – لا يدرى – كما قلت – لماذا حدث ما حدث ؟

هل عليه أن يتلقى – فقط – باستسلام ضربات أو لكمات بالغة الألم معنويًا وماديًا ، حتى دون اعتراض أو دون أن يفهم ، ماذا أقول : إنها مأساة ، أو بالأحرى ملهاة فادحة .. أن يلقى مجهول – لأسباب مجهولة – حجرًا فى حياتك فيقلبها رأسًا على عقب ، ثم يمضى !

هكذا يستنطق بهاء طاهر ضمير هذه الشخصية التى بلا شخصية وبلا اسم وبلا حياة ، بلا أى شىء أبداً . وليس معنى ذلك ، أو من أجله تفجؤها الكلمة ! المعنى أن الروائى يحرضنا على الإمساك بقشرة العبث ، ويحركها أمام أعيننا إيغالاً فى القسوة على حياتنا المعاصرة التى ينعى عليها تفاهتها وفراغها الملحّ] .

ثم تكلم بهاء طاهر عن ظروف كتابة مجموعته الثانية « بالأمس حلمت بك » قال :

– فى وقت كتابة هذه المجموعة ، كانت الكتابة بالنسبة لى بديلاً للانتحار ، قلت ذلك أكثر من مرة ، لأن تجربة الغربة وخروجك من بلدك رغماً عنك ، ووظيفتك الشاقة .. كنت أحسّ أن حياتى تنتهى ، وربما تكون هذه الحالة هى التى استفزتنى . على مدى سنتين كنت مكتئباً وأشعر بإحباط لا حدّ له . كانت الحياة عبثية إلى أبعد الحدود ، ولم ينقذنى سوى الكتابة .

ولكنك نسيت أن « شرق النخيل » أسبق من « بالأمس حلمت بك » ، لأننى كتبت شرق النخيل فى السبعينيات .

*** بالمناسبة لماذا سميتها « لو نموت معًا » ؟**

– الذى سماها كذلك هو الأستاذ لويس جريس صاحب الفضل فى نشر هذه الرواية ، عندما نشرها مسلسلة فى مجلة صباح الخير ، ودار المستقبل العربى طبعتها بهذا الاسم ، لاعتقادها أن « لو نموت معًا » جزء من العنوان : « شرق النخيل » كتبتها من صورة حكتها لى أمى عن الأب والابن الذين اخترقهما الرصاص فماتا معًا . أظن أنى انتهيت منها فى عام ١٩٧٩م ، قبل سفرى إلى الخارج ، ولكن كان مستحيلاً نشرها .

*** لماذا ؟**

قلت لك : إننى كنت ممنوعًا من النشر ، وبما أن الأمور فى بلدنا تستمر بشكل تلقائى ، استمر هذاالحظر ، حتى بعد رحيل السادات ، وبعدها بعامين قال لى لويس جريس : دعنا ننشر ونر ما يمكن أن يحدث ، ولم يحدث شىء حين نشرت مسلسلة عام ١٩٨٣م . بعدها نشرت بالأمس حلمت بك .

*** « بالأمس حلمت بك ، سندس ، النافذة ، فنجان قهوة ، نصيحة من شاب عاقل » قصص تختصر الحياة فيها مفردات العبث ، التفاهة ، الانتماء . مثلاً لماذا انتحرت آن مارى ، وماذا كانت تريد ، والبائع العجوز القواد ، وهو يموت – هل تذكر – كان يشهر بطاقة هويته ، وكان صقر يضرب بجناحيه فى فضائك وأنت تمد يديك ، كنت تمدهم لمن . هل كنت تحلم أن يكون العالم غير ما هو . هذا العبث فى عالمك ما مداه ؟**

– أولاً ، لكل شخصية من هؤلاء ظروفها ، وكل شخصية ليست تكراراً لشخصية أخرى أو شبيهة بها . لو كان هناك شبه ما سأعتبر أننى فشلت ، ثمة عالم لكل منها مختلف ، أما الراوى ، لا أنا ، فكان يمد يده للوطن طبعًا ، إنه شخص مغترب يمد يده الصقر رمز الوطن ، يمدها لحورس .

إلى هنا انتهى من كلامه ، أو هكذا خيل لى ، لكنه قال مستفهمًا .. سؤالك طويل أوى ، قله لى مرة ثانية ، **فذكرته بالعبث فى عالمه ، كنت أسأل عن مداه وعن حلم أن يكون العالم غير ما هو ، قال :**

– هذا العبث هو التحدى الذى يواجه الدكتور فريد فى أنا الملك جئت ، وإبراهيم ، والراوى فى « الحب فى المنفى » ، هذا اللامعنى يحاولون أن يحولوه إلى معنى ، يحاولون أن يغيروا العالم .

*** أنا الملك جئت .**

– كانت ظروف كتابتها غريبة جداً . هبت على جنيف وقتها عاصفة لم يسبق لها مثيل منذ عشرات السنين ، فحولتها إلى كتلة بيضاء ، كان الثلج على البيوت وفى الشوارع ، وانقطعت المواصلات والكهرباء . كانت جنيف ميتة ، ولكن لم ينقطع العمل فى الأمم المتحدة ، فكنت فى مكتبى وحين نظرت من الشباك على جنينة الأمم المتحدة الجميلة، فجأة – لسبب لا أدريه – استحضر الثلج فى ذهنى صورة الصحراء . هذا البياض الشامل ، جاء بسفرة الصحراء التى أعرفها جيداً من ترددى على بيت أختى فى الصعيد ، وكان ملاصقًا للصحراء ، على فكرة هذا هو البيت الذى وصفته فى « خالتى صفية » ، كان بدء الصحراء . المهم أن الصحراء جزء من تكوينى ، ودائمًا

أتأملها . ما حدث أننى وجدت عبارة « فى خريف ١٩٣٢م قرر الدكتور فريد الخروج للصحراء .. » وجدتها تكتب نفسها وانسابت الكلمات بعدها .

أذكر – بهذه المناسبة – شيئًا مذهلاً لم يحدث لى فى عمرى ، كنت أكتب هذه القصة وأنا أرتجف ، ورجعت إلى البيت وانتهيت من كتابتها فى ثلاثة أيام وهذا شيء نادر أيضًا ؛ لأننى أكتب القصة عادة فى شهور ، إن لم يكن فى سنين ! « أنا الملك جئت » انتهت فى هذه المدة ، وكأن إملاءً كان يملى كتابتها علىّ . ما أسعدنى جدًا أن صديقًا لى فى چنيف اسمه « درويش مصطفى » تطوع وكتبها على الآلة الكاتبة ، قال لى : وأنا أكتب الفقرات الأخيرة فيها كنت أرتعش ! لكن للأسف لم تنل هذه القصة إعجاب الناس ، أحبها المثقفون فقط .

*** وما ظروف نشرها فى كتاب ؟**

– سليمان فياض أيضًا هو السبب ، جمع قصص المجموعة من مجلة « إبداع » التى كان سكرتيرًا لتحريرها ، ونشرها دون علمى فى مختارات فصول . كدت حين عرفت أن أخاصمه ، لولا أننى تذكرت فضله علىّ ، سليمان كان أول من نشر لى شيئًا .

*** « .. ولما تفرق الذين اجتمعوا حولى ، ولما وجدت نفسى وحيدًا اكتملت فى تمامى ، ولما كنت أنت إلهى وأنا صفيك ، أنت النور وأنا صدى النور .. أتملى فى ذاتى فأراك وأتملى فيك فأرانى ، فإنى بعيدًا عن الآحاد جئت لنكون واحدًا أنا وأنت . الآن ولم يبق وقت ويبقى الأبد . الآن أناجيك فتعرفنى ، أدون سرى بعيدًا عن الأعين لعينك أنت فتعرفنى ، أتطلع إلى قرصك اللامع الذى يرقب من السماء كل شيء وأنقش على الصخر سرى : أنى حزين » .**

قل لى يا أستاذ بهاء : هل يجب – حقًا – أن نفقد أنفسنا لنجدها ، هل وجد فريد شيئًا فى رحلة بحثه المضنية ، هل ثمة ما يدعو الإنسان لتفاؤل حقيقى فى هذا العالم .

– سؤال صعب فى الحقيقة ، صعب جدًا . أنا قلت لك : إن فريد أحب الشخصيات إلى قلبى ، لأنه ووجه باللامعنى ، وفى لحظة من اللحظات استسلم ، ولكنه حاول أن يجد المعنى . كانت رحلته فى الصحراء بحثًا عن هذا .

*** هل من الضرورى أن نفقد أنفسنا كما يقولون كى نجدها ؟**

– أتمنى ألا يكون الأمر كذلك ، ولكن فى تجارب كثيرة يكون هذا هو الحال .

*** أليس ثمة شيء يدعو للتفاؤل ؟**

– كيف .. كل مافى الحياة يدعو للتفاؤل ، بمعنى أن الفهم هو المدخل للتفاؤل ، لكن العبث الحقيقى هو الاستسلام للعبث .

*** اسمح لى أن أعود إلى « شرق النخيل » . قلت : إن فكرة الفداء كانت محور هذه الرواية ، الابن الذى حكت لك أمك عن افتدائه لأبيه ، وماتا معًا . والطلبة الذين ضربوا فى عام ١٩٧٢م ، وهم يتظاهرون ، رأيت فيهم نفس الصورة « صورة الفداء » . من نفتديه الآن ؟**

الابن وجد أبًا يفتديه ، لكن أليس بشعًا ألا تجد وطنًا .

– لماذا ، الوطن موجود فى كل لحظة ويستحق الفداء .

حتى لو كان قامعًا أو مستبدًا ؟

الوطن لا يكون مستبدًا ، إنما الحكام هم الذين يستبدون .

وأنا أتحدث عنهم .

– هذا شيء آخر .

إذن قل لى كيف تفهم « الوطن » ؟

– الوطن هو الناس، الذين نعيش معهم على أرض نعمرها معًا .

وصلت لنفس النتيجة .. بلادى وإن جارت علىّ عزيزة .

– بكل تأكيد ، ولكن دعنى أسألك أنا هذه المرة .. هل بلادك تجور عليك ؟

– كل يوم .

– لا يمكن ، ناس بلدك هم الذين يجورون عليك ، وهم إذا جاروا عليك إنما يجورون على بلادهم فى المقام الأول . اوعى تفتكر أن حب الوطن هو الأغانى التى تذاع فى الإذاعة والتليفزيون . لا ، إنه شىء آخر مختلف .

*** « قالت ضحى » :**

– كتبت فى نفس الوقت تقريبًا مع « أنا الملك جئت » .. **يصمت قبل أن يقول بتأثر** : كنت أمُر بظروف صعبة للغاية ، بعد وفاة والدتى . بالأمس حلمت بك ، وهذه الرواية ، كانت بعد وفاتها رحمها اللّه . كنت حزينًا حزنًا خاصًا لا أستطيع التعبير عنه ، لذلك أظن أن روح الحزن منعكسة فى هذين العملين ، فضلاً عن سؤال كان يلحّ علىّ بشدة .. لماذا فشلت تجربة الستينيات ؟ مع أنها تجربة كانت مليئة بالوعود ، فانتهت إلى الألم . أنا لم أجعل من ضحى – كما قال البعض – مرادفة لمصر أو رمزًا لها ، ولا الكاتب ، رمزًا للمثقفين ، إنها شخصيات من لحم ودم عاشت هذه الفترة . ماذا حدث لها ، ولم انتهت هذه النهاية الحزينة ! لماذا البطل وصديقه حاتم وكل الثوريين انتهوا هذه النهاية ! كانت الرواية محاولة للإجابة عن هذا السؤال ؟

*** فى الرواية تبدو كأنك تبحث عن لؤلؤة المستحيل ، أو تريد أن تبعث شيئًا من ماضٍ بعيد ، ماضٍ شكلته كلمة البعث . وفى منتصف الرواية جئت بضحى / ايسيت متوحدة مع أوسير ، جئت بهما إلى بلد ميت قتله الفساد والإحباط والشعارات .**

قل لى ياعمنا ، هل وجدت – هنا – حلاً لـ « مرض العدل » ولمرض الحب ، وللظلم « ذلك النجم البعيد الذى لم يمسه أحد » !

– ولماذا نسيت سيد وقد واجه نفس الظروف التى واجهتها ضحى وواجهها الراوى ، ورفض أن يسقط . ثم هل شخصية سيد – كما قال البعض – شخصية كاذبة ، أنا رأيت فى الستينيات بالفعل ، هذاالساعى الذى علم نفسه بنفسه ، كان اسمه عبد الجواد ، رأيته بعينى ، كان فعلاً فى الاتحاد الاشتراكى ، وكان يحارب الفساد فى عمله ، طبعًا لا أعرف مصيره الآن ، لكن لماذا بمجرد ما يجد النقد شخصية لها موقف إيجابى يقول : دى شخصية مصنوعة ! ألا يدل هذا على أن نقادنا شديدو اليأس ، بل أشد يأسًا من كل الكتاب .

أشد يأسًا من كل الكتاب ، قالها وهو يضحك ، أما أنا فكنت فى منطقة أخرى . كنت سارحًا – لا أدرى لماذا – فى بهاء طاهر .. جنبى على الكنبة ، وقد تكومت السنوات على وجهه .. غضونًا بطول الخد ، وكرمشة فى الرقبة ، وفى عينيه همٌ ، بدا لى أنه همٌ مقيم .

كنت أقول لنفسى عنه : هل حقًا «خدمت عيناى قلبى» ؟ ها هو معى وقد عايشته ، ثم إننى أريد – بقسوة – أن أفهمه ، والحقيقة أوْجه متعدِّدة .. وَعِرة وبعيدة غالبًا . كيف أصل إليه .. إلى حقيقته بمعزل عن إغواء المحبة وكلام الناس . هل أسأله مباشرة .. فليكن ، قلت له : هل يضايقك أن أناقشك فى أمر حساس ؟

– قل بلا حساسيات .

*** يقولون : إن لك ظاهرًا غير الباطن .**

– بمعنى .. هل أكذب مثلاً ؟

*** أقصد .. هل أنت نبيل فعلاً**

– أنا ، إذا كنت أعتز بشىء فى هذه الدنيا ، أعتز بأننى لا أكذب ، وما أحس به أعبر عنه .

*** هل أضايقك ؟**

– لا ، قل ما فى نفسك .

*** أليست هناك ازدواجية فى حياة بهاء طاهر بين سلوكه وفكره ؟**

– فى هذه الجزئية بالذات أنا أُبَرِّئ نفسى تمامًا ، أنا لا أدافع ، ولكنى بالفعل ، كان هدف حياتى أن أفعل ما أقول ، ولا أظن أنى خنت ما عاهدت عليه نفسى ، واخد بالك .

قال ذلك وهو يضغط على مخارج الحروف ، وكان صوته متأثرًا ومهتزًا مع اهتزازة رأسه إلى أسفل وتلويح يده اليمنى علامة على النفى قاطعة .

واخد بالك . كذلك يقول حين يريد التأكيد على شىء .

سألته لأريحه وأريح نفسى .. ببساطة أنت فعلاً كويس ، قال :

- أنا معذب .

قالها مستريحًا وضحك . السؤال .. لنفسى : هل استرحت ، أو عرفت حقيقة بهاء طاهر !

فى المقدمة - التى لم أكتبها بعد - سأحاول لآخر مرة ، أن أطبق اعتقادى المزمن .. أن كل إنسان مرتهن بضروراته ، وليس من حق أحد أن يحاكم أحدًا . فقط عليه أن يبحث - صادقًا - عن الحقيقة . الحقيقة .. سأحاول .

أعود إلى السياق وأسأله عن ظروف « خالتى صفية والدير » ظروف كتابتها ، فيضحك ويقول بعد تأمل قصير :

- كتبتها بين جنيف وسيراليون والقاهرة . أذكر أن الفصل الأخير كتبته فى فندق شيراتون المطار . كنت أتأمل ، ليس فقط العلاقة بين المسلمين والمسيحيين ، وإنما العلاقة بالآخر المختلف بوجه عام ، فضلاً عن صور الصعيد التى كانت تطاردنى . هذه هى الحالة الروائية . كنت فى حالة كتابة وقتها ، واللحظات التى زرت فيها الصعيد كانت تتلبسنى . وقد سُئلت عن ذلك ، قلت : يبدو أنه - مع الشيخوخة - تتضح أكثر صور الطفولة فى ذهن الإنسان .

*** أما زلت تتساءل : « لماذا أحبت صفية بعد حبها الأول الجميل ذلك الرجل الذى يبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف عمرها » . أستاذ بهاء ، هل يخون الإنسان نفسه ، عندما يتخلى - باختياره - عمن يحب ، هل يتسع قلب واحد للحب والكره معًا ، للرغبة والانتقام ، أم تتسع الأسطورة .**

- هذا حكم أخلاقى ، وأنا لا أصدر أحكامًا أخلاقية على شخصياتى ، أنت تسألنى إذا الإنسان خان نفسه هل يضيع . نعم ، هل صفية عندما خانت قلبها ، وقبلت الزواج من القنصل العجوز ، بل تفانت فى حبه بمعنى معين من معانى الحب . نعم هى دمرت نفسها بهذا القرار طبعًا . إنما هذا القرار من وجهة نظرها ومن حكمها على الأشياء كان مبررًا من شعورها . لا تنس أنها شخصية مندفعة العاطفة .

* **الحب فى المنفى .**

– لهذه الرواية قصة طويلة ، فقد استغرقت كتابتها عشر سنوات أو أكثر ، ولكن لم أكن أكتب بشكل دائم . بدأت فيها بعد « صابرا وشاتيلا » ، كنت مهزوزاً بعنف ومنفعلاً من هذه المذابح ولكنى قلت : من الافتعال أن أكتب عن تجربة لم أشاهدها ولم أشارك فيها ، فتوقفت وبقى بداخلى – رغم ذلك – شىء يلحّ علىّ أن أكتب لأسدّد الدين نحو هؤلاء الشهداء . كتبت فى هذه الأثناء « أنا الملك جئت » ، و « قالت ضحى» ، و « خالتى صفية » ، وبقيت « الحب فى المنفى » .

إذن يمكنك أن تكتب عملين فى وقت واحد .

– وثلاثة .. يضحك ويواصل : ظللت أعود إليها أنظر فيها وأتركها وهكذا ، كنت قطعت فى منتصف عام ١٩٨٤م ، حوالى سبعة فصول منها ، فقال لى صديقى العزيز مكرم محمد أحمد : هات حاجة ننشرها ، وأخذ هذه الرواية رغم أنها لم تكتمل ، قال : سأنشر سواء أكملت أم لا ، قلت له : ازاى ! ، قال لى : سأكتب إلى هنا ينتهى الجزء الأول من الرواية ، وأنت أكمل براحتك .

استفزتنى الحكاية دى ، فكنت أكتب فيها وهى ما زالت تنشر . هكذا كتبت فصولها الباقية .

* **لماذا يتحتم على الحب – دائماً – أن يفشل ، أن يموت عندك ، بأى منطق يلتقى الحب .. أى التواصل ، بالمنفى الذى هو القطيعة ، ثم يكون المنفى مصيراً نهائيًا لهذا التواصل .. للناس وأحلامهم ومشروعاتهم ومستقبلهم .**

باختصار ماذا يريد منا العالم ؟

– هذا حكم نقدى مركب ، ولو كانت الأمور بمثل هذا الوضوح فى ذهنى ، ما كنت كتبت كلمة واحدة .. **يضحك وأضحك معه وأقول :**

إذن ماذا يريد منا العالم ..؟ هذا سؤال غير مركب وملحّ فى « الحب فى المنفى » .

– العالم يفرض علينا تحديات فى كل ثانية ، وإما أن ننهزم ، وإما أن نواصل . عبر عن هذه الحكاية شخصية من شخصيات « محاورة الجبل » حين قال : الحياة صفعة ممتدة من لحظة الميلاد إلى القبر . طبعاً هذا تعبير جارح وغير صحيح . الحياة ليست صفعة ، الحياة تحد ممتد من لحظة الميلاد إلى لحظة الموت ، إذا لم نستطع مواجهة هذا التحدى المتغير يوميًا ، سنضيع بالفعل . كنت تسألنى كيف نجد أنفسنا . بأن نقبل هـذا التحدى .

ليس مفروضًا فى الإنسان أن يكون – فى كل لحظة – قويًا وقادراً على التصرف والفعل . إنما على الأقل ، أن يكون مجمل حياته هو قبول هذا التحدى ومواجهته . يمكن فى لحظة يضعف ، يمكن يعجز ، ولكن إذا كان هذا هو منهجه طوال الحياة . خلاص يبقى ضاع ، ولكن لحسن الحظ أن هذه ليست الحقيقة . لحسن الحظ أن البشر عامة يقبلون هذا التحدى .

*** ذهبت إلى شلال .**

ذهبت إلى شلال فيها قصص مكتوبة فى مراحل مختلفة من العمر . كتبت أطلال البحر ، وذهبت إلى شلال هنا . والباقى كتبته فى جنيف. أطلال البحر كتبتها فى الإسكندرية التى أحبها جداً . جاءتنى صورة واحد – ليس أنا – غاب عن الإسكندرية طويلاً ، والآن قد عاد إليها ، فماذا تكون انطباعاته .

*** « معك لا أحتاج إلى سواك ، لا إلى بشر ولا إلى أشياء » .**

عندما نحب ، ماذا يحدث فينا ، هل ندخل قلب الأشياء .. روح العالم ، هل نذوب فى الكون ونعانق الأبد .

– أنا أظن أن الحب تجربة كاملة ، حتى لو حكمت من منطلق حياتى أنا الخاص . نعم الحب يجعل الإنسان – على حد تعبيرك – يعانق روح العالم . الحب فعلاً هو الذى يصنع ذلك ، ولذلك أشعر بحزن شديد عندما يقول لى أحد الناس : إنه لم يحب .

*** أو أحب وفشل .**

– أحب وفشل هذا هو الطبيعي ، ولكن لم يجرب الحب الحقيقي أصلاً !! هذه كارثة .

(هذه كارثة . شعرت أنه يريد قولها ، فكتبتها من عندي) .

*** شخصيات أعمالك . ما موقعها بين الواقع والخيال .**

– كلها خيالية ، لا توجد عندي شخصية مستمدة من الواقع ، ولكني كما ذكرت في مقدمة « خالتي صفية » أن جنين الخيال هو الواقع . لا أحد يخلق شخصيات .

*** ما الفرق بين القصة القصيرة والرواية من واقع تجربتك ، وفي أيهما تجد نفسك أكثر ؟**

قلت لك : لا أنا ولا أي كاتب نختار الشكل الذي نكتب فيه ، سواء أكانت قصة قصيرة أو رواية . الشكل هو الذي يملي عليك . أظنك تعرف أن « خالتي صفية » كانت قصة قصيرة أساسها المقدس بشاي . وكان المفروض أن صفية شخصية ثانوية جداً ، ثم إذا بها تظهر وتفرض نفسها على العمل ، فأعدت النظر . الخلاصة أن الكاتب لا يختار ، وإنما التجربة هي التي تحدد شكل العمل .

*** وما الفرق بينهما ؟**

– القصة لحظة شديدة التكثيف ، يتضح فيها توجهك نحو هدف معين ، إنما في الرواية هناك عالم متشابك . هذا التشابك لا يوجد في القصة ، وإن كنت أعتقد أن كتابة القصة أصعب بكثير من كتابة الرواية .

*** وفي أيهما تجد نفسك أكثر .**

– لا أحب هذه المفاضلة . أنا أحب القصة والرواية على حد سواء .

*** ألم تفكر في كتابة رواية تاريخية .**

– حاليًا أفكر ، لكن لم يحدث قبل ذلك ، وإن كنت أعتقد أن كل رواياتي تاريخية . قالت ضحى ، الحب في المنفى ... إلخ ؛ لأن التاريخ شيء حيّ ممتد في حياتنا الحالية . هكذا أفهم التاريخ .

*** الرواية ، ماذا أضافت للقرن العشرين ؟**

– لا أستطيع أن أعطى حكمًا عامًا ، إنما دعنى أعبر عن تجربتى كقارئ .. الرواية هى التى أفهمتنى الحياة ، أكثر مما فهمتها من خلال كتب التاريخ أو السياسة أو الاجتماع .

عندما تقرأ عملاً روائيًا فأنت تدخل فى صميم عالم يتجاوز السياسة والاجتماع إلى جوهر وعمق الأشياء جميعًا . أنا فهمت القرن العشرين من روايات أندريه مالرو ، وسارتر ونجيب محفوظ وغيرهم .

*** هذا العصر ، هل هو فعلاً عصر الرواية ؟**

– وعصر الشعر والمسرح . هذه المفاضلة بين الأشكال الأدبية مفاضلة عبثية لا تقدم ولا تؤخر .

*** كتابتك وحياتك ، ما مدى التشابه بينهما ، يقولون : إن بكل عمل من أعمالك شيئًا من حياتك .**

– ليس صحيحاً على الإطلاق ، أو صحيح جداً .

بمعنى ...

– ليس صحيحاً بمعنى أن أعمالى لا تتضمن أبداً تفاصيل من حياتى الخاصة . ليس هناك عمل منها به اعترافات ذاتية . وصحيح جداً بمعنى أن كل كتابة هى تعبير عن محصلة تجاربك الخاصة .. كيف استوعبت العالم من حولك ، والأشخاص الذين نلتقى بهم ، ، وكيف تعبّر عن ذلك ؟

*** قلت : إن بيئة أعمالك معادية ومستعصية على التغيير . ماذا تقصد ؟**

– أقصد أنه على مدى سنوات عمرى شاهدت – فى بدء تجربة الكتابة – تألق الكتابة كوسيلة لتغيير الحياة . دعنى أضرب لك أمثلة .. مسعى طه حسين لنشر التعليم ، مقالات إحسان عبد القدوس حول الأسلحة الفاسدة ، كتابات أحمد بهاء الدين الباكرة مثل .. « أيام لها تاريخ » وغيرهم . أقصد الكتابة التى كانت تستهدف إحداث تغيير فى المجتمع ، ونجحت فى أحيان كثيرة . أنا شاهدت تألق الكلمة وتأثيرها والاهتمام بها ، ثم شاهدت بعد ذلك تضاؤل هذا التأثير ، وتحول الكلمة إلى زينة ومدح أو هجاء

للسلطة إلى أن أصبحت الثقافة على هامش المجتمع . تحدثت عن ذلك عندما قلت : إن الأزمة الحقيقية التى نعيشها الآن ، هى تهميش الثقافة ودورها فى المجتمع . قلت ذلك فى « أبناء رفاعة » ،.. فصول « الاستغناء عن الثقافة » ، و« الثورة على المثقفين » ، و« ضد التغريب وضد التتريك » . أنا أعتقد أننى - فى هذه الفصول الثلاثة - حاولت أن أضع يدى على ذلك التحول فى دور الكلمة فى المجتمع . وحين أقول لك : إن هذا من أهم أسباب أزمتنا كمجتمع ، لا تعتقد أنى أبالغ على الإطلاق ، لأنه ترادف مع إقصاء المثقف والاستغناء عنه بالضبط ، وكنتيجة حتمية ، بروز وصعود الفكر المتطرف والفكر الخرافى والفكر الذى حاولت الثقافة الحقيقية أن تغيره .

من هنا كانت بيئة أعمالى مستعصية على التغيير ؛ لأن ما يحدث التغيير فى البيئة أن تكون هناك طليعة تحدث ذلك التغيير . هذه الطليعة ضربت بالحذاء ونفيت وسجنت . من أين يأتى التغيير إذن .

*** أبطال أعمالك متهمون دائماً بالسلبية . ما تعليقك ؟**

ليس من وظيفة الكاتب أن يجمّل الواقع ، وليس من وظيفته أن يغيّر من طبائع الشخصيات فى المجتمع الذى يعيشه ، ولكن هل حقيقة أن الشخصيات التى صورتها شخصيات سلبية قاعدة عن الفعل ، أم هى شخصيات تحاول أن تفعل فتقمع . هذا هو السؤال .

*** فى أعمالك تعود إلى تاريخ مصر القديم ، أيضاً إلى تاريخها المعاصر . عم تبحث بالضبط ! .. سألت ، وأجاب الأستاذ بيقين :**

- أبحث عن الفهم ، لأننى لا أعتقد أن التاريخ شىء ميت كما قلت لك . إنه ممتد فينا حتى هذه اللحظة . أذكر أن أمى - رحمها اللّه - لم تكن تعد الشهور فتقول : فبراير ، مارس ، إبريل . لا ، كانت تقول : بشنس ، وكياك ... إلى آخره . تاريخنا هو التاريخ الفرعونى ، القبطى ، الإسلامى ، نحن محصلة هذه التجارب الكثيرة التى مرت على سكان هذا الجزء من الأرض . وأعتقد أن شخصية ايسيت لم تطلع ميتة عندما تقمصتها ضحى . ايسيت تجسدت كإنسانة تمشى فى الشوارع ؛ لذلك أعتقد أننا نمارس التاريخ كل يوم .

***الحماس الشعرى يطغى على الحافز الفنى فى أغلب أعمالك . ما ردك ، وكيف تفسر تناقض النقاد بين وصفهم بناء أعمالك الفنى بالكلاسيكية ، وعصرية الرؤية فى نفس الأعمال .**

– بمعنى ...

بمعنى أن الشاعرية هى هاجسك فى المقام الأول .

– المسألة ليس كذلك . إن لغتى دقيقة جداً ، وليس فيها أدنى درجة من التهويم أو اللاتحديد . وكل لفظ فيها يعنى شيئًا محدداً ، أما كلامك عن وجود الشاعرية أو غيرها فهذا شأن الناقد ، إنما أنا لا أتعمد قط كتابة لغة بها جماليات على حساب المعنى الذى تنقله هذه اللغة .

*** وماذا عن البناء الكلاسيكى والرؤية العصرية فى نفس الوقت ؟**

– هم أحرار .

*** هل معنى هذا أنك لا تعبأ بالنقاد ؟**

– أحترمهم وأستفيد – قدر استطاعتى – مما هو مُجْدٍ فى كلامهم .

*** لماذا تكثر الأحلام والكوابيس فى أعمالك ؟**

– كتب أحد النقاد عن ذلك ، ولا أعرف لهذه المسألة تفسيراً . ما أعرفه أننى لا أتعمد شيئًا . أنا أشعر فى لحظة ما – فى الكتابة – أن الحلم أقدر على التعبير عن باطن الشخصية من مجرد السرد .. سرد التفاصيل اليومية .

*** قلت : إن « أسطورة حب » فى مجموعة « ذهبت إلى شلال » تجربة فى اللغة . ما حدود التجريب عندك ، وهل هناك أعمال أخرى فرضت شكل كتابتها ومضمونها اللغة ؟**

– تجربة فى اللغة ، ليس بمعنى أننى تعمدت ذلك ، وأنت إذا قرأت القصة بإمعان لن تجد فيها كلمة واحدة غير محددة المعالم ، أو تشير إلى شىء خارج نطاق الحدث الذى تقدمه القصة ، ولكن تجربة فى اللغة بمعنى أن إيقاع الكلمات وإيقاع

الجمل كان يقودني في الكتابة ، أكثر مما كانت تقودني فكرة معينة أو تصور بنائي معين ، ولكن يبدو – والله أعلم – أن عملية الكتابة كل متكامل يمكن أن تدخله من أي مدخل . مدخل اللغة ، مدخل البناء ، مدخل الشخصية ... إلخ . وفي كل الأحوال ستصل إلى نفس النتيجة . أذكر أن أحد الطلاب سألني حين كنت أدرس في معهد السيناريو بأكاديمية الفنون .. هل الشخصية أسبق أو الحدث في بناء المسرحية . حيرني هذا السؤال ، وعدت إلى قراءات كثيرة في النقد المسرحي وتاريخ المسرح ، وجدت أن النقاد يختلفون بين مقدم للحدث على الشخصية والعكس في الدراما . هذا منذ ٢٥ سنة ، ربما تكون المذاهب قد تغيرت الآن ، لكني حين فكرت في الأمر، وجدت أن القضية كلها مزيفة إلى أبعد الحدود ، لأنه لا يوجد كاتب جاد يقف أمام ذلك الفصل المفتعل . الشخصية هي التي تخلق الحدث ، والحدث هو الذي يطور الشخصية ، ولا توجد في لحظة الإبداع أي أسبقية لعنصر على آخر من عناصر الكتابة ؛ لذلك أقول : إذا كان الكاتب يمارس الكتابة كما أمارسها أنا .. باعتبارها عملية بحث لا بوصفها تسجيلاً لقضايا أنتهي من حسمها ، فسيان إن دخل إليها من مدخل اللغة أو من مدخل البناء أو ... أو

كل المداخل تؤدي إلى نتيجة واحدة .

نعم ، سيصل الكاتب إلى نفس النتيجة . أنا بدأت هذه القصة بهذا الشكل ، وقد استهوتني تلك الإيقاعات الموسيقية ولكن – في نهاية الأمر – كتبت ما أريد .

*** « إن بوفاري تدفعني إلى الجنون » فلوبير . على ذكر بوفاري ، ما علاقتك بأبطال أعمالك ، هل أوصلك أحد منهم إلى هذه الدرجة ، ومن أحبهم إليك .**

– أحب الدكتور فريد في « أنا الملك جئت » ، لأنه مثلي يحاول أن يبحث عن إجابات لأسئلة يبدو أنه لا إجابة عليها .

أما علاقتي بأشخاص أعمالي ، فهذه مسألة في غاية الأهمية . هي علاقة التعاطف ومحاولة الفهم ، بمعنى أنني – وتلك من البديهيات – لا أسخر قط من أحد ، ولا أضع أحداً موضع الهجاء . إنما أحاول أن أفهم هذه الشخصية ، سواء كنت أقبل سلوكها أو لا أقبله . أحاول أن أتقمصها أثناء الكتابة .

*** هل حيرتك ضحى ؟**

– **قال وكحته المتقطعة لا تنتهى** : ضحى شخصية مركبة جداً ، وحقيقية إلى أبعد الحدود . أذكر أن الدكتور رفيق الصبان قال لى : أنا حزين لما آلت إليه ضحى ، قلت له : وأنا أيضاً .

*** حدثنى عن الشخصيات الروائية التى لا تنساها .**

– كثيرة جداًجداً . لا أنسى الخال قانيا (تشيكوف) . لقد حاول ولم يفلح ولم يكف عن المحاولة . إنه من أحب الشخصيات إلى قلبى . أحب أيضاً شخصية الموظف المرفود فى « خان الخليلى » ، للأسف لا أذكر الآن اسمه ، أظن اسمه أحمد عاكف الذى اعتزل الدنيا وأحبّ حبيبة أخوه . على أى الأحوال « خان الخليلى » من أحب الروايات إلى قلبى ، برغم أنها لم تحظ بشهرة كبيرة كبقية أعمال نجيب محفوظ ، أتصور أنها الرواية الوحيدة التى ترك قلمه فيها للتعبير بعيداً عن التحليل السياسى والاجتماعى ، وإنما جعل الشخصية هى الأساس . يعنى ترك نفسه للكتابة .

وهناك طبعاً « إليوشا » فى « الإخوة كرامازوف ». على فكرة .. فرغت لتوى من قراءة كتاب عن ديستويفسكى ، عرفت أنه كان ينوى كتابة جزء ثالث لهذه الرواية بطله « إليوشا » ، وكان سيمر بتحولات ومحن روحية كبيرة جداً فى هذا الجزء . ألمح ديستويفسكى بذلك للمحيطين به . هناك أيضاً هاملت وشخصيات أخرى كثيرة لا أنساها .

*** يقول أحد النقاد : « لا تتنفس الرواية بحرية إلاّ عندما تجد لها جذوراً فى المجتمع » .**

كيف ترى مستقبل الرواية فى هذا الزمن الإلكترونى ؟

– لست متشائماً ، طالما هناك إنسان سيظل الكتاب خير جليس فى الزمان ، مهما كثرت الوسائل الإلكترونية ، سيظل هناك عدد من الناس يحبون القراءة .

* * *

« ... وكتـــابة أخـــــرى »

*** « ١٠ مسرحيات مصرية » فى هذا الكتاب حاولت أن تعرض قصة مَجْد المسرح وانكساره فى الستينيات ، وأردت أن تتقصى السبب . فى تصورك . تلك الأيام بالأحرى ، ما قصة مجدها وانكسارها . باختصار وبعيداً عن المسرح ؟**

– المسرح هو الذى عبر عن الحكاية . كان هناك تياران : تيار يقول : نتقدم بتجربة العدالة الاجتماعية وتقبل مخاطرها وتضحياتها ، على أن تشمل العدالة الوطن بأكمله والمواطنين جميعًا ، وتيار يقول : دا كلام فارغ ، وأن العدل الاجتماعى لن يتحقق ، وأن الخلاص فردى ، وهناك الأشخاص المتازون والدهماء . وتعرف – بالطبع – أىّ التيارين انتصر . تجربة المسرح هى تجربة الوطن كله .

*** « أبناء رفاعة .. الثقافة والحرية » . أبناء رفاعة ، المثقفون الحقيقيون ، هل أوشكوا على الاندثار ، هل ثمة أمل فى أن يستكمل واحد منهم المسيرة .**

– لا أستطيع التنبؤ ، ولكنى أعلم علم اليقين ، أنه ما لم تستمر مسيرة هؤلاء العظام فإن الوطن فى خطر .

أثبت فى هذا الكتاب أن المشروع الوحيد الذى حقق شيئًا إيجابيًا للوطن هو مشروع هؤلاء المثقفين الكبار . كانت هناك مشاريع أخرى كالمشروع السلفى ، والمشروع الليبرالى ، والمشروع التتريكى والاستغرابى ... إلخ ، ولكن مشروع « أبناء رفاعة » هو الوحيد الذى نجح ؛ لأنه مشروع الوحدة الوطنية والاستقلال الوطنى والعدالة الاجتماعية ، حرية المرأة ، إنه مشروع رسمه المثقفون واحتضنه المجتمع وعبّر عنه السياسيون فى مراحل مختلفة . لغاية جمال عبد الناصر ، كان هناك مشروع للمثقفين .

ضرب المثقفين بعد ذلك وإقصاؤهم عن السلطة ، وعبد الناصر غير مبرأ من هذه التهمة رغم حبى له ، إقصاء المثقفين أدى إلى أن هذا المشروع الجميل .. وطن حر لمواطنين أحرار ، انكسر .

*** أستاذ بهاء .. كل إنسان يعتقد أنه لابد أن تكون الترجمة سهلة ، وأن فى وسعه أن يقوم بها إذا شاء ، وأنه أهل ، لأن ينقد هؤلاء الذين يمارسونها ، كما يقول ثيودور ساڤورى . فى ضوء تجربتك مع الترجمة ، كيف ترى هذا الرأى ؟**

- ليست لى خبرة ممتدة فى الترجمة الأدبية ، ولكن أعرف أنها عملية شديدة الصعوبة . وما لم يستطع المترجم أن يتقمص روح المبدع بحيث يأتى عمله قريبًا من الإبداع الأصلى لغة وروحًا ، فإن العمل لا يستحق الذكر . كم أشعر بألم عندما أقرأ ترجمات سيئة ، وهى الآن كثيرة ، سيئة فى فهم الأصل لا فى الترجمة فحسب .

*** الترجمة خيانة ، أم هى كتابة أخرى ؟**

- الترجمة ليست خيانة ، فى رأيى أنها كتابة أخرى .

*** ما الذى يمكن أن تلعبه الترجمة فى التفاهم بين الأمم والشعوب ؟**

- طبعًا تستطيع أن تلعب دوراً كبيراً جداً ، ولكن هل تلعب هذا الدور . نحن فهمنا الغرب من خلال ترجمة الأدب الأوروبى للغة العربية ، ولكن هل فهمنا الغرب من خلال ترجمة أدبنا ، لا أعتقد ، لأن الأدب المترجم إلى اللغات الأوروبية لا يصل للمهتمين بالوطن العربى .

*** هل تعتقد فى جدوى أن يكون للعالم لغة واحدة ؟**

- إطلاقًا ، إنها فكرة بلهاء ، والتجربة أثبتت ذلك ، لأن خصوصية كل شعب مكون أساسى من مكونات حضارته . أنت تفكر بلغتك .

*** فى رأيك ما المواصفات التى ينبغى توافرها فى المترجم ؟**

إتقان اللغتين والحساسية ؛ لذلك فإن الأدباء هم أفضل المترجمين .

*** ما الصعوبات التى يواجهها المترجم ؟**

- لا حصر لها .

أهمها ...

– إتقان اللغة الأصلية ، ثم محاولة التعبير عن المعانى البعيدة ، التى قد لا تتوافر فى ثقافة اللغة المنقول إليها .

*** هل الأصول الواحدة للغات تسهل عملية الترجمة ؟**

– طبعًا . مثلاً ، حين تترجم من الفرنسية إلى الإيطالية والعكس ، تكون الترجمة أسهل . هنا ليست اللغات فقط من أصل واحد ، إنما لها ثقافة واحدة .

*** هل من الممكن إيجاد نظرية عامة للترجمة ؟**

– بالفعل هناك مركز توحيد التعريب فى المغرب ، أظن فى طنجة ، وتحاول المجامع اللغوية أن تفعل ذلك ، أتمنى أن تنجح فى حل هذه الإشكالية ، لأننا نعيش الآن فى ظل تيارين متناقضين ، لا فى مجال اللغة فحسب ، وإنما فى كل حياتنا .. تيار ينادى بالتوحيد ، وهو الآن منكسر ، وتيار التجزئة وله الغلبة .. التجزئة الثقافية والسياسية والاقتصادية . آمل أن تكون غلبة مؤقته .

*** حتى الترجمة يمكن أن نفشل فى توحيدها .**

هذا هو الحاصل الآن .. تستطيع أن تشير إلى ترجمة لبنانية وترجمة مغربية ، وترجمة مصرية ، وتجد بينها فروقًا هائلة . الوحدة تحتاج أن يكون كلام الجامعة العربية كلامًا عمليًا ، أن يكون هناك تكامل اقتصادى ، تكامل ثقافى ، تكامل سياسى . إذا أمكن تحقيق ذلك ستكون هناك الوحدة التى تشير إليها .

*** أفاد الأدب العربى – قديمًا وحديثًا – من الآداب الأخرى . كيف ترى أثر الترجمة فى هذا الأدب ؟**

– غيرت من الأدب فى وضعه فى مرحلة الانحطاط ، كأدب مناسبات لا حياة فيه ، وفتحت أمامه آفاق التجربة الإنسانية بدون شك .

*** هل أخذت الترجمة ما تستحقه من عناية فى عالمنا العربى .**

– إطلاقًا لم تأخذ من اهتمامنا شيئًا . كان لدى طه حسين ذلك الوعى ، وقام هو بنفسه ، بترجمات جميلة للمسرح اليونانى والفرنسى ، وترجم لأندريه جيد ، وتبنى

مشروع الألف كتاب الأول ، وقدم فيها أعمالاً رائعة ، ولكن منذ مات طه حسين ، حتى المشروع القومى للترجمة الآن - فى المجلس الأعلى للثقافة - لم نهتم إطلاقاً بالترجمة .

*** ما أهم الأعمال المترجمة التى قرأتها ؟**

هناك ترجمات شكلت وجداننا ، أذكر ترجمة محمد عوض محمد لفاوست ، وحسن عثمان فى ترجمة دانتى ، وسامى الدروبى ، وترجمات الألف كتاب الأولى .

*** أبناء رفاعة ، كيف ترى دورهم فى الترجمة ؟**

- يكفى ما قلته لك عن طه حسين باعتباره أنبغ أبناء رفاعة ، لكن لا يمكن أن يقوم مشروع للترجمة ، دون أن تحتضنه مؤسسة كبيرة ، أو الدولة . تذكر أنه عندما تبنت هيئة الكتاب مشروع ترجمة أعمال ديستويفسكى قدّم لنا سامى الدروبى هذه الأعمال ، لابد أن تكون هناك مؤسسة لديها القدرة على التمويل ، وأدباء لديهم استعداد للتضحية . الترجمة نوع من الكرم ، لأنك تود أن تقدم للآخرين شيئًا أعجبك ، ما لم يتوفر التمويل والمترجم والقارئ ، لن تكون هناك حركة ترجمة جديرة باسم حركة .

*** فى عام ١٩٧٠م ترجمت مسرحية « فاصل غريب » لـ « يوچين أونيل » وبعد ربع قرن ، تحديداً فى عام ١٩٩٦م و ترجمت رواية « ساحر الصحراء » لـ « باولو كويلهو» . قل لى : ما المعايير التى تحكم عملية الترجمة عندك ؟**

- ذوقى الشخصى .

*** وماذا عن تجربتك مع هذين العملين ، ولم أنت مقل فى الترجمة أيضًا ؟**

- فى الحقيقة أنا شخص كسول جداً ، أعترف لك بذلك . بالنسبة للعمل الأول ترجمته ، لأننى كنت أريد أن أتزوج ، ومعظم الأشياء التى ترجمتها فى البرنامج الثانى وجريدة المساء وغيرها ، كنت أحتاج للمكافأة . بالنسبة لـ « ساحر الصحراء » ، أنا أحببت هذا العمل .. على فكرة ، و« فاصل غريب » أحببته أيضًا ، وأنا الذى اقترحته عندما طلب منى أن أترجم عملاً. ويصدق هذا على كل ما ترجمته . تشيكوف ، وليم سارويان ، دافنى دى موربيه ، وغيرهم . ترجمت للكتاب الذى أحببتهم فقط .

*** أكل عيش قائم على الحب .**

– طبعًا ، لا أستطيع أن أترجم شيئًا لا أحبه .

*** أثير أن بين « ساحر الصحراء » ، و« أنا الملك جئت » تشابهًا . ما تعليقك ؟**

– التشابه أن التجربتين رحلة فى الصحراء ، حتى فى وصف الصحراء ، وأنا الذى أثرت هذا الموضوع . المؤكد أن « كويلــهو » لـم يسـمع باسمى من قبل ، وأنا لم أكن قرأت له شيئًا قبل هذه الرواية التى كتبت بعد « أنا الملك جئت » بعشر سنوات .

*** إذن هو وقع الحافر على الحافر كما يقولون .**

– ليس أكثر .

*** حركة الترجمة فى الستينيات والآن ، ما شهادتك عليها ؟**

– كانت حركة خصبة وجميلة جداً ، وكانت – فى بيروت – أيضًا حركة نشطة بعضها جيد وكثير منها ليس كذلك ، ولكن الترجمات البيروتية لعبت دوراً هائلاً فى تكوين جيلى ، ما زلت أذكر العاصفة التى أحدثتها ترجمة كتاب « اللامنتمى » لكولن ويلسون . وكتاب « المثقفون » لسيمون دى بوڤوار ؛، وكتاب « طريق الحرية » لسارتر . هذه الترجمات أحدثت ضجة . الآن باستثناء المشروع القومى للترجمة ، كما قلت لك ، معظم الترجمات سيئ وركيك .

*** ترجمت أعمالك إلى العديد من اللغات ، ما رأيك فى الترجمة ؟**

لى عمل واحد هو الذى ترجم إلى لغات عديدة هو « خالتى صفية والدير » وبعض القصص . حاليًا تترجم رواية « الحب فى المنفى » .

*** هل أنت راضٍ عن مستوى الترجمة .**

– جداً .

* * *

« فــــى المنفــــى »

« بم التعلل لا أهـل ولا وطـن   ولا نـديم ولا كأس ولا سكن » . المتنبى .

« يا هذا ، الغريب .. من كله حرقة ، وبعضه فرقة ، وليله أسف ، ونهاره لهف ، وغداؤه حزن ، وعشاؤه شجن ، ورؤاه ظنن ، وجميعه فتن ، ومفرقه محن ، وسره علن ، وخوفه وطن .

الغريب من غربت شمس جماله واغترب عن حبيبه وعذاله . يا هذا أنت الغريب فى معناك » . أبو حيان التوحيدى .

أستاذ بهاء : أكثر من عشرين عاماً غريباً . كيف احتملت .

قال بأسى ، كأن سحابة قد غشيت وجهه : كيف احتملت .. بقدر كبير جداً من الفشل ، وقدر قليل من النجاح . على المستوى الشخصى واجهت محناً كثيرة . وعلى المستوى الأسرى يكفى ، وهذا جرح لن يندمل قط ، أننى فقدت أمى وأنا فى الغربة ، ولكننى احتملت .

* لم يكن خروجك من مصر اغتراباً ، أنت حريص على ألا تسميه كذلك .. بمعنى .

– بمعنى أننى لم أعش لحظة واحدة على طريقة أدباء المهاجر ، أنا لم أنغمس قط فى حياة .. يصمت قليلاً قبل أن يكمل : فى حياة الغرب ، وربما يكون هذا عيباً . لو كنت انغمست انغماساً كاملاً – بالتأكيد – كنت سأعرف تجارب أكثر مما عرفت . كنت على هامش المجتمع الذى عشت فيه . هـذه هـى الخسـارة ، ولكن المكسب الأكبر طبعاً أننى لم أضع ، أو أفقد نفسى .

أنا شاهدت مواهب قد تكون أكبر منى بكثير ، بددها ذلك الاغتراب الباطنى الذى عاشه هؤلاء الأشخاص فى الغرب . شاهدت قدراً هائلاً من المواهب ضاع . كثير منهم انتقلوا بوجدانهم للمجتمع الجديد متعللين بمبرر ساذج هو « فقدان الجذور » ، مع أنه حقيقى ، فالإنسان – كما يقول أحد أشخاص « حديقة غير عادية » – مثل النبات لا يجود أو يصلح إلاّ فى تربته .

*** تجربة الغربة ما تقييمك لها ؟**

- أنا قلت لك ، على المستوى الشخصي كانت خسائرى فادحة وهزائمى ، ولكن على مستوى الكتابة استفدت كثيراً ، لأنه على ما يبدو يحتاج الواحد منا إلى درجة من البعد ، بعيداً عن الانغماس فى التجارب اليومية ، لكى ترى الصورة بشكل أوضح ، أو على الأقل هذه تجربتى .

*** لو عاد بك العمر ، هل كنت تختار نفس التجربة ؟**

- إطلاقاً .

*** كانت الكتابة فى المنفى - كما قلت - بديلاً للموت ، بديلاً للانتحار . كيف ؟**

- شوف أنا لا أكتب اعترافات ذاتية ، ولكن الجو الموجود فى « بالأمس حلمت بك » جو حقيقى ، هذه الوحدة والإحساس بأنك نبت فى غير تربته ، جو قاتل فعلاً ، لهذا كانت الكتابة - بشكل حقيقى - بديلاً للموت المعنوى الذى قتل عشرات المواهب كما قلت لك . أيضاً الموت المادى الذى يمكن أن تدفعك إليه الكآبة .

*** كان المنفى مصدر كتابتك ، أعنى سر توهجك ، ولكن الوضع تغير بعد العودة ، ما تعقيبك .**

- هذا اتهام لا أدفعه ولا أنفيه ولا أؤيده ، أنا حتى فى المنفى ، كنت مقلاً جداً .

*** توفيق الحكيم ، يحيى حقّى ، سهيل إدريس ، الطيب صالح ، بهاء طاهر . ما الفرق بين غرب هؤلاء ؟**

- أنا أقدّر توفيق الحكيم ، والمؤكد أننى فتنت بيوميات نائب فى الأرياف وعودة الروح وأهل الكهف ، ولكن دعنى أعترف بقدر كبير من الخجل أننى لست مفتوناً به . أما غربه فهو مقارنة خفيفة بين مادية الغرب وروحانية الشرق ، وهى مقارنة بها قدر كبير من التبسيط . لا الغرب مادى صرف ولا الشرق روحانى صرف . المسألة أعقد من ذلك بكثير جداً .

أما يحيى حقّى ففى رؤيته للغرب قدر من العمق يفوق رؤية توفيق الحكيم . المسألة هنا ليست المعادلة بين الروحية والمادية ، ولا إعلاء طرف على آخر ، إنما هى محاولة التركيب ، محاولة إيجاد مركب موضوعى لهذين العالمين المتنافرين .. الشرق والغرب . لكن مع احترامى ليحيى حقى وعشقى له ، رؤية طه حسين فى « أديب » أعمق ؛ لأنه يرى العالمين ويرى الفرق بينهما ليتكلم عنه .. مثلاً إذا كانت الحرية الفردية موجودة فى الغرب ، فلماذا لا توجد فى الشرق ، أو يرى روح التضامن الإنسانى والبشرى المتحققة فى الشرق .. وهكذا ، ويرى فى نفس الوقت عيوب المجتمعين . وأنا أزعم أن طه حسين - فى أديب - لا يحاول التوفيق بين العالمين ، بل يرفضهما معًا ، ويقول : إن « اليوتوبيا » هى مركب من هذين العالمين ، مركب يضيف إليهما شيئًا ، لا يأخذ من هنا شيئًا ويضيفه إلى هناك أو العكس . أقصد أن مدينة طه حسين الفاضلة ليست انتقائية ، هو يرفض أشياء فى جذور ثقافة العالمين ، ولهذا أرى أن « أديب » هى أعمق رؤية فى هذا الجيل لمشكلة العلاقة بين الشرق والغرب .

وسهيل إدريس ؟

- فى الحقيقة ، وليس هذا تهربًا من الإجابة ، أنا قرأت « الحى اللاتينى » زمان ، فور صدورها ، وليس لدىّ الآن تصور أو أتذكر مضمونها حتى أجيب على سؤالك .

والطيب صالح .

- رؤيته شديدة الغضب ، شديدة الرفض لذلك الغرب الاستعمارى الذى حطم مصطفى السعيد ، وحاول مصطفى أن يحطمه . وفى رأيى أن « موسم الهجرة للشمال » لا يمكن فهمها إلاّ فى إطار الظروف التاريخية التى كتبت فيها . ظروف الصحوة الأفريقية ضد الغرب ، ولا تكون منطقية إلاّ فى إطار هذا الظرف .

وماذا عنك ؟

- غيرى أقدر على الحكم منى ، ولكن هناك كاتبة نرويجية اسمها « جانفر ماجد » ، كتبت دراسة عن صورة الغرب فى قصصى . رأت أن رؤيتى مختلفة تمامًا عمن سبقونى فى الكتابة عن الغرب . بمعنى أننى أحاول أن أفهم .. أى لا أصدر

أحكامًا أخلاقية لا عن الشرق ولا عن الغرب ، وإنما أحاول من منظور إنسان شرقى ومصرى وعربى أن أفهم العالمين ؛ ولذلك لن تجد - كما تقول الكاتبة - فى أعمالى إدانة لأى منهما .

وفى رأيى ، أقصى ما يمكن للأدب أن يساعدنا عليه هو الفهم والاقتراب .

*** لماذا يكرهنا الغرب ؟**

- لأنه مستعمر ، وما زال يستعمرنا ، وأنت لا تستطيع أن تستغل إنسانًا وتعتبره - فى نفس الوقت - ندًا لك . لابد أن تجد أسبابًا تجعل هذا الإنسان أدنى منك . هذا هو الجوهر ، بعد ذلك هنالك التاريخ والعداء والحروب القديمة والجديدة .

*** وهل ديمقراطية الغرب عادلة ؟**

- ليست عادلة على الإطلاق . أنا أريد أن أعرف ، هل الديمقراطية الإنجليزية كانت عادلة وهى تستعمر الهند ومصر وغيرها من البلدان . حتى هناك فى بلاد الإنجليز كانت ديمقراطية للصفوة . اقرأ شارلز ديكنز ، لترى لنرى كيف كان يعيش الغلابة . كانوا يعيشون كأبناء مصر أو الهند المستعمرة .

الديمقراطية لا تكون حقيقية إلاّ إذا كانت شاملة ، شاملة لأبناء الوطن وللتعامل مع العالم .

*** أسلوب حياة .**

- بالضبط . أما الديمقراطية التى تواصل - بشكل أو بآخر - الانحياز للصفوة ضد العبيد ، أنا لا أعترف بها ؛ لأن الديمقراطية الحقة أن يكون الإنسان عادلاً ، وديمقراطية الغرب ليست عادلة لا نحو النساء ولا نحو الضعفاء أو الفقراء . ليست عادلة . وأعظم من نقد الديمقراطية الغربية ، هو ديستويفسكى فى كتابه « مذكرات شتاء عن رحلة صيف » ، ترجمه سامى الدروبى ، وأنا لخصته فى « أبناء رفاعة » .

*** ما الفرق بين المنافى .. باريس ، داكار ، روما ، سويسرا ... إلخ ؟**

– أنا لم أعش فى داكار . لكن البلاد التى عشت فيها فترات يمكن التحدث عنها هى سويسرا ، إيطاليا ، فرنسا ، وهى كلها منفى واحد .

*** لو أردت أن تلخص المنفى فى كلمة واحدة ، ماذا تقول ؟**

– لا أستطيع أن أرد على لغز ، لأن المنفى لا يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة .

*** وأنت هناك ، إيه أكتر حاجة كانت بتوحشك ؟**

– كل شىء .

*** وما الأغانى التى كنت تسمعها ؟**

أم كلثوم ، وفيروز ، وعبد الوهاب القديم ، وفايزة أحمد ، و« الليلة الكبيرة » طبعًا ، وأغانى سيد درويش ، بالذات أغنية « أهو ده اللى صار .. ما لكش حق تلوم علىّ » اللى سمعها صنع الله إبراهيم وعيط فى « بيروت .. بيروت » . أنا كنت مثله .

*** فى الشارع ، فى الوظيفة ، فى سائر مناحى الحياة ، هل كنت تقارن بيننا وبينهم ؟**

– بطريقة عمدية لا ، لم يكن هناك وقت . أنا كنت أعمل عملاً قاتلاً ، كنت أشتغل من الثامنة صباحًا إلى الخامسة والنصف مساءً ، بشكل متواصل ، فلم يكن يتاح لى وقت للتنفس . علشان كده قلت لك ، هذا النوع من العمل ضيع مواهب كثيرة . أنا رأيت روائيين وشعراء كثيرين ماتوا تحت ضغط العمل . وكان هذا إنذارًا لى . المهم كنت أرجع من العمل شبه ميت ، ورغم ذلك كنت أرتاح قليلاً ثم أكتب بالليل .

*** ألم يكن لك أى نشاط أدبى هناك ؟**

– كان هناك نادى الكتاب العربى فى الأمم المتحدة ، وكانت لنا أنشطة ، أبرزها أننى بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، كتبت دراسة أعتز بها عن « مصر القديمة عند نجيب محفوظ » ، وكانت لنا أنشطة أخرى لكن قليلة بسبب ظروف العمل . المفارقة أن معظم الذين كانوا يحضرون هذه الأنشطة من الأجانب العاملين فى الأمم المتحدة ، لا من العرب وهم بالآلاف فى جنيف !!

*** كنت سأسألك : ما الذى يربط العرب فى المنفى ؟**

– العرب فى المنفى هم صورة مكررة للعرب فى الداخل .. نفس حالة التشرذم والضياع التى تعيشها فى الوطن ، هى هى فى المنفى . لا اختلاف بين الحالتين . الغربة لم توحدهم ، هناك جاليات بينها تضامن شديد جداً ، اليونانيين ، الإيطاليين ، ولكن العرب – مع الأسف الشديد – أكثر فرقة من الداخل ، لا حوار بينهم من أى نوع .

*** والمنفى ماذا يترك فى الروح ؟**

– جرحاً غائراً .

*** وأنت هناك ، ألم تفقد مكانك فى العالم .**

– حين كنت فى جنيف جاءتنى دعوة من « بودابست » لحضور أحد المؤتمرات . كان معى : صبرى حافظ ، ومحمد برادة ، وإدوار الخراط ، وإميل حبيبى ، وأدونيس ، ومجموعة من الأصدقاء . ساعتها انتابنى شعور غريب جداً ، من الصعب أن أصفه لك . أن هؤلاء مجموعة واحدة وأنا الغريب بينهم . برغم أن منهم من يعيش فى باريس أو لندن ! لكن جاءنى هذا الإحساس .. أنى منتزع من مكانى ، وأنى لا أنتمى لأى مكان .

أنا أتذكر جيداً هذا الشعور ، لا أدرى هل يجيب ذلك عن سؤالك أو لا ؟

*** بأى لغة كنت تفكر ؟**

– بالعربى طبعاً .

*** ألم تكتب شيئاً بلغة أخرى .**

– لا .

*** ماذا عن تجربة زواجك بأجنبية .**

– لم يكن هناك تخطيط لذلك ، أنا تزوجت بعد طلاقى من زوجتى الأولى بست سنوات ، لم تكن لدى نية الزواج مرة أخرى .

* زهداً في الفكرة .

– زهداً في الفكرة ، وكنت قد تعودت على الوحدة . تعودت ألا يشاركني أحد في حياتي ، ولكن يبدو أنك لا تستطيع أن تنفذ قراراتك بنسبة ١٠٠٪ ، المهم حدث أنني حين التقيت بزوجتي الحالية ، وجدت أن أشياء كثيرة تجمعنا ، ولا سيما أنها من أصل بلغاري ، وفي البلغار روح شرقية لا تقاوم ، وكانوا – مثلنا – تحت حكم الأتراك فترة طويلة . فاستئذنت أولادي وتزوجت .

* ألم ترغب في الإنجاب مرة أخرى ؟

– لا .

* هل ضايقك أنك لم تنجب ولداً ؟

– بالعكس أنا أحب البنات ، ولو كان في مقدوري الآن أن أنجب ، لتمنيت أن أنجب بنتاً ثالثة . لست صعيدياً في هذه الجزئية . أنا صعيدي في أشياء أخرى .

* فيم تختلف المرأة الغربية ؟

– لا يوجد شيء اسمه المرأة الغربية على إطلاقها ولا المرأة الشرقية على إطلاقها . السمات النمطية للمرأة سمات كاذبة . قد تجد امرأة مصرية أكثر تحرراً من أي امرأة غربية والعكس صحيح . هناك سمات اجتماعية ، بمعنى أن المجتمع يعطي للمرأة أوضاعاً معينة في الشرق ، والمجتمع يعطيها أوضاعاً معينة في الغرب . لكن المرأة هي المرأة في أي مجتمع .

* لماذا قررت أن تعود ؟

– كان من الممكن أن أستمر ، عرضوا عليَّ في الأمم المتحدة ذلك ، ولكني انتظرت حتى أستحق المعاش ، بعد ذلك قدمت استقالتي وعدت ، لأن العودة كانت حلمي طول الوقت .. من أول يوم سافرت فيه . أنا أتذكر أنه في عام ١٩٨٣م ، ولم يكن قد مرَّ على سفري بشكل دائم سوى عامين ، عرض عليَّ الأستاذ فهمي عمر ، وكان رئيس الإذاعة وقتها ، أن أرجع مرة أخرىٰ للإذاعة ، ولم تكن هناك موانع أمنية . وأنا رحبت بالرجوع وفرحت به ، لكنه تراجع عن هذه الفكرة تماماً ، ولما سألته عن السبب ، قال لي : لن أستطيع أن أخبرك بشيء حتى أخرج إلى المعاش . بعد ذلك قابلته في معرض الكتاب وذكَّرته بما وعد ، فضحك وقال لي : هناك ناس واصلين اعترضوا على رجوعك . تذكرت لحظتها « الناس الواصلين » الذين كانوا السبب في خروجي من الإذاعة ومنهم ، بل أولهم ، يوسف السباعي !!

* هل أنت سعيد بالعودة ؟

– هذا هو الوضع الطبيعي ، دعك من مسألة السعادة هذه . يمكن لو كنت سافرت في سن صغيرة ما كنت رجعت ، ولكنى سافرت وأنا كبير .. بعد أن تكونت وارتبطت بالأرض .

بالعكس أنا كنت أدين من يسافر ، كنت أقول ، وهذا صحيح ، : إن هناك خطة لتفريغ مصر من عقلها ، حتى وجدت نفسي في موقف الاختيار ، في الموقف الصعب .. إما أن أسافر أو أجوع ، وسافرت .

* * *

« عــن الــوطــن »

*** كم مرة زرت مصر وأنت فى المنفى ؟**

– مرات كثيرة جداً .

« ماذا حدث للمصريين » ما بين ١٩٧٥م ، تاريخ خروجك ، و ١٩٩٥م ، عندما عدت نهائيًا .. وكيف ترى الحال الآن ؟

– لأننى أنتمى لشريحة ما فى الطبقة الوسطى ، أول ما لفت نظرى هو انتهاء الطبقة الوسطى بالمفهوم الذى تركتُها عليه . يعنى كانت هذه الطبقة طبقة الموظفين والمتعلمين ، وهم جمهور الكتاب والمسرح الجاد . أيضًا جمهور السياسة الجادة . هذه الطبقة بهذا المفهوم لم يعد لها وجود .

ولأننى أحد أبنائها أبحث الآن عنها ولا أجدها . الرواية التى أكتبها حاليًا(*) تحاول أن تقول : ماذا حدث . خذ مثالاً على ما أقوله لك من حركات التطرف الدينى . أبناؤها وكوادرها من الطبقة الوسطى . ما يقوله هؤلاء ومنطقهم الإرهابى لم يكن – فى الستينيات – غير مقبول من أبناء نفس الطبقة فقط ، وإنما لو كنت تقول هذا الكلام فى الجامعة ، أو فى أى تجمع آخر كانت الناس تضحك عليك . واقرن ذلك بأنواع الجرائم التى تحدث الآن . جرائم الستينيات كانت القبض على موظف منحرف أو مزارع اختلف مع مزارع آخر علشان الرى . حاليًا نقرأ عن جرائم لا يصدقها عقل إنسان . اقرأ صفحة الحوادث فى الجرائد سيصيبك الهلع . زوجة تقتل زوجها ، ابن يقتل أمه ! ماذا يحدث ، لا أعرف ، ولكنى ما زلت أندهش ولله الحمد !

هذا عن المدينة ، أما القرية فلا أعرف ماذا جرى فيها ، ولكن أحد أقربائى قال لى : إن القرية التى كتبت عنها فى « خالتى صفية والدير » اندثرت . هناك ريف جديد تمامًا ، لا أستطيع أن أصدر حكمًا عليه .. **توقف لحظات عن الكلام ، واستكمل بوجع ،**

(*) نقطة النور .

وبسخرية أيضًا .. التغير فادح يا أستاذ بهاء ، ويحتاج منا لمجهود كبير لفهم ما حصل ولماذا !

*** لا التعليم يعلّم ، ولا الإعلام ينير ، ولا الثقافة تصل إلى مستحقيها . هذا ما قلته فى أحد حواراتك . ما الذى أوصلنا إلى ذلك ، وكيف الخروج من هذا النفق .**

– أيضًا ، لن أجيبك بشكل مباشر ، ولكنى أسمع عن شىء اسمه « المجالس القومية المتخصصة » ، واقرأ عن لجان عليا لكل شىء وعندنا جمعيات أهلية وخبراء فى كل تخصص .. دعك من هذا كله ، سأذكر لك شيئًا .. فى الأربعينيات كانت مجلة الرسالة توزع عشرات الآلاف من النسخ فى مجتمع عدد سكانه ١٧ مليون ، حاليًا نحن ٦٥ مليون أو أكثر ، وليست هناك مجلة أدبية تطمح أن تطبع – لا أن توزع – نصف ما كانت تطبعه الرسالة . لا أريد أن أتحسر على ما فات ، لكنى أريد أن أقول : إن المجتمع كان جادًا ، كان عندما يطلع كتاب مثل « مستقبل الثقافة فى مصر » يصبح موضع حوار اجتماعى ، ويحدث تأثيرًا خطيرًا جدًا فى المجتمع . أنا واثق أن لدينا الآن من التربويين ورجال التعليم ، من لديهم القدرة على كتابة سلسلة من الكتب تقدم فلسفة لإصلاح التعليم ، ولكن المشكلة أنه بينما كان كتاب طه حسين موضع اهتمام عام من المجتمع ، مثل هذه الأبحاث والندوات والمؤتمرات الآن تنزلق على سطح الوعى الاجتماعى .

ما الذى أدى إلى أن يفقد مجتمعنا اهتمامه بالقضايا الجادة ، وأن يغرق .. **سكت متحيرًا ، وغاضبًا ، ثم أردف** .. ماذا أقول ، يغرق فى الترفيه والاهتمام بكل ما هو تافه . ماذا أقول .. الاهتمام بمباراة واحدة من مباريات كأس العالم فى التليفزيون وفى الصحف أضعاف أضعاف الاهتمام الذى تستغرقه الثقافة على مدار سنة فى نفس الأماكن . ماذا حدث ؟

ثم قال بحدة .. دعنى أسأل بشكل أصرح : هل هذه الحكاية متعمدة ؟ هل يتعمد من يضع السياسات التعليمية والإعلامية والثقافية إلهاء الناس وإبعادهم عن الاهتمام بمشاكلهم الحقيقية ، كى يغرقوا فى مستنقع التفاهة . قد يكون هذا صحيحًا ، لأن

العالم كله وقع فى نفس المستنقع فى فترة الحرب الباردة ، حين كان هناك مسعى لصرف أنظار الناس عن الاهتمام بقضاياها الحقيقية وإلهائهم باللعب لا بالمسرح(*) . هل فترة الحرب الباردة التى استبدلت ثقافة المسرح بثقافة اللعب هى المسئولة عن الوضع الراهن الذى نحياه .

نحن نلهى الناس كى لا يهتموا بالتشكيلات النقابية أو الأنشطة السياسية والمهنية ، ثم نسينا أنفسنا فى التيار ، حتى بعد انتهاء مبررها . هل كنا غافلين عن أننا إذا نحن خلقنا فى المجتمع ثقافة اللعب هذه ، فسوف تنتهى اللعبة بتحويل الناس إلى مجرد أطفال يلعبون ! أريد أن أقول : إن المجتمع بوجه عام ولأسباب عديدة بعضها متعمد ، وبعضها نتيجة طبيعية لتردى الأوضاع الاقتصادية ، وبعضها لظروف ديموغرافية كالانفجار السكانى والعشوائيات السكنية والتعليمية ، لهذه الأسباب مجتمعة أصبح مكان العقل ، وهو الوسيلة الوحيدة للنهوض بأى مجتمع ، على هامش اللعب . أقسم لك لو ظهر بيننا مفكر هو الخلاصة المركزة للطهطاوى ، وطه حسين ، وقاسم أمين ، ومحمد عبده ، وديستويفسكى ، وشكسبير ، أقصى ما يمكن أن يحظى به هو نشر مقال له فى صفحة الرأى بإحدى الجرائد ! لن يتحول الفكر إلى وسيلة للعمل أبداً .

*** وكيف نخرج من هذا النفق ؟**

– إسأل الحكماء ، أنا لست حكيمًا ، لكن نقطة البدء فى تصورى أن يعود للكلمة وللعقل مكانتهما فى المجتمع . أن يعود الحوار الفكرى الخصب الذى يؤدى إلى فعل فى هذا المجتمع . نحن الآن نعيش بلا فكر على الإطلاق .. **على الإطلاق .. كررها مرتين بعصبية ، قلت : بلا رأس ، فقال يائسًا** :

بلا رأس ، وأنا أزعم – دون أدنى مبالغة – أنه لا يوجد تصور فكرى لا عند الحزب الحاكم ، ولا عند أحزاب المعارضة ولا عند أحد .

(*) يقصد باللعب الحضارة الرومانية ، أما المسرح فدلالة على الحضارة اليونانية .

*** ١٩٦٧م ، ١٩٧٣م ، لحظتان فاصلتان في تاريخ الوطن . كيف ترى اللحظتين .**

قال وقد تراجع برأسه قليلاً ، ورفع حاجبين خفيفين خلف نظارته الكبيرة :
سؤال مفاجئ . طبعًا «٦٧» زلزال ما زلنا نعيش توابعه حتى الآن . المسألة ليست مسألة هزيمة عسكرية ، ولو أن ما أوجعنا غاية الوجع في حينها ، هو الهزيمة العسكرية . إنما هذه اللحظة كشفت بالفعل أن هناك خللاً هيكليًا في مجتمعنا . وأذكر أن أحمد بهاء الدين كان أول من دعا إلى المراجعة . قال : إنها هزيمة علمية . إذن لابد أن نأخذ بأسباب العلم في المجتمع . السادات ميع بعد ذلك هذا الطرح حين أطلق شعاره « دولة العلم والإيمان » ، وكأن هناك تعارضًا بينهما . في حين أن العلم هو السعى الحثيث إلى فهم ما أوجد اللّه من حق وخير وجمال في الكون . هذه هي العبادة الحقيقية ، أن تعبد اللّه باكتشاف ما أبدع . إنما السادات قال : « دولة العلم والإيمان » بمعنى الدروشة .

«٦٧» كانت هزيمة حضارة ، وكنا نستطيع الخروج منها ، لو أننا أخذنا فعلاً بطرح مثل طرح أحمد بهاء الدين وغيره من الكتاب في ذلك الوقت ، ولكننا لم نفعل . «٧٣» ، رغم أنها نصر عسكرى محدود، إلاّ أنها شفت جرح الهزيمة العسكرية ، لكنها لم تطور الدعوة التي ظهرت في أعقاب «٦٧» إلى الإصلاح الحضارى . هي شفت جرح الهزيمة ولكنها لم تشف العلل التي أدت للهزيمة ، مع تقديرى الكامل بالطبع لبطولة أبناء قواتنا المسلحة . ولكن الإحساس بأن هناك شيئًا ناقصًا ، أدى إلى أن الإحساس الفاجع بهزيمة «٦٧» ما زال متجذراً في حياتنا .. الثقافية ، والاجتماعية ، بينما الفرح الصادق بمعركة «٧٣» ، لم يحدث نفس الأثر الثقافي الذي أحدثته النكسة . ليس معنى هذا أننا نحب الندب أو أننا ننظر إلى النصف الفارغ من الكوب . إنما معناه أننا لم نستثمر هذا النصر العسكرى لإحداث تغيير اجتماعي شامل .

*** وما أثر النكسة والنصر على جيلك ؟**

– تأثير النكسة ما زال موجوداً في الكتابة كما قلت لك .

الأثر المباشر .

– هو هذا .

*** هل لا يزال الجيل الضائع ضائعًا ؟**

– أظن أن المجتمع كله فى حالة ضياع الآن . بلاش كلمة ضياع ، لأنها مش لطيفة . مجتمعنا يبحث عن نفسه .

*** ماذا ينقص المصريين ؟**

– أن يكون لنا مشروع . سبب إعجابى بعبد الناصر هو هذه الفكرة . مشروع يمكنك أن تنقده أو تهاجمه ، أو .. ، ولكن منذ انتهت التجربة الناصرية لم يعد هناك مشروع ، ولم نعد نلتف حول شىء نقتنع به ونحاول أن ننفذه .

*** الاشتراكية ، القومية ، الوحدة العربية ، ماذا تثير فيك هذه الكلمات الآن ؟**

– انتهت – طبعًا – أوهام الشباب . الآن أحلم بدرجة من العدالة الاجتماعية بدلاً من أن تقول اشتراكية علمية أو غير علمية . درجة من العدالة التى سعت الاشتراكية إلى تحقيقها . أحلم بدرجة من التوحد حول أهداف ومبادئ معينة فى الوطن العربى . ليست بالضرورة أن تكون وحدة سياسية أو خلافه ، إنما تكامل اقتصادى مثلاً .

توقف عن الكلام ، ثم علا صوته فجأة وتوترت نبراته العميقة وهو يقول :

أعداؤنا فى منتهى الوحدة يا أخى ، لماذا نحن متفرقون ، أعداؤنا متوحدون ويعاملوننا كوحدة . يقولون العرب ، فكيف نواجه هذا العداء المتكتل ضد أمتنا ونحن فى هذه الحالة من الشرذمة والتفرق . هذا ما تعنيه لى الوحدة ، والقومية . الأهم من هذا كله أن فلسطين كانت وما زالت تعنى لجيلى التجسيد والرمز لهذه المعركة الحضارية المستمرة التى تخوضها أمتنا بقدر كبير من العجز .

*** البعض يرى أن مصر بمعاهدة السلام مع إسرئيل قد فتحت الطريق للحلول الفردية ، ومن ثمّ فرقة الصف العربى ، بعد حرب أكتوبر التى اجتمع فيها العرب لأول مرة . ما تعقيبك ؟**

– جزء من هذا الاتهام صحيح والجزء الأكبر منه التماس للأعذار ، بمعنى أنه لو أن العرب كانوا رافضين حقيقة للحل الفردى الذى اختاره السادات ، كان عليهم أن

يسعوا منذ ذلك الحين لبلورة فكرة حل جماعي ما ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل أكاد أقول : إنهم كانوا سعداء حين اختار السادات هذا الحل ، لأنه رفع عنهم الحرج ، رفع عنهم الإحساس بأن عليهم أن يفعلوا شيئًا .

هل منعت مصر المقاومة فى جنوب لبنان من إخراج إسرائيل بقوة السلاح ! أنا ، ولأننى عشت فى الخارج عقب اتفاقيات كامب ديفيد ، على رفضى الكامل لها فى وقتها ، رأيت أن خصوم هذه الاتفاقيات لا يقلون انتهازية ، ولا بعدًا عن الروح القومية الحقيقية ممن وقعوها .

*** وما رأيك فى الاتفاقية ، هل كانت ضرورة ؟**

– الآن أصبحت فى ذمة التاريخ ، وفى التاريخ لا تستطيع أن تصدر أحكامًا قيمية . ولنكن صرحاء ، المعارضة لاتفاقيات كامب ديفيد فى مصر لم تكن معارضة حقيقية . الناس وُعدوا بأن السلام سوف يفتح الباب للرخاء والتنمية وإنهاء الحروب ، فظلت المعارضة لها مقصورة على مجموعات من المثقفين واليساريين ، لكن السادات لم يوقع وحده كامب ديفيد . وقعها معه المجتمع كله فى ذلك الحين . باستثناء الأقلية المثقفة التى كانت تنظر للآثار والمساوئ بعيدة المدى ، ولم تتأخر كثيرًا – يقصد المساوئ – اجتياح لبنان واستفراد إسرائيل بالدول العربية نتيجة غياب مصر التى كانت – على الأقل – تردع إسرائيل عن العربدة .

*** فى أغسطس ١٩٩٠م ، وأنت فى المنفى ، وقعت مغامرة كانت لها آثار فادحة ما زلنا نعانى منها ، وستظل إلى أمد بعيد . كيف استقبلت ما حدث ، وما تقييمك له ؟ المقدمات ، النتائج ، والتداعيات .**

إف .. قالها بعنف ، فخرجت الفاء منفجرة مشوشة ، وكانت كثيرة .. [٣ فـ . فـ . فـ] ما لفت نظرى وأنا أتطلع إلى وجهه . نفسه الطويل المكتوم وهو يخرج حادًا فيرج بطنه وصدره ورأسه . وكان يطوّح بيديه فى الهواء كأنه يطارد شبحًا ، ثم سحب نفسًا من سيجارة ربما تكون السيجارة العاشرة فى مدى ساعة ، ولم يسترسل ، قال :

هذا هو الزلزال الثانى بعد «٦٧» . زلزال حقيقى . **وتوقف فسألت :**

كيف استقبلته ؟

– بنفس المشاعر الدامية التى استقبلت بها الزلزال الأول ، وما زلت حتى الآن لا أعرف كيف نسكت شعوبًا وساسة ومثقفين عن تلك المجزرة التى تحدث يوميًا لشعب عظيم كالشعب العراقى .

*** ألم تكتب شيئًا عن حرب الخليج أيامها ؟**

– ولا أظن أننى أستطيع .

*** وما أفدح الخسائر ؟**

– أنا لا أدرى ، هل ما حدث للعراق بسبب تبلد الشعور القومى العربى ، أم تبلد هذا الشعور نتيجة لما حدث فى العراق ! ما أريد أن أقوله لك : إن مسألة الشعور القومى ليست مسألة أيديولوچية . إنها حياة أو موت . كيف يغيب عن وعينا وعن فعلنا إدراك أن تحطيم الشعب العراقى ، مقدمة لتحطيم بقية الشعوب العربية على مهل وافتراسها واحدة بعد الأخرى . كيف يغيب هذا عنا !

*** ألا تلاحظ شيئًا ؟**

– نعم .

*** إن الكويت لم يرد لها ذكر فى كلامك .**

فى الحقيقة ، أنا كتبت كلمة عاطفية ساذجة وقت الأزمة ، لم يعبرها أحد ، اقترحت فيها أن ينسحب صدام من الكويت فورًا ، وأن يقوم بين العراق والكويت اتحاد كونفدرالى ، تجنبًا للحرب . أنا أدرك الآن أن هذا الحل رومانسى خايب لا يمكن تحقيقه .

*** ولماذا لم تطالب بانسحاب العراق من الكويت ، على أن تبقى الكويت دولة لها سيادتها بعيدًا عن أى اتحاد .**

– أنا قلت ذلك ، لأن الانسحاب كان معناه إقرارًا بالهزيمة ، والعراق لم يكن مستعدًا لشىء من هذا القبيل فى ذلك الوقت . ليس حفاظًا على ماء الوجه ، وإنما أن تخرج من المحنة بشىء إيجابى .. أولاً يكون حلاً عربيًا ، ثانيًا يحقق للكويت مطلبها

وهو أن تظل دولة مستقلة ، ويحفظ لنا العراق ، قوة عظيمة محسوبة للرصيد العربى ، ولكنها أصبحت مخصومة منه .

*** إذن أنت لا تبرر الغزو .**

– إطلاقًا طبعًا ، ولا أوافق عليه ولا أقبله ، ولكننا مع الأسف شاركنا فى هزيمة العراق المُرّة .

*** فى تصورك ، ما أهم القضايا الأولى بالمناقشة فى عالمنا العربى الآن ؟**

– التكامل الاقتصادى والسياسى طبعًا ، لا يوجد شىء أكثر حيوية من ذلك . ارم جانبًا أى كلام عن وحدة الهدف والصف والمصير ، وفكر فيما قلته لك .. إن أعداءك يتعاملون معك ككيان واحد ، فكيف تواجههم متفرقًا ! لابد من السعى أولاً إلى التوحيد الثقافى . ثم ماذا تعمل الجامعة العربية هذه ، ما لم يكن من أول مهامها أن تدعو إلى وحدة التعليم والثقافة فى الوطن العربى . لا أعرف كيف يكون لدينا هذا العدد الهائل من المجامع اللغوية ولا يجمعها مجمع عربى واحد . ولمصلحة من عزلة الكتاب العربى داخل حدود كل دولة عربية ، لا يخرج منها إلاّ بمعجزة . لا أعرف ! لكن أهم قضية على الإطلاق هى ماذا تفعل لمواجهة العدو الصهيونى .

*** الجيل الجديد من الحكام العرب ، هل تعتقد فى قدرته على التغيير ؟**

سمع السؤال ، وقال بغضب : بص يا بهاء أنا غير مؤهل للكلام فى التفاصيل السياسية ، أنا لست رجل سياسة أو محللاً أو عضواً فى حزب سياسى . **قلت له : ولكنك مثقف – قلتها بإصرار – يهم الناس رأيك فيما يشغلهم من قضايا . وناورت فعدت أسأل : هل هؤلاء الشبان مهيأون فعلاً للقيادة ؟ قال :**

– دعنا لا نحكم عليهم مسبقًا ، دعنا نحكم عليهم بعد أن نرى أعمالهم .

*** فى قطر شاب يحكم منذ فترة طويلة .**

قلت ذلك بينما كان يقاطعنى مصرًّا – ما زال – على وجهة نظره .. ألا يتكلم فى التفاصيل ، لكنه ما إن سمع كلمة « قطر » حتى نسى ، أو تناسى إصراره وقال بالتفات مؤكد :

* قطر هذه قضية أخرى ولى عليها علامات استفهام كثيرة .

* ما هى ؟

- أهمها الدور الذى تلعبه فى المنطقة فى الإعلام والسياسة والعلاقات مع إسرائيل . لا يمر يوم دون أن تستضيف قناة الجزيرة مفكراً أو صحفياً أو أستاذاً من إسرائيل يتكلم فى كل شىء . وما من شىء نعتز به فى عالمنا العربى ، على قلة ما نعتز ، إلاّ وتجد هذه القناة المشبوهة قد دقت إسفيناً فيه بقصد تشويهه . وما من قضية حيوية ومهمة للمستقبل العربى إلاّ شوهتها بدعوى الحرية . حاولت مثلاً دق إسفين بين سوريا ولبنان بالكلام عن أن هناك هيمنة سورية على لبنان . حاولت أن تشوه كل تجارب الحكم فى مصر . جمال عبد الناصر ، السادات ، حسنى مبارك . وحاولت أن توقع بيننا وبين السودان . ماذا يريدون ؟

* ربما كانت تبلور توجهات سياسية .

- طبعًا لا شك فى هذا . تبلور - بقدر كبير من الدهاء - توجهات سياسية امبريالية تهدف للسيطرة على هذا الوطن ، مثلاً .. تذيع برنامجًا عن الوحدة والقومية ... إلخ ، وتذيع - بعده مباشرة ! - برنامجًا عن التيارات الأصولية فى البلاد العربية ، وتستضيف رموزها فى لندن ، وتتحدث عن هيمنة سوريا على لبنان ... إلخ .

* قل لى : لماذا نجحت إسرائيل ؟

- كنا ، وما زلنا ، فى حالة تفكك حضارى وثقافى وعلمى ، أما إسرائيل فهى قمة الحضارة الغربية .. من الذى جاء يحاربك ؟ هم خلاصة جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، يحاربون جيوشاً تنتمى للقرون الوسطى .

* فضلاً عن الإيمان بالفكرة .

- نجحت إسرائيل لأننا ضعفاء ، أما الفكرة فعنصرية تنتمى للأساطير . أى فكرة تنطوى على أقل قدر من الإنسانية ، تلك التى تحرضك على طرد الناس من أرضهم !

*** هل صور الأدب العربي – على نحو مرض – الصراع مع إسرائيل ؟**

أظن أن جهوداً كبيرة بذلت في ذلك ، مثل غسان كنفاني ، شعر المقاومة الفلسطينية ، وعندنا ما كتبه صنع الله في بيروت .. بيروت ... إلخ .

*** قيل : إن القضية الفلسطينية هي التي صنعت محمود درويش ، سميح القاسم ، غسان كنفاني . ما تعليقك ؟**

– لو كان هذا صحيحًا ، لكانت قد صنعت آلاف الشعراء ، ولكن هؤلاء شعراء موهوبون ، كانت القضية هي موضوعهم .

*** ما رأيك في هوجة التطبيع التي تجري الآن ؟**

– غني عن القول أنني ضد التطبيع على طول الخط .

*** لماذا نهرول الآن على شيء رفضناه من قبل ؟**

– **قال بضيق** : لأننا ضعفاء ، كررت ذلك ألف مرة ، وضعفاء لأننا ألغينا العقل ودوره في المجتمع ، لا أحزابنا فيها كوادر واعية بأوضاع الناس ، ولا لمثقفينا كيان محترم ، ولا ... **سكت وتنهد من أعماقه وهو يكمل بيأس** :

.. لأننا ضعفاء يا أخي .

*** هل من الممكن أن يقوم سلام بيننا وبين إسرائيل ؟**

صمت فترة من الوقت قبل أن يقول : واللّه إذا استجيب لكل الحقوق العربية المشروعة ، وعلى رأسها عودة اللاجئين إلى ديارهم ، والذي يبدو مطلبًا مستحيلاً ، وعودة القدس ، وإزالة المستوطنات من الأراضي العربية ، إذا حدث ذلك ، يمكن أن يكون هناك حديث عن السلام .

*** سلام أم حديث عن السلام ؟**

لماذا تريد أن تستدرجني ، أنا قلت رأيي . **قال ذلك بغضب ، ونظر لي بهاء طاهر نظرة لا أنساها . كانت مرهقة ومعاتبة وزاجرة . لا تقبل أي عشم من أي نوع . لم أكن أستدرجه كما فهم ، بل كانت رغبتي مشتعلة في المضي معه .. عنه وعنا ، إلى أبعد**

الحدود . قال : كفاية كده ، وشعرت بالخجل من إلحاح قد يبدو غير مقبول ، على شيء قال فيه ما يريد .

هل كنت أود أن يقول كل ما يريد ، أو – بالأحرى – ما أريد !

وقفت أحوّل عيني بعيداً عنه ، إلى برج الجزيرة ، الذى يبدو طرفه المدبب من مكاني .. كانت الشمس قد غابت ، لكن ضوءاً خافتاً كان يضيئ المكان .

لا أدرى لماذا بدا لى البرج من شرفة الصالون ، كوخزة فى الضمير .. إبرة حادة وهائلة .

هل حمّلت الرجل فوق ما يطيق ؟

حين قال لى ، عقب سؤال « السلام » الفائت ، .. هذا الفصل السياسى لا أهمية له فى الكتاب . قلت : سنرى ، لكن هناك – أيضاً – فصل « القضايا الساخنة » ، دعنا ننهيه قبل أن أمضى .

* * *

بقية من ضوء ورمق

أسئلة فى : السياسة ، الدين ، الفن ، وقضايا أخرى .

* ....

– مصر تتمتع بحرية رأى نعم ، لكن ليست هناك ديمقراطية ، هناك حرية كلام . أما الديمقراطية فهى حرية الكلام وحرية الفعل . إنها شىء صعب .

* ....

– أحزابنا السياسية – للأسف – أحزاب من ورق ، أحزاب رديئة جداً بما فيها الحزب الحاكم .

* ....

– الوحدة الوطنية هذه مسألة حياة أو موت ، وجود أو فناء . على فكرة ، رفاعة أيضًا ، وأنا أعتبره رأس النهضة المصرية ، هو أول من انتبه إلى قضية الوحدة الوطنية حين قال : إن مصر أم لبنيها ، والأم لا تفرق بين أبنائها .

* ....

– بعض الناس يقولون : إن الشريعة الإسلامية مطبقة بنسبة ٩٩٪ فى القوانين القائمة حاليًا ، ولا تبقى إلاّ بعض التفاصيل الخاصة بمسائل مثيرة للجدل والتى لا يعتبر تطبيقها حتميًا .

أما إذا كنت تقصد بالشريعة الإسلامية الدول الدينية ، فأنا ضد الدولة الدينية على خط مستقيم ، أرفضها مهما كانت التطمينات ؛ لأنها ببساطة تحكّم فينا من يدّعون فهم الدين .

* ....

– أعوذ بالله ، كيف يكون الفن حرامًا . كيف يكون الحق والخير والجمال حرامًا ونحن نعبد الله من خلالهم ؟

* ....

- هذه مسألة حرية شخصية ، ولكن ليس معنى أن تضع فتاة أو امرأة الحجاب على رأسها أن تتهم من لا تضعه بالكفر . إذا سلمت بالحرية لنفسك ، يجب أن تسلّم بها للآخرين .

* ....

- ظاهرة الإرهاب - رغم انحسارها الآن - كارثة على المجتمع وعلى مستقبله .

* ....

- الشللية للأسف موجودة بشدة ، وبالأخص فى الوسط الثقافى . أظن أن منطقهم هو أن المرء ضعيف بنفسه كثير بإخوانه .. **يضحك بسخرية ويستكمل** .. وبعضهم يقولون : علشان مواجهة الشلل الأخرى . وكلها حجج باطلة ، لأن الفن إبداع فردى ، وعلى الكاتب أن يحافظ على درجة من الاستقلال بعيداً عن أى شلل .

* ....

- أتابع كتابة الشباب بكل حب واهتمام . لا تنس أننى قدمت كثيراً ممن كانوا شباباً ، وقت عملى فى البرنامج الثانى . كنت أقدمهم - بحب - فى « بريد المستمعين » . والآن صاروا ملء السمع والبصر .

وبعد ما سافرت إلى الخارج ، كنت أحرص على أن يكون فى حقيبتى إصدارات الشباب . حاليًا أتابع بشغف كتابتهم . آخر مقالين كتبتهما فى الأدب ، واحد عن مجموعة نجيب محفوظ الأخيرة ، والمقال الآخر عن رواية اسمها « دكة خشبية تسع اثنين » لكاتب جديد اسمه شحاته العريان .

أنا أتابع باستمرار الأصوات الجديدة دون إصدار أحكام قيمية مستندة إلى الأجيال . إن جيلنا كان يعمل كذا وجيلهم يعمل كذا . أنا لا أعيش حياتهم ولا هم يعيشون حياتى . أنا أقرؤهم باهتمام وحب ، وأرفض أن أكون وصيًا عليهم ، كما رفضت فى أول حياتى وصاية الجيل السابق علىّ .

* ....

– ردة فكرية ، ودى محتاجة سؤال ! طبعًا هناك ردة فكرية فظيعة فى المجتمع العربى كله ، لا المجتمع المصرى فحسب .

* ....

– أكون سعيداً لو دلنى أحد على حل .

* ....

– بطبيعة الحال ، هناك محنة تواجه التنوير ، والخروج من هذه المحنة من أشق الأمور ، لأن العيون تكلست ، وللسياسة دور فى ذلك . وللإعلام والفقر وتدخل الدول النفطية دور ، وتدخل الدول الاستعمارية له دور . عوامل لا أول لها ولا آخر . الحمد للّه أن هذا المشروع لم يمت تماماً . ما زالت هناك بقية من مقاومة .. بقية من ضوء ورمق .

* ....

– مقارنة بما عانيناه لا توجد أزمة نشر . هناك سلاسل كثيرة لنشر الإبداع الجديد . فضلاً عن النشر الإقليمى . لكن كل ذلك أضع أمامه علامة استفهام . لأن هناك مواهب حقيقية ، خاصة فى الأقاليم ، ولا تجد طريقها إلى النشر . هل هذا جزء من الخلل الثقافى العام ؟ لا أعرف .

* ....

– مرة كتبت عن كلمة قالتها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد وأعجبتنى . قالت : ما فيش أغانى شبابية ، هناك أغانى هبابية .. يضحك ، والدكتور على الراعى ، وكان بالمناسبة صاحب صوت جميل . كم مرة سمعته يغنى عبد الوهاب القديم . كان مهموماً بحالة الغناء ، وما آل إليه بعد عبد الحليم ، ومحمد قنديل ، وفايزة أحمد ، وأم كلثوم .

ماذا حدث . لا أتساءل عما حدث فجعل هؤلاء المطربين يغنون . كل واحد فى الدنيا من حقه أن يغنى ! إنما ماذا حدث للذوق العام الذى يتقبلهم بهذه السهولة . لا كلمات ولا ألحان ولا أصوات . ماذا يبقى إذن ؟ أنا مندهش يا أخى . طبعًا هناك استثناءات . أنا أحب أنغام وبعض أعمال ماجدة الرومى ، وبعض أعمال محمد الحلو . أما الأسماء التى ذكرتها لك ، فأنا أسمعها طوال الوقت تقريباً .

* ....

– لا أعترف بهذه التسمية .. الأدب النسائى . حتى الكاتبات اليوم يرفضن هذه التسمية . إما أدب أو لا أدب ، سواء كتبه ذكر أم أنثى ، ولكن يمكن ، نظراً لأن الكتابة كانت على مدى التاريخ همًا ذكوريًا ، يمكن أن نكتشف بعد مرور زمن طويل ، الإضافة التى أضافتها المرأة للأدب .

* ....

– لم أقترب من أدب الخيال العلمى ، ولا أحبه .

* ....

– أحب الرواية البوليسية جداً .. **ضاحكًا** .. بجد ، أنا نشأت عليها .. على أرسين لوبين ، وأجاثا كريستى ، وشرلوك هولز . وما زلت حتى الآن حين أمر بأزمة نفسية أرجع إلى أجاثا كريستى وأستغرق فيها ، وفى أحيان كثيرة أتوصل لحل لغز الجريمة . **نضحك معًا** .

* ....

– المرأة طوال عمرها كانت تعمل . من أيام الفراعنة وهى تعمل . فى الريف المصرى تعمل . الذين يتحدثون عن عمل المرأة ، يقصدون المرأة البرجوازية فى المدينة . يريدون لها أن تبقى محظية كما كانت على مدى التاريخ . أما المرأة العادية ، سواء فى مصر أو فى الهند ، أو فى أفريقيا ، فهى تعمل دون شوشرة أو لغط . هذه حاجة اجتماعية واقتصادية ملحة . وأنا قرأت أن ٢٥٪ من الأسر تعولها امرأة . لعدم وجود عائل . ما المقصود إذن بإثارة مثل هذه المسائل ؟

* ....

– ما يثير الدهشة حقًا ، هو عدم وجود هذه « السلبية » لا وجودها .. **قالها بسخرية ثم ضحك واستأنف** .. إذا كانت كل المبادرات تواجه بالقمع . يا راجل دا أنا كنت مرة فى إحدى الجامعات ألقى محاضرة ، ففوجئت بالأستاذ الذى دعانى يقول لى على استحياء : مافيش داعى ندخل فى السياسة !!

شوف أستاذ الجامعة خايف تتهور ، وأنت تتكلم فى الأدب فتدخل فى السياسة ! قمع المبادرة والتعرض للمخاطر بسبب .. لا أقول بسبب الشجاعة ، وإنما من أجل أن تعيش حياة طبيعية . هذا القمع جعل الناس فى غاية السلبية .

* ....

- اسأل الجماعة الاقتصاديين عن البطالة .

* ....

- الأمية مشكلة المشاكل . أذكر أن بابا شارو - الله يرحمه - قال لنا فى سنة ١٩٧٢م ، عندما كنت أحضر دراسات عليا فى جامعة القاهرة ، تصوروا أن اللجنة التى عملت دستور ١٩٢٣م حددت أنه بعد ٥ سنوات سيتم القضاء نهائيًا على الأمية فى مصر . يعنى فى سنة ١٩٢٨م . ونحن الآن - يقول بابا شارو - فى سنة ١٩٧٢م ، ولم يحدث شىء .

انظر نحن الآن فى سنة ٢٠٠٠ م ولم يحدث شىء ! فى حين أن القضاء على الأمية هو الخطوة الأولى لنجاح أى تنمية فى هذا المجتمع ، ليس فقط الأمية الكتابية ، إنما الأمية العلمية والثقافية بوجه عام . وبما أن ذلك لا يحدث ، فإن كل خططنا للتنمية تتعثر ، مع أن المسألة فى غاية البساطة .. فى كوبا قفلوا الجامعات لمدة ٣ سنوات حتى قضوا على الأمية ، كان الطلبة والأساتذة يعلّمون الناس ، هذا أكسب ألف مرة من جامعات مفتوحة ، لكنها لا تفيد أحدًا . ليس هناك لغز إذن . ما ينقصنا هو الإرادة السياسية لكى نقضى على الأمية وغيرها من المشكلات .

* ....

- هذه مشكلة يا أستاذ بهاء أنا جاهل بها تمامًا ، لكنى أذكر - فى جيلنا - أن متعاطى المخدرات كان شخصًا محتقرًا . ما أراه الآن مرض اجتماعى يحتاج لعالم اجتماع .

* ....

– مع الأسف الشديد ، وأقولها بكل ألم : إنه لم يعد لدينا جامعات . طه حسين الله يرحمه ، كان يقول : إن فى مصر جهلاً يحمل الدكتوراه . أنا أسمع أساتذة فى اللغة العربية يخطئون فى اللغة . وقال لى صديق ، أستاذ فى كلية الطب : إن بعض الأطباء يخطئون فى قراءة نتائج التحاليل المكتوبة بالإنجليزية . وهذا يمثل خطراً على حياة الناس . الجامعة فى حاجة إلى إعادة نظر من الألف إلى الياء .

أذكر أن أستاذنا الدكتور محمد فؤاد شكر ، دخل علينا فى قسم التاريخ فشهق ، قال ٢٠ طالب فى سكشن : دى بقت مدرسة ابتدائى ، يضحك بتحسر .. التعليم الحقيقى أن تتلقى العلم عن أستاذ بينك وبينه علاقة حميمة ، فهل يمكن أن يحدث ذلك الآن ، هل يمكن أن تكون هناك صلة حميمة بين أستاذ و ٥٠٠٠ آلاف طالب .. كيف ؟

* ....

– برغم كل الظواهر التى توحى بالعكس ، وبرغم ضرب الانتماء فى مناطقه الأصيلة .. زى مالكش دعوة ، وانت مالك ... إلخ . لكنى أتصور أن الانتماء لمصر عميق جداً لدى المصريين . لكنه يظهر وقت اللزوم ، زى حكاية الطيار على مراد الذى رفض أن يفتش الإسرائيليون طائرته . كل الرأى العام تضامن معه .

أنا أعتقد ، برغم ضرب الانتماء على مدى فترات طويلة ، وأسمح لنفسى أن أقول : إن بداية ضرب الانتماء جاءت مع تبرير السادات لوقف حرب أكتوبر ؛ بحجة أنه خائف على أولاده ! كأنه يقول للناس : إن التضحية من أجل الوطن عبث . بدأ ضرب الانتماء من هنا ، وأصبحت الولاءات لدول الخليج ، بدلاً من مصر وحلمها الذى حدثتك عنه . لكن الانتماء ما زال عميقاً – رغم ذلك – فى أعماق المصريين . يظهر – فقط – فى اللحظات الجادة .

* ....

– تابعت ، باهتمام شديد ، تفاصيل قانون الأحوال الشخصية الجديد ، وأوافق عليه بشدة ؛ لأنه ، كما قال أحد القضاة : من العار على رجل أن يمسك امرأة لا ترغب فى الحياة معه .

* ....

– فيها جانب إيجابى وجانب سلبى . الجانب الإيجابى فى المركزية ، أنها حافظت على وحدة النسيج المصرى من أيام الفراعنة حتى يومنا هذا . مصر من البلاد النادرة التى لا تجد فرقًا فيها ما بين أقصى قرية فى الصعيد ، وأقصى قرية فى الدلتا . وفى إحدى القصص قلت .. كأن النيل قد صنع النموذج ، نموذج القرية ، ورماه على جانبيه .

روح الوحدة هذه شىء إيجابى طبعًا ، لكن الشىء السلبى أنه لا يتيح فرصة للمبادرة الفردية ويؤدى إلى الكارثة التى تكلم عنها الراحل العظيم جمال حمدان ، من أن مصر كلها عبارة عن رأس كاسح ، هو العاصمة وجسد كسيح هو الأقاليم . وليس هذا شيئًا قدريًا . إنما هو شىء يمكن علاجه عن طريق الأخذ بقدر أكبر من اللامركزية .. أن نعتبر الحكم المحلى أداة لتنمية الأقاليم ، لا لضمان ولائها للعاصمة . ممكن ، لكنى لست مع التفتيت ، أنا مع التخفيف من قبضة المركزية ، لكنى لست مع التفتيت . مصر ليست كذلك .

* ....

– الفطرة السليمة هى الدين السليم ، وإذا كانت الفطرة تقول : إن الانفجار السكانى يحول دون التعليم الصحيح والعيش الصحيح ، فتنظيم النسل هنا شىء يتفق مع الدين ، لأن الدين يريدنا أقوياء وأعزاء . لو نحن أقل ، وليست لدينا أيدى عاملة كما يقول يحيى حقّى ، كان لابد أن نتكاثر ونتناسل . هذه هى الفطرة السليمة .

* ....

– اسأل الاقتصاديين عن المشروعات القومية العملاقة هذه . أنا لا أفهم فى هذه المسائل .

* ....

– الفساد الإدارى موجود فى مصر طوال عمرها . اقرأ المقريزى والجبرتى « والكتاب الأسود » لمكرم عبيد ، وما كتب عن نظام الحكم الناصرى . الفساد موجود ، لكن المشكلة لا تتعلق بالمبدأ . تتعلق بالدرجة .. درجة الفساد الإدارى . مكرم عبيد كان يعيب على النحاس ، وهو من أنزه رؤساء الوزارات ، أنه رقى مدير مكتبه من الدرجة

الرابعة إلى الثالثة متخطياً زملاءه .. **يضحك ساخراً** .. هذه الواقعة الآن وسام شرف على صدر النحاس باشا . الخلاف حول درجة الفساد التى أصبحت عميقة جداً ، هذه الأيام ، وسببها بسيط .. أن المرتبات لم تعد تكفى المعيشة . إذا لم تعط الموظف الذى يمسك بمقاليد البيروقراطية المصرية فى يده مرتباً يكفيه ، من الطبيعى أن ينحرف .

* ....

المنحرف موجود على مدى التاريخ ولا يشكل نسبة . وغالباً ينكشف آخر الأمر زى سرحان البحيرى فى « ميرامار » ، الانحراف موجود دائماً ، لكن المصيبة أو الكارثة أن يتحول الانحراف إلى قاعدة ، ساعتها سيسرق أيضاً غير المحتاجين الذين تسألنى عنهم . أنا قرأت مرة فى إحدى الجرائد الأجنبية أن الحكومة المصرية تتظاهر بأنها تعطى لموظفيها مرتبات ، والموظفين المصريين فى المقابل يتظاهرون بأنهم يؤدون أعمالاً . **ضحك ، ولكنه ضحك كالبكا ! ، ثم أكمل** .. الموظف يبحث عن المورد الذى يكفى معيشته . يعمل آخر النهار سائق تاكسى ، أو فى بقالة ... إلخ ، والأغلبية تستسهل فترتشى ، قل لى : ماذا يعملون !! الفساد حله سهل .. نزِّل الأسعار أو ارفع المرتبات !!

* ....

ضحك بمجرد ما سمع الكلمة .. الانتخابات ، ضحك طويلاً ورددها بصوت خافت ساخر ، كمن يحدث نفسه .. الانتخابات ! لم أندهش ، فقد كنت أعرف رده ، لكنى مثلت الدهشة وسألته : لماذا تضحك ؟ فقال :

أسمع هذه النكتة ، مرة أخى الطبيب ، توفى رحمه اللّه ، وكان من أعز أصدقائى ، مرة ذهبنا معاً لأحد الاستفتاءات ، قلنا : عايزين نعرف حكاية النتيجة دى اللى بتطلع دايماً ١٠٠٪ ، رحنا للجنة السعيدية الثانوية فى الجيزة . صوتنا .. بـ«لا» ، مش متذكر موضوع الاستفتاء ، لكن النتيجة خرجت مع ذلك ١٠٠٪ . **يضحك** .

أيضاً ، واحد قريبى فى مصر الجديدة عمل تجربة أخرى ، كان بيته قريباً من اللجنة ، فظل يراقب المترددين حتى الخامسة ، كانوا قلة قليلة لا تتجاوز عشرات ، لكنه قرأ فى جرائد الصباح ، أن الناخبين فى هذه اللجنة كانوا بالآلاف .

يا أخى الشعب المصرى ، لم يعد يثق فى حكاية الانتخابات هذه ، لكن أملى كبير فى أن يجعل الإشراف القضائى على الانتخابات ، أن يجعل لها مصداقية عند الناس . أتمنى .

* ....

– الذوق العام فى غاية التردى، وليس هذا ذنب الناس . الناس على دين موجهيهم ، فإذا كان التعليم لا يربى لدى النشء القدرة على تذوق الجمال ، وإذا كان الإعلام يبث القبح والأعمال المتخلفة ، فكيف تريد من الناس أن يكون عندها ذوق . وإذا كان التوجه العام الآن نحو الثروة .. اللى معاه قرش يساوى قرش . كيف تريد أن يكون لدى الناس ذوق . الذوق العام عانى من انحطاط رهيب فى العقود الأخيرة .

* * *

" عن العالم ، والمذاهب ، والأصدقاء "

*** روح العالم ، ماذا تعني بالنسبة لك ؟**

– اسأل باولو كويلهو ، أنا لا دخل لي بها ، وليس لدى مفهوم عنها .

*** هل تعتقد أن هذا العالم مؤمن ؟**

– طبعًا هذا العالم مؤمن على مدى التاريخ . كما أن هناك جوعًا للجسد ، هناك جوع للروح ، وأى مذهب أو فكرة يغفل هذه الناحية ، فإن مصيره إلى الفشل .

*** منذ مطلع التسعينيات ، يسيطر على العالم قطب واحد هو « أمريكا » . إلى أين ستأخذنا في تصورك ؟**

سكت لحظات ويدأ يتحدث .. إلى طريق مسدود في الحقيقة . أولاً ، ولا جديد في المسألة ، ما يحدث الآن هو ما كان يحدث طوال التاريخ . إن الحكم لمن غلب كما يقول ابن خلدون . أمريكا غلبت فلا غرابة في أن تحكم . كون هذا الحكم يبقى اسمه .. الاستعمار ، الاحتلال ، الاستعمار الجديد ، العولمة ... إلخ ، المسألة هي هي . إن الحكم لمن غلب ، وتاريخ أمريكا ، مع الأسف الشديد ، في حكم ما تضع يدها عليه ، لا يبشر بأى خير ، سواء من ناحية إبادة الهنود الحمر في القارة ، أو التعامل مع الزنوج داخل أمريكا . أو من ناحية القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما ، أو من ناحية ما يخصنا نحن .. الانحياز السافر لسرقة وطن منا .

لا يبشر حكم الغالب الآن بأى خير . بالأمس فقط ، خطرت لي فكرة – لا أدرى مبعثها – لماذا لم تلق أمريكا القنبلة بعيداً عن هيروشيما أو نجازاكي .. في الصحراء ، إذا كان المقصود هو الإرهاب والتخويف ، كما قالت في معرض التبرير بعد ذلك . الغريب أن اليابان كانت توشك أن تستسلم !!

لماذا لم يلقوها في مكان خال من البشر . أليس المقصود منها هو الإعلام ! ألم يكن ذلك أحسن من قتل ربع مليون إنسان ؟

أنا في الواقع خائف ، لأن أمريكا لا ترعى في أحد إلاً ولا ذمة .

* بماذا تسمى القرن العشرين ؟

– لست أنا الذى أسميه . هو قرن الأحلام العظيمة والإحباطات العظيمة . بدأ القرن بأحلام العدالة الاجتماعية وانتهى بالعولمة . وفى مصر بدأ بثورة ١٩١٩م ، وتحرير المرأة ، وأحلام الحرية والجامعة ، وانتهى بالتكفير والهجرة وعذاب القبر ، والتعليم الذى لا يعلم شيئًا . مأساة !

*** أسماء ترى أنهم تاريخيون ، بمعنى أنهم غيروا مجرى الأدب فى القرن العشرين .**

– فى مصر أم العالم ؟

فى مصر والعالم .

فى مصر ، طبعًا طه حسين هو أول اسم ، وهناك شوقى ، وصلاح عبد الصبور ، ونجيب محفوظ بوصفه مؤسس الرواية ، ويوسف إدريس .. أحد عباقرة القصة . أما فى العالم ، فهناك أنطوان تشيكوف ، أول اسم يخطر على بالى . وديستويفسكى ، رغم أنه مات قبل بداية القرن العشرين ، إلاّ أن تأثيره امتد على مدى القرن . هناك أيضًا كافكا ، وهيمنجواى ، وسارتر ، وألبير كامى ، وجارثيا ماركيز ، وليم فوكنر ، أندريه مالرو .

وفى مصر لابد أن تتذكر – أيضًا – ثروت عكاشة وأثره التاريخى ، والعقاد ، ولو أننى لست معجبًا به .

لماذا ؟

– العقاد عقلية جبارة ، لا أشك فى هذا ، ولكنى فى نهاية الأمر لا أدرى ما رسالته . أى كاتب من الكتاب الذين ذكرتهم لك ، له رسالة ، ولكن ما رسالة العقاد ؟

قالها بحسم مستفز ، ودافعت عن رسالة العقاد ، لكن لم يبد عليه أنه اقتنع ، وظل صامتًا لمدة دقيقة ثم رد بقوله :

– أنا قرأت للعقاد وخرجت بالنتيجة التى قلتها لك : إنه عقلية جبارة . أو دعنى ألخص لك المسألة بشكل آخر .. أنا كنت أراوغ ، لكن أصارحك الآن ، أو أسألك .. لو لم يكن هناك العقاد ، ماذا كانت ستخسر الثقافة المصرية . أنا أقول لك : ماذا

تكون قد خسرت ، لو لم يكن هناك طه حسين أو ثروت عكاشة أو صلاح أو أى اسم ذكرته لك . لكن ماذا كانت تخسر مصر ، لو لم يكن هناك العقاد ؟ لا شيء !!!

يكفى يا أستاذ بهاء أن العقاد جعل للكتابة قيمة ، وللكاتب ؛ لأنه كاتب ، لا شيء آخر ، فى عصر كان يتهكم على « الأنباتية » .

أنت تتحدث عن الإنجاز .

الإنجاز رسالة ، فضلاً عن أهمية العقاد كناقد وكاتب كرّس حياته للتجديد والتنوير والدفاع عن قيم الحرية والعدالة .

أنا أتحدث عن الأثر الثقافى فى المجتمع .

ثم سكت لحظة متحيراً واستأنف كلامه .. أنا الآن أراوغ – أيضاً – فى الحقيقة ، لأن الأثر الثقافى للعقاد فى المجتمع أثر مدمر . التلميذ المباشر له هو سيد قطب ، وإذا مددت جذور الفكر السلفى الآن ارجع بها للعقاد !! أنا كنت أعفى نفسى حين قلت : إنه لا تأثير له ، كنت أعفيها من إصدار مثل هذا الحكم ، لكن وأقولها بكل صراحة . أثر العقاد سلبى وليس إيجابى . **ثم مستدركًا بسخرية قال متكئًا على التنوين :** وليس إيجابيًا . **وضحك . من ناحيتى لم أوافقه الرأى ، لكن سكت وسألته .. الشرق أوسطية ، النمور الآسيوية ، العالم الثالث . الأوهام ، والأحلام ، والواقع . كيف ترى المستقبل . فقال :**

أنت تدرى أننى قومى عربى ، وأقول هذا دون خجل ، ولكن قومى عربى ليس بمعنى الاعتراف بمشايخ البترول ، إنما قومى عربى بمعنى الإيمان بأن توحد العرب هو توحد للمستقبل ، ولكل القيم التى حدثتك عنها . أما الشرق أوسطية فتعنى التخلى عن هذا الحلم . تعنى القبول بالتبعية والعولمة وبكل الآفات البغيضة . أنا دون أن أكون خبيراً بالاقتصاد أو بالاستراتيجية ، هناك شيء ما يجعلنى – بالحدس – أرفض هذا المصطلح رفضًا مطلقًا .

والنمور الآسيوية .

– لست خبيراً اقتصادياً كما قلت لك ، ولكن لدى تساؤل .. لماذا ، إذا كانت نجحت هذه التكتلات ، لماذا انهارت فجأة . أنا يخيل إلى أن اقتصاد هذه الدول اقتصاد تابع . ما زالت منطلقات عبد الناصر – دون الدخول في جدل حول الناصرية – سليمة .. أن يبقى لديك نوع من الاستقلال الاقتصادى . رفض التبعية للأسواق العالمية حتى لو جعت أو عشت ببطائق التموين . أذكر ، هل قلت لك ، حكاية كتبتها مرة . أيام صدرت قرارات التأميم ، أدهشنى جداً أن أجد من ضمن الثائرين على هذه القرارات أناس لا يملكون شرو نقير . غريبة .. هذه القرارات لصالحهم ومع ذلك . انظر ماذا فعلوا ؟ هل الإنسان يؤثر الاستئثار على العدل ؟ هذا سؤال مهم جداً . لماذا فشلت على مدى القرن تجارب الاشتراكية، والعدالة الاجتماعية ، وشعارات الإخاء والمساواة . هل لأن هذه الأفكار تريد من الإنسان شيئًا من التضحية ، والإنسان – بطبيعته – لا يضحى . هل الإنسان يطمح لأن يكون متملكًا لكل شيء ؟ لا أعرف !!

والعالم الثالث .

– بنظام العولمة هذه ، سيرجع إلى الوراء أكثر . الضعفاء في مجتمع الغابة لا مكان لهم .

*** التسعينيات ، لماذا خلت من العمالقة فى العالم ؟**

– هذه هى بشاير العولمة ، ولكن يا أخى الناس تحن دائمًا للعظمة : كاسترو فى قمة الألفية الأخيرة ، كل الناس ذهبت إليه دون بقية الرؤساء . لماذا ؟ وعندما عرض فيلم « عبد الناصر » الذى قوبل بتعتيم شديد ، كادت الناس أن تكسر دور العرض من الزحمة . أريد أن أقول : إن الناس ما زالت تحن إلى الرموز التى تجسد أحلامها . فالبشر هم إفراز الواقع الاجتماعى والسياسى ، وإفراز التحدى .

وأرد أن يخرج من بيننا الآن شخص عملاق فى مجتمع ما ، ولكن كما قال جمال الدين الأفغانى « بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة ، والغمة تلد الهمة » .

*** فى اعتقادك ، ما أهم المذاهب التى أثرت فى الواقع الثقافى المصرى فى القرن العشرين ؟**

– الاشتراكية طبعًا هى أول شىء . كانوا يسمونها فى بداية القرن العشرين « الاجتماعية » تقريبًا . فى حقبة الستينيات كانت هناك الوجودية كمسعى للخلاص الفردى والحرية الفردية . أظن أن هذه كانت أهم التيارات . ولا تنس الليبرالية التى مثلها على مدى عقود طويلة الوفد . والسلفية الآن .

*** الحداثة ، العولمة . مفاهيمنا لهذه المصطلحات تشبه – كما يقال – وصف عميان لفيل ! ماذا تعنى لك هذه المذاهب ، وما مستقبلها ؟**

– أنا شخصيًا أفهم الحداثة على أنها استجابة لمتطلبات العصر الحديث الذى لا يكف عن التجدد باستمرار . كلما كان هناك تجدد فى المجتمع ، كلما كانت هناك حاجة إلى تجدد فى الأدب والفكر والسياسة والاقتصاد وكل شىء .

الواقع الحديث يفرض معالجة حديثة . وهنا تصبح كلمة « حديثة » نسبية ، لأن ما كان حديثًا منذ ٥٠ عامًا لم يعد حديثًا الآن . أو حتى بعد عشر سنوات . أما الحداثة الكهنوتية التى تتعلق بأساليب فى التعبير ويرجع فيها إلى كهنة مخصوصين فى الغرب ، فهذه حداثة لا مستقبل لها . وأفخر بأننى أجهلها !!

*** والصخب الذى يدور حولها الآن فى مصر . ما تعقيبك عليه ؟**

– هو جزء من تخلينا عن معركة الحداثة الحقيقية التى خاضها رواد الفكر المصرى منذ القرن التاسع عشر . الحداثة الحقيقية هى مواجهة تحديات الواقع الحديث طبقًا لمتطلبات كل مرحلة . هذه هى الحداثة التى أفهمها .

*** العولمة ؟**

– العولمة ، هى اسم الدلع للهيمنة .

*** كيف ترى العالم الآن ؟**

– العالم الآن ، فى حالة مخاض ، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بنوع المولود القادم . المعركة فى تصورى هى معركة بين تلك العولمة / الهيمنة ، وبين النزعة الإنسانية الفطرية إلى الاستقلال والحرية .

* ماذا تعنى الصداقة بالنسبة لك ؟

– هى أنبل علاقة إنسانية ، أنا دائمًا أقول ذلك ، سواء أكانت صداقة بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة ، بكافة أشكالها .

في الحب المسألة أخذ وعطاء ، إنما في علاقة الصداقة هى دائمًا عطاء . علاقة الصداقة هى أكبر مكسب كسبته فى حياتى . وفقدان من رحلوا من الأصدقاء يشعرنى باستمرار أننى شخص غير الذى كنته من قبل . شخص مبتور . شعرت بذلك حين مات صديقى أحمد حسن ، رحمه اللّه . كان أحمد شقيق روحى منذ تعرفت عليه من عشرين عامًا .

* وما رأيك فى صداقة المسلم لغير المسلم ؟

ضحك وقال في براءة : يا أخى أنا أعتقد أن كل الديانات تحض على الصداقة . لم يكن سؤالى مقررًا سلفًا ، بل أردت أن أداعبه أو أنكّره .. كان بهاء طاهر هنا فى مطروح ، رئيسًا لمؤتمر أدباء مصر فى دورته الخامسة عشر .. سبتمبر ٢٠٠٠ م ، ومكث فترة بعد انتهاء الدورة . وفى أحد المساجد كان يصلى الجمعة ، حين لفتت نظره ثورة الخطيب العارمة ونهيه عن صداقة المسلم لغير المسلم ، كان الخطيب قاطعًا وهو يحرم هذه الصداقة . واندهش بهاء طاهر وهو يخبرنى ، من أن ذلك يحدث وفى مسجد تابع لوزارة الأوقاف !!! قلت له .. وربما فى الكنائس أيضًا . قال : تبقى كملت !!

كيف يريدون منا أن نعيش فى سلام ، قال منفعلاً ، كيف يسمحون لهذا الخطيب أن يقول ذلك ؟

قلت له : اكتب جزءًا آخر من « خالتى صفية والدير » ، وعدت أسأل : ماذا تفعل حين ينقلب الصديق إلى عدو ؟

– قال : ادفع بالتى هى أحسن ، أو عليك بالسكوت .

* * *

« رأس مثقل بالتساؤلات »

*** لماذا تحب الليل ؟**

– واللّه لا أعرف ، احتمال لأننى أحب الهدوء .

*** ما أول فكرة تخطر على بالك حين تصحو من النوم ؟**

– أن أستـأنف النوم مرة أخرى .. **يضحك** ، لكن بالليل تأتينى أحلام يقظة كثيـرة . أتخيل أننى فى بنما أو فى العصر العباسى ، أو أتحاور مع الملك فاروق ، وأظل هكذا حتى يدب النعاس فى عينى .

*** ما أكثر شخصية ترددت فى أحلام يقظتك .**

– الملك فاروق .

*** لماذا ؟**

– لا أدرى .

*** ما الشىء الذى جاملك فيه الزمن ؟**

جاملنى فى أشياء كثيرة ، أهمها أننى استطعت تجاوز محن كثيرة فى حياتى ، ربما تعثر فيها غيرى . مثلاً أنا أنهيت تعليمى الجامعى ، رغم ظروف الفقر الشديد . وعملت لمدة عشرين سنة فى مكان أحبه وهو الإذاعة المصرية . ومنها أننى تماسكت حين فصلت من الإذاعة ، وعملت بالأمم المتحـدة . وأديت رسـالتى نحـو بنـاتى فيما أعتقـد .

*** أى الأشياء يحرك دوافعك العميقة ؟**

– الظلم فى أى صورة من صوره .

*** حدثني عن عيوبك .**

– أنا أضحك عندما يسألون أحداً في التليفزيون هذا السؤال ، فيقول : عيبي الصراحة .. **يضحك ، وكان عقله الذي لا ينام أبداً قد أعد الإجابة أثناء ذلك ، والآن يتكلم** .. أنا لست صريحاً ، وهذا عيبي الأول . أنا أكتم ما ينبغي أن يقال ، وربما كان هذا سبباً في تعب المعدة . أنا كتوم حتى في علاقات الحب . عندما أحب واحدة لا اتخذ خطوة نحوها ، إلاّ إذا شعرت باستجابة منها . وليس لدي حس عملي ، حتى اتهمني البعض بأنني غير طموح . هذه أهم عيوبي .

*** يتفق أغلب النقاد على أنك من أكثر أبناء جيلك موهبة . ماذا لو قيل لك : إنه يمكن أن تكون أكثر سعادة لو أنك أقل قدراً من الذكاء والموهبة .**

فكر بهاء طاهر صامتاً .

ثم رد قائلاً :

سؤال صعب . أولاً ، أنا لم أقل عن نفسي إنني أكثر أبناء جيلي موهبة ، ولا أحب أن يقال ذلك ؛ لأن الأحكام عرضة للتغير . دع الزمن يحكم . إنما على أي حال لا أفضل أن أكون أكثر سعادة وأقل موهبة . السعادة هذه شيء مجاني .

بمعنى ...

– بمعنى أنها ليست الهدف الأسمى الذي يسعى إليه الفنان . أنا أعتقد أن الامتلاء بالتجربة أجدى عليه ، حتى لو كان مصحوباً بالألم ، **ثم قال كأنه يختار المرة الأخيرة** : لا ، لا أفضل أن أكون أقل ذكاء وموهبة .

*** مَنْ مَنِ المبدعين شعرت نحوه بالغيرة ؟**

– الغيرة الفنية تشعر بها من كل كتابة جميلة . ورغم أنني لم أطرح على نفسي هذا السؤال . لكنك تستطيع أن تسألني عن الروايات التي أعجبتني . هناك « بداية ونهاية » و« خان الخليلي » ، و« العسكري الأسود » ، و« البيضاء » ليوسف إدريس ، وشهيرة بتاعة سعد مكاوي . و« هكذا خلقت » لمحمد حسين هيكل ، وأستطيع أن أعد لك كثيراً من الروايات .

*** هل أنت سريع الغضب ؟**

– أنا سريع التأثر ، إذا كنت تريد الحقيقة . نظرة عين يمكن أن تؤرقني لمدة أيام .

*** قرارات ندمت عليها .**

دعني ، أولاً ، أحدثك عن قرار لم أندم عليه .. **يضحك** .. لم أندم أبداً على عدم الاستمرار في العمل بدولة خليجية ما . في وقت أزمة مالية طاحنة بعد فصلي من الإذاعة . شعرت أنهم يستعلون علينا بالمال . فلم أستمر أكثر من ثلاثة أسابيع ، ولم آخذ قرشاً واحداً ورجعت .

ويقول كأنه يتذكر .. لكن ما القرارات التي ندمت عليها يا بهاء ؟ طبعًا هناك أشياء خاصة جداً لا أستطيع أن أكلمك فيها .. كأنك تقدم على علاقات ، ثم تكتشف بعد فترة أنها كانت غلط ... إلخ . لكن الندم الأكبر أنني قابلت الحب الحقيقي الذي لا يقابله المرء في حياته سوى مرة واحدة ، وتركته يهرب من يدي .

هنا في مصر .

لا . **قالها وهو يشعر بأسى حقيقي ، ثم استأنف** .. هذا أكبر قرار ندمت عليه .

*** هل جئت في الوقت المناسب ؟**

– كنت أحب أن أكون في مرحلة طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وهؤلاء الناس العظام . **ثم يضحك ملتفتًا مرة أخرى إلى الندم . قال** : تسألني عن الندم . أنا نادم على أنني عشت حتى رأيت صداقة غير المسلم حرامًا ، وعذاب القبر والحاجات دي . كانت الناس في هذا العصر من الممكن أن تتعثر ، لكن الحياة كانت تسير إلى الأمام .

الآن أشعر أننا ننحدر من قمة جبل . لا .. كنت أحب أن أعيش في النصف الأول من القرن العشرين .

*** من كان مثلك الأعلى في الحياة ؟**

– طـه حسين .

*** بماذا كنت تحلم فى صباك ؟**

– بشكل أو بآخر ، كنت أحلم أن أكون كاتبًا .

*** هل أنت انطوائى ؟**

– جداً ، برغم علاقاتى الواسعة .

*** ألم تحاول علاج هذه المسألة ؟**

– هل من المصلحة أن أعالجها . بالنسبة للكاتب الانطواء شىء مهم .

*** فى أى المواد كنت متفوقًا أثناء الدراسة ؟**

– فى اللغة العربية ، لدرجة أن المدرسين كانوا يظنون أن أبى هو الذى يكتب لى موضوعات الإنشاء ، وفى التاريخ ، لكنى كنت خائبًا جداً فى الرياضيات .

*** ما إحساسك الآن ، وأنت كاتب مشهور ؟**

– ولا مشهور ولا حاجة ، أنت يخيل إليك أننى مشهور . أنا قلت مرة . لو أن أعظم أديب فى مصر مشى بجوار مطرب أو ممثل لقالوا : مين اللى ماشى جنب فلان ده . أو فى أحسن الأحوال سيعتقدون أنه سكرتيره .

*** ما علاقتك بالكمبيوتر ؟**

– بناتى يعتبرون أننى أنتمى للعصر الحجرى ، لأننى لا أفقه شيئًا فى الكمبيوتر .

*** ماذا عن الرياضة واللعب فى حياتك ؟**

– كنت أخيب إنسان ، ولو كانت هناك درجات على هذه الألعاب لبقيت حتى الآن فى سنة أولى ابتدائى .

*** لمن تغنى وأنت وحدك ؟**

– لعبد الوهاب فى أغلب الوقت .

* بتقول إيه ؟

سكت ليه يا لسانى .. نضحك معًا . كان كل شىء حولنا هادئًا . لا يجرح سكون الليل غير موج البحر ، وضحكاتنا ذاهبة إلى أبعد مدى من شرفة الفندق . كان بهاء طاهر يحس بنشاط غير عادى من خمس دقائق فقط قضاها أثناء النهار فى مياه البحر ، رأيت من بعيد قامته النحيلة مثل عود قصب ، بكرش صغير مترهل ، مغموسة فى الماء تحت الشمس ، ولما خرج كانت تضوى .

وفى المساء فوجئت به . كان شخصًا آخر ، كان سعيدًا ، تكاد السعادة تهشم جسمه الضامر، قال لى : أكلت فى العشاء كما لم آكل فى حياتى . قالها بمرح ظاهر . وها هو أمامى فى الشرفة ، أتأمله .. بين لحظتين اختلف الرجل . لم تكن ضحكته السرية تذهب بعيدًا هكذا ، لم تكن لها قرابة بصوت المطر السخى ، ولم يكن هو نفسه هكذا .. لقد دبت الحياة فجأة فى خديه المتجوفين ، وفكرت .. إن الفرح كامن فى طباعه العميقة لكنه يعزل مشاعره إلاّ عمّا يريد .. إنه « موناد » محاصر بالاعتزال ، ذلك الإنجاز المطلق . أرجع إليه الآن .. إلى ضحكته وأسأله قبل أن تتلاشى :

ماذا تغني لعبد الوهاب أيضًا ؟

– مقاطع من أوبريت « مجنون ليلى » ، وأحب جدًا عبده السروجى .

غريب الدار .

– آه ، وأحب نجاة الكبيرة ، وفايزة أحمد طبعًا ، وكل فيروز ، وعبد الحليم حافظ ، وأم كلثوم ، وبعض الأغاني الجديدة . أحب أغنية أنغام .. إلاّ أنا ، وأنا بعشقك لميادة الحناوى . أنا أسمع كوسيقى وأغانى طوال النهار .

* هل حققت كل أحلامك ؟

– لا أحد يحقق كل أحلامه فى الدنيا ، وإلاّ ماذا يفعل بعد ذلك ؟

* هل تقرأ أعمالك بعد طباعتها فى كتاب ؟

– نعم ، حتى أعرف أخطائى ، ولو أن هذه مسألة غير مفيدة ؛ لأن للكتابة حياتها الخاصة بالنسبة لى . لا أستطيع أن أفرض على كتابتى أى قواعد مسبقة . الكتابة هى التى تقودنى . وعندما أحاول التدخل تكون فى منتهى السماجة .

*** ما الشيء الذى تحترمه فى بهاء طاهر ؟**

– العناد . أنا لا أستسلم بسهولة لأى شيء .

*** هل قلت كل ما تريد ؟**

– لا . هناك أشياء أخرى .

*** لماذا لم تقلها ؟**

– لأنها خاصة .

*** إذن لا أستطيع سؤالك عن العادة السرية مثلاً أو حياتك الجنسية .**

– لا أحب أن أتكلم فى هذا . أنا أتصور أن حياة الكاتب فيما يتعلق بالأمور العامة هى ملك للناس ، لكن حياته الخاصة ملك له وحده .

*** ما أكبر المفاجآت فى حياتك ؟**

صمت طويلاً ، فيما يردد كلمة مفاجأة .. قالها بصوت خافت وأكمل .. يمكن حصولى على جائزة الدولة التقديرية . **وأردت أن أساعده على التذكر ، فسألت .. هل كان طلاقك مفاجأة بالنسبة لك ؟ فقال :**

على الإطلاق . الناس تطلق فى لحظة غضب ، وأنا طلقت فى سنوات .. **يضحك** : لأننى أب . لم أكن أتمنى أن يحدث ذلك . ولم أفاجأ به .

*** هل تجيد التنبؤ ؟**

– أنا أحدس ، من الحدس ، ولكنى لا أجيد التنبؤ . حدسى عالٍ خاصة تجاه الأشخاص . ليس من السهل أن أنخدع فى أحد . وأغلب أحكامى فى الناس كانت صائبة .

*** أهم مرحلة فى حياتك ؟**

– مرحلة التعليم الجامعى .

*** ألم تتعرض للسرقة المادية أو الأدبية ؟**

- **قال مبتسماً** .. للاثنين، وأضاف : سرق منى مبلغ كبير فى روما ، وله قصة طريفة . فقد ظللت إبحث حتى توصلت إلى زعيم النشالين فى روما . طلع إسكندرانى **أغرقت فى الضحك وضحك بهاء طاهر معى من قلبه . ثم واصل كلامه** .. مشى الرجل معى فى المنطقة وهو يقول لى : دى قهوة النشالين الصوماليين ، ودى قهوة النشالين اليوغسلاف ، ودى قهوة مش عارف إيه . وحاول مخلصاً ، فى الحقيقة ، مساعدتى ، لكنه لم يوفق . قال : للأسف المهنة لَمّت يا أستاذ ! لم يكن الرجل يستظرف ، بل كان جاداً ، لأن هناك نشالين خارج النقابة كما قال لى ، ولو كان من داخل النقابة ، لأمكن العثور عليه . أذكر أنه قال بغضب : دا حتى الروس بقوا ينشلوا . عمرك شفت واحد روسى بيسرق . لم يكن الاتحاد السوفيتى قد سقط . أما السرقة الأدبية ، فأذكر أننى رأيت مشاهد كاملة مأخوذة من قصتى « بالأمس حلمت بك » فى أحد الأفلام ، ولا أذكر اسمه ، ولم أهتم .

*** النقلة من الجيزة إلى الزمالك . كيف تراها ؟**

- لا تستطيع فى حقيقة الأمر أن تعتبرنى زملكاوى . أنا فى منطقة شعبية جداً ، البيت الذى أسكنه يمكن أن تنقله كما هو إلى الجيزة أو السيدة زينب . أنا على هامش الزمالك ، ولو خيرت لاخترت أن أعود إلى بيتنا فى الجيزة .

*** إيه حكايتك مع المرض ؟**

- لا أعرف ، أنا من صغرى مستعد للمرض ، قابل له ، وأمى كانت تعتقد من الطفولة أننى لن أكمل ، لكننى أكملت .. **يضحك** .

*** ماذا تذكر من الأعياد ؟**

- كانت الأعياد أكثر بهجة ونحن أطفال . المراجيح ، والسينما ، وركوب الدراجات والعيدية طبعًا . الآن أنا أعطى العيدية وأتواجد دائمًا مع أسرتى الكبيرة فى هذه المناسبات .

*** هل أنت متشائم ؟**

– أنا واقعي ، ولأنني أعيش في عصر متراجع ، فأنا أعتبر التفاؤل فيه ضرباً من السذاجة .

*** ما مفهومك عن السعادة ؟**

– لكل إنسان سعادته الخاصة ، ليست هناك سعادة عامة هكذا لكل الناس !

*** هل السعادة وليدة المصادفة ؟**

– أعتقد أنك لكي تستطيع أن تخلق سعادتك ، لا تطلب من نفسك أكثر مما تستطيع أن تعطيه ولا من الزمن . هذه هي المصادفة التي قد تجعلك قريباً من السعادة في تصوري .

*** من وجهة نظرك ما مقومات الشعور بالسعادة ؟**

– الحب ، بالنسبة لي ، هو أعظم مقومات السعادة .

*** ما المبادئ التي حكمت سلوكك ، في حياتك الخاصة والعامة ؟**

– أن أكون نافعاً لمن حولي . أنا حاولت ، على مستوى الأسرة وعلى مستوى العمل وككاتب ، أن أكون نافعاً بشكل من الأشكال .

على المستوى الشخصي حاولت أن أحقق السعادة لمن حولي . هذا ما يعنيني .

*** بأي وسيلة من هذه الوسائل (السيارة ، السفينة ، الطائرة) تفضل أن تسافر ؟**

– كنت أحب السفر ، أما الآن فهو عذاب بالنسبة لي ، لكني لو سافرت أحب أن أسافر سفرية طويلة بالباخرة ، لأني لم أسافر بها أبداً . رغم أني أحب ركوب المياه وأجيد التجديف ، وبسبب هذه الحكاية تعرضت لمهالك .. أتذكر أني كدت أغرق مرة في النيل ، ومرة في نهر « نيفا » فيما كان يسمى لينينجراد ، سانت بطرسبرج الآن ، كنت أجدف في هذا النهر ، و هو أسرع نهر في العالم ، فأخذتني دوامة عنيفة كدت أهلك بسببها في منتصف الليل .

*** هل للحظ دور فى نجاحك ؟**

– لا أستطيع أن أصف نفسى بأننى إنسان محظوظ فى الحقيقة ، لأن أى تقدم صادفنى كان نتيجة تعب شديد ، لا نتيجة خبطة حظ . بالعكس المصادفات السيئة كانت أكثر فى حياتى .

*** ألم تذهب للعرافين ؟**

– ذهبت بدافع الفضول ، لكنى لم أصدق أى شىء ، ولا شىء حدث معى مما قالوا .

*** فيم تتأمل غالبًا وأنت وحدك ؟**

– أتأمل ، غالبًا ، فى موضوع العمل الذى أكتبه ، وأحيانًا كثيرة يستغرقنى التأمل فى البحر وفى نفسى ، لأننى أستبطن مشاعرى كثيراً .

*** حدثنى عن القلق .**

– أنا قلوق ، وخيالى يذهب بى دائمًا للاحتمالات الأسوأ . وأنا إنسان موسوس ، أرجع بعد الخروج ؛ لأتأكد أن الباب مقفول ، والبوتاجاز مقفول ... إلخ . شىء صعب .

*** ما شروط النجاح كما تراها ؟**

– أن يحقق المرء مشروعه . مشروع حياته .

*** ما الفترة الأكثر تعاسة فى حياة بهاء طاهر ؟**

– أعتقد أنها طفولتى ، والفترة التى أعقبت خروجى من الإذاعة .

*** كيف تنظر الآن إلى ماضيك ، وحاضرك ، ومستقبلك ؟**

– الماضى .. زى الأفلام المصرية ، الحياة كفاح . أنا فى حياتى لم أكسل ولم أتبلد على رأى طرفة بن العبد .

أما الحاضر فهو امتداد للماضى بهذا المعنى .. بمعنى أننى أتعب جداً ويتملكنى إحساس فظيع بالذنب حين لا أعمل . هكذا خلقت .

والمستقبل وراء ظهرى .. خلاص انتهى

*** هل تعتقد أن مهمة الأديب هى تغيير العالم ؟**

– **قال باطمئنان** : نعم أعتقد أن تغيير العالم هى وظيفة الأديب والمفكر .

*** هذا العالم .. هل هو أفضل عالم ممكن ؟**

– هذا هو السؤال الذى حيّر البشر . حير أرسطو ، وشكسبير وغيرهم . هل هذا العالم هو أفضل عالم ممكن . **بدا بهاء طاهر كأنه يتساءل معى ، أو يسأل نفسه ، ثم قال** : لا إجابة عندى على هذا السؤال فى الحقيقة .

*** ما الذى يحكم تصرفاتك دائمًا .. العقل أم القلب ؟**

– دائمًا يقودنى العقل للأسف فى كل تصرفاتى ، كنت أتمنى أن أكون أكثر تلقائية وعاطفية مما أنا . كنت أتمنى .

*** من يقرأ أعمالك قبل النشر ؟**

– بعدما أنتهى من العمل أستعين ببعض الآراء ، وأكثر قارئة صعبة من قارئاتى هى بنتى الكبرى دينا . ونادراً ما ترضى . ويسر ابنتى الصغرى أصعب .

*** هل تعتبر نفسك حالمًا ؟**

– نعم .. جداً .

*** ألا يتنافى ذلك مع العقل ؟**

– لا ، لأن كل شىء تنفذه فى حياتك نتيجة شىء حلمت به .

*** الحب ، الفن ، المال والشهرة . أيهم تحس فيه بالسعادة أكثر ؟**

– فى الحب . لا تحقق فى الحياة أجمل من تحقق الحب .

*** هل تكتب تحت تأثير أى مكيفات ؟**

– أنا لا أستطيع أن أكتب إلاّ وأنا فى حالة فوقان كامل .

*** ما أهمية الخيال بالنسبة لك ؟**

– الخيال هو أساس الإبداع ، والخيال والحلم شيء واحد . والإبداع كله حلم تجسده على الورق .

*** والسخرية ؟**

– كان معروفًا عني ، وأنا صغير ، أنني ساخر ، لكن هموم الدنيا ركبتني عندما كبرت . أحكي لك حاجة .. أثناء عملي في البرنامج الثاني كان مكتبي عبارة عن مضيفة كبيرة ، وكان كثير من الممثلين – الذين أصبحوا الآن نجومًا – كانوا يأتون إلى المكتب ويخرجون بإفيهات من الجلسة . وكان المرحوم المأمون أبو شوشة يقول لي : ما تسلفنا حاجة كده على الماشي . كان يقدم برنامج « مسرح المنوعات » ، وفي يوم كنت أحكي معه فقلت له : أنا منحدر من أسرة عريقة لا تكف عن الانحدار . **يضحك** . فأخذها وعملها حلقة في البرنامج . كان جو المكتب شبيهًا بندوات البشري ، وحافظ إبراهيم . وكان لي باع طويل في التنكيت مع المرحوم محمد علي ماهر ، رحمه اللّه . كان معروفًا عني أنني ابن نكتة . الآن أطرب للنكتة .

* * *

*** ماذا تمثل لك « الحقيقة » ؟**

– البحث عن الحقيقة هو شغل الأديب في المقام الأول ، إن لم يكن هو شغل الإنسان .

*** والشك والإيمان؟**

– أعمق إيمان في الدنيا هو الإيمان الذي لا يخلو من التساؤل ، أو ما تسميه الشك . وفي القرآن الكريم يقول سيدنا إبراهيم – عليه السلام – : « ... وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... » . فالتساؤل جزء أساسي من مكونات الإيمان الحقيقي .

*** كلمني عن تقلباتك الدينية .**

– لم أكن في يوم من الأيام في فرقة من الفرق ، لكن – مثلي مثل كل إنسان – مرت بي لحظات عصيبة من التساؤل وأعقبتها لحظات إيمان وهكذا .

*** فى أى مرحلة تحديداً ؟**

– فى مرحلة الشباب .

*** هل تؤمن بوجود اللّـه ؟**

– نعم .

*** كيف ترى رسالة الديانات ؟**

بدا متحيراً وهو يقول : الديانات هى الوسيلة الوحيدة لإرواء ظمأ الروح . إذا كانت هذه رسالتها ، فهى رسالة جوهرية مطلوبة بشدة ، ولهذا السبب تؤمن الناس . أما إذا تحول هذا الإيمان إلى محاولة للسيطرة على الآخرين ، فهنا يتحول الإيمان إلى نقمة عانت منها البشرية طويلاً .. هى الحروب الدينية ، سواء بين الديانات أو بين أبناء الدين الواحد . لكن الديانات فى حد ذاتها رسالة عظيمة موجهة لخلاص الإنسان . لخلاص روحه ، وإذا فهمت على هذا المعنى فستكون نعمة عظيمة على البشرية .

*** والأنبياء .**

– نحن كمسلمين ، نؤمن باللّـه وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله . أليس كذلك . فالأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – قدوة لنا ، نستفيد من مواقفهم ليمكننا احتمال الوجود . مثلاً محنة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – فى ذبح ابنه التى كانت موضوع كتاب من أجمل ما قرأت فى حياتى .. كتاب كيركجارد «خوف ورعدة» ، أو معاناة النبى محمد – صلى اللّـه عليه وسلم – ، أو معاناة المسيح – عليه السلام .

أظن لو أننا نظرنا إلى الأنبياء دون تفرقة ، وعلى أنهم قدوة لنا ، ستجد أنك تحتاج فى كل مرحلة من مراحل عمرك وتفكيرك إلى التأسى بنبى .

*** لماذا يلحد الإنسان ؟**

– يلحد الإنسان ، لأنه فى مرحلة التساؤل الحتمية التى يسلّم بها الدين ، لا يجد من يرشده أو يقوده من هذا التساؤل إلى مطمئن اليقين . الخطأ هنا قد يكون فى النفس ، أو فى الأسرة ، أو فى البيئة والمجتمع . ولكن الإلحاد شىء سلبى ، وهو كقيمة قيمة سلبية جداً . بمعنى أنه يلغى التساؤل ، وإذا فعلت ذلك وقبلت بأن يستمر عطش الروح هذا ، فستموت ظمأ .

وأنا لم أجد في حياتي أضيق أفقًا من متعصبي الجماعات الإسلامية في مصر ، إلاّ الذين يشهرون إلحادهم ! هم الوجه المقلوب للجماعات المتعصبة ، أو ظهر العملة .

*** هل تحج ؟**

- ناوى إن شاء اللّـه .

*** وما رأيك في تجربة « التصوف » ؟**

- نظرًا لأن أحد أعظم أصدقائي ، وهو المرحوم أحمد حسن كان متصوفًا ، فأنا أكنّ لتجربة التصوف أعظم تقدير ، لأني رأيت بعيني تطبيقها العملي في إنسان . كان قمة في السماحة والخلق وإنكار الذات . فإذا كان هذا هو التصوف فنعمًّا هو ، لكنى أرفض الدروشة والتواكل .

*** هل أنت قدرى ؟**

قال : دعني أفكر في هذه المسألة . **وراح في تأمل عميق ، ثم بدأ يتحدث** : أنا مؤمن بأن هناك أنواعًا مختلفة من القدر .. هناك قدر تصنعه ظروفك ، وقدر تصنعه شخصيتك التي ولدت بها . مثلاً أنت من مواليد برج الثور وعصبي جداً . هذا قدر ، وهناك قدر يصنعه المجتمع الذي تعيش فيه .. إذا كان مجتمعًا عادلاً أو ظالمًا أو قامعًا . كل هذه أقدار مختلفة ، فلا يجب أن نلوم الأقدار على عيوب من صُنع أيدينا كما يقول شكسبير .

*** لكن ماذا يكون رد فعلك يا أستاذ بهاء لو خططت لشيء وجاءت نتيجته على غير ما كنت تتوقع ؟**

- في الدين ، الأمور بالنية ، لا بالنتيجة .

*** وإذا جاءت عكس النية ؟**

- لابد أن تتقبل ذلك .. أن هناك كلمة عليا .

*** الدين ، والعلم ، والفلسفة .. كيف ترى العلاقة بينهم ؟**

– فى الظروف المثالية لابد أن يجتمعوا ، وإنما ، كما قال طه حسين : إن المشاكل تبدأ عندما تدخل الدسيسة بين الدين والعلم والفلسفة ، وهى السياسة . عندما تدخل السياسة تبدأ المصائب .. يعدم سقراط وينفى نصر حامد أبو زيد وأشياء أخرى مضحكة !!

* * *

*** من هم أولئك الذين غيروا مجرى حياتك ؟**

– طه حسين ، وسعد لبيب وبعض من أحببت من النساء .

*** وأشخاص لا تنساهم ؟**

– أول واحدة أحببتها فى حياتى وآخر واحدة .

*** خصومات لا تنساها ؟**

– ليست لى خصومات .

*** أول من قدمك للحياة الأدبية ؟**

– يوسف إدريس وأفخر بذلك كثيراً .

*** هل تقرأ ما يكتب عنك ؟**

– آه طبعاً .

*** حتى لو كان ضدك ؟**

– حتى لو كان ضدى .

*** هل تؤدى الواجبات الاجتماعية ؟**

– أحبها جداً ، وإذا لم أؤدها أشعر بتقصير شديد .

*** ما شكل علاقتك بالجيل السابق واللاحق ؟**

– أكثر ما أتأثر به هو حب الشباب لى ، وعلاقتى بالجيل السابق كانت علاقة صداقة وطيدة .

*** والبائعون .. كيف تتعامل معهم ؟**

– علاقتى بهم طيبة جداً ، ولى شعبية لدى البائعين فى كل مكان أسكنه .

*** ما الخطة التى تنفذها لو كنت وزيراً للثقافة ؟**

– اعفنى من الإجابة عن هذا السؤال .

*** وكيف تتعامل مع ناشرى كتبك ؟**

قال وهو يضحك : علاقتى بهم سيئة للغاية ، بمعنى أن حقى دائمًا مهضوم . تخيل لم أقبض من « بالأمس حلمت بك» ، و« أنما الملك جئت » أكثر من ٤٠٠ جنيه .

*** أهم من كتبوا عنك ؟**

– كثيرون ، أهمهم على الراعى ، وشكرى عياد ، ومحمو أمين العالم ، وصبرى حافظ ، وجابر عصفور ، وفاروق عبد القادر ، ومحمود عبد الوهاب . أنا محظوظ من هذه الناحية . لكنى لا أريد أن أحصى حتى لا أنسى .

*** إهداء كتبته ، وإهداء إليك لا تنساه ؟**

– أنا ضعيف فى كتابة الإهداءات هذه ، أكتب دائمًا .. مع المودة والتقدير ، مع خالص التحية ، وأشياء من هذا القبيل ، لدرجة أن واحدة من سوريا زعلت لأننى لم أعرف كيف أكتب لها إهداء شاعريًا ، هى تتصور أن الكتاب حين يكتبون إهداء ، لابد أن يكون شاعريًا .. **يضحك** .

وإهداء إليك لا تنساه ؟

– إهداء من على الراعى رحمه الله . كلما أتذكره تترقرق فى عينى الدموع . كنت عائداً من الخارج ، وهذا الرجل المسنّ برغم تعبه الشديد ، جاء يزورنى ويهدينى كتابه « الرواية فى الوطن العربى » ، وعليه إهداء فى غاية الرِّقة ، إهداء جعلنى – فى الحقيقة – أرتجف تأثرًا .

*** ما أفضل عصور التاريخ من وجهة نظرك ؟**

– العصر العباسي الثاني ، واليونان في القرن الخامس قبل الميلاد ، وفرنسا في القرن التاسع عشر .

*** ما علاقتك بالمقاهي ، والشوارع ، والمدن ؟**

– أنا مدمن قهاوي وشوارع ومدن . أنا كائن مديني ، لا أستطيع العيش في الريف أو الصحراء إلاّ لفترات قصيرة جداً ، لأني ولدت وعشت في المدينة ، وأحب حين أنزل من بيتي في منتصف الليل مثلاً ، أحب أن أرى قهاوي وبقالين ، وتلك الحياة النابضة .

*** هل هناك مقاهٍ معينة ارتبطت بها ؟**

– في الكتاب التذكاري عن سليمان فياض بمناسبة بلوغه السبعين كتبت عن المقاهي التي ارتبطت بها . لا أظن أن هناك مقهى بوسط البلد لم أرتبط به ، أو لم يكن لي تاريخ فيه . وحتى الآن ، مقاهي الزمالك البلدية أنا زبون دائم فيها . وأعرف جوها واحدة واحدة .

*** أين تقضى الصيف ؟**

– أنا عاشق قديم للإسكندرية ، ذهبت إلى مصايف مصر كلها لكني مرتبط ارتباطًا خاصًا بالإسكندرية .

*** والقاهرة .. ماذا تمثل لك ؟**

– القاهرة بالنسبة لي هي كل شيء ، هي حياتي .

*** ما أكثر الأماكن التي تشعر بالحنين إليها ؟**

– الإسكندرية ، تحديداً منطقة ستانلي وجليم . حين أزورها أرتجف .

* * *

* هل تتذكر أول فلوس تقاضيتها من الأدب ؟

– دعنى أتذكر .. أول قرش دخل جيبى من الأدب ، أظن والله أعلم ، كان من مجلة البوليس . كان رجاء النقاش مسئولاً عنها مع سعد الدين وهبة ، ونشرت فيها مسرحية « بلا رجل » فى أواخر الخمسينيات ، فأعطونى ٥ جنيه ، وربما ٣ جنيه .

* ما علاقتك بالملابس والتحف ؟

– أنا مهتم بالملابس لأننى ، من صغرى ، أشعر بخجل شديد من نحافتى ، وكانت أمى تشعرنى دائمًا أن نحافتى ذنب أنا مسئول عنه ، لذلك أحب الملابس كى أدَارى نحافتى .

وأحب اللوحات الجميلة المعبرة ، ولو كان معى فلوس ، لكان بيتى شبيهًا بمتحف محمد محمود خليل .

* هل تعير كتبك ؟

– أنا فقدت مكتبة كاملة بسبب هذه الإعارة .

* ما أهم مقتنياتك ؟

– لوحات الأصدقاء مصطفى أحمد ، وسعد عبد الوهاب ، وجورج البهجورى ، وبهجت عثمان .

* * *

* ما خلاصة مشوارك فى الحياة ؟

– أنا ضعيف فى الحكم والمواعظ . أما إذا اعتبرت أن هذا المشوار جدير بأن يوصف ، فهو مشوار عمل متصل . قد تكون نتائجه أقل مما ينبغى من حيث الكم ، لكن هذا هو ما استطعته ، وهو أقصى ما يمكننى أن أقدمه بكل إخلاص .

* * *

الحياة

صور وأصدقاء وتأمل منفرد



بهاء طاهر فى الثالثة من عمره .



مع حفيده الأول « نديم »



في زفاف ابنته الأولى " لينا "



في براغ مع زوجته الثانية "ستيفكا" ١٩٩٦ م



فى كندا يوقع الترجمة الإنجليزية لـ « خالتى صفية والدير » ١٩٩٦ م



في المغرب ، يستعد لإجراء حوار تليفزيوني سنة ١٩٩٦ م .



في اللاذقية بسوريا ، مع عبد الرحمن الأبنودي وحنا مينا وعبد الوهاب البياتي وعلي عبد الكريم وآخرين سنة ١٩٩٧ .



مع أحمد عبد المعطى حجازى بالخرطوم سنة ١٩٨٨ م .



فى إتحاد الكتاب مع إعتدال عثمان وسعد الدين وهبة وصلاح فضل وحمدى قنديل .



فى إيطاليا عام ١٩٩٨ م مع محمد البساطى وشدى بركات وسلوى بكر .



فى نادى الشمس عام ١٩٩٦ مع الفنان عمر الحريرى فى ندوة عن مسلسل خالتى صفية والدير .



فى مؤتمر الرواية عام ١٩٩٨ ، مع إبراهيم أصلان ، يوسف أبو رية ، حليم بركات .



مع المخرج إسماعيل عبد الحافظ فى ندوة أخرى عن مسلسل خالتى صفية والدير عام ١٩٩٦ .



فى مؤتمر التضامن الأسيوى الإفريقى عام ١٩٩٦ .



فى بورسعيد عام ١٩٩٩ مع قاسم مسعد عليوه وجاد النبى الحلو .



فى بيته عام ١٩٩٨م مع چورچ البهجورى .



فى مكتبة بالقاهرة الكبرى مع صبرى حافظ ومى التلمسانى وبطرس الحلاق .



فى إتحاد الكتاب سنة ١٩٩٧ م مع محمد التهامى . محمد أبو دومة . حمدى الكنيسى . فؤاد قنديل .

















بهـــاء طــــاهر

- من مـواليـد مـدينـة الجـيـزة عـام ١٩٣٥م ، لأبـوين من قـرية الـكرنـك فـى صـعيد مصـر .

- تلقـى تعليمـه الابتـدائى والثـانوى بالجـيـزة ، وتخـرج فـى كليـة الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٥٦م .

- أنهى دراسات عليا فى التاريخ ١٩٦٥م ، والإعلام ١٩٧٣م .

- بدأ العمل قبل تخرجه منذ عام ١٩٥٥ ، مـترجمًا فى مصلحة الاسـتعلامات المصرية ، والتحق بالإذاعة عام ١٩٥٧م ، حيث عمل فى البرنامج الثانى مذيعًا ومخرجًا ومقدم برامج ، وعمل فى إذاعة صوت العرب من ١٩٥٩م إلى ١٩٦١م .

- أصبح منذ عام ١٩٦٨م نائبًا لمدير البرنامج الثانى .

- فى عـام ١٩٧٥م اضـطر إلى تـرك العـمـل فى الإذاعـة والتـوقف عن نشـر الأعمال الأدبية .

- فـى الفترة مـن ١٩٧٦م حتى ١٩٨١م ، عـمل مترجـمًا حـرًا مع منـظمات الأمم المتحدة المختلفة .

- استقر فى جنيف منذ عام ١٩٨١م ، حيث عمل مترجمًا فى مكتب الأمم المتحدة حتى تقاعده فى ١٩٩٥م .

- عمل بالتدريس محاضرًا خارجيًا فى أكاديمية الفنون ، وفى كلية الإعلام ، وفى معهد الترجمة بجنيف .

- نشر له : الخطوبة ١٩٧٢م ، بالأمس حلمت بك ١٩٨٤م ، أنا الملك جئت ١٩٨٥م قالت ضحى ١٩٨٥م ، شرق النخيل ١٩٨٥ ، خالتى صفية والدير ١٩٩١م ، الحب فى المنفى ١٩٩٥م ، ذهبت إلى شلال ١٩٩٨م ، نقطة النور ٢٠٠١ م

- وصدرت له الأعمال : فاصل غريب ، ترجمة لمسرحية يوچين أونيل ١٩٧٠م ، البرامج الثقافية فى الإذاعة .. دراسة نظرية ١٩٧٥م . مسرحيات مصرية (عرض ونقد) ١٩٨٥م ، أبناء رفاعة .. الثقافة والحرية . دراسة ١٩٩٣م . ساحر الصحراء ، ترجمة لرواية باولو كويلهو ١٩٩٦م .

- نال جائزة الدولة التقديرية للفنون والآداب عام ١٩٩٨م .

- ترجمت أعماله إلى عدة لغات ، خاصة « خالتى صفية والدير » التى ترجمت إلى ٩ لغات ، وفازت بجائزة « أتشيربى » الإيطالية ، كأفضل رواية مترجمة عام ٢٠٠٠ م .

- قدمت عن أعماله عدة رسائل جامعية ، فى الداخل والخارج ، لنيل درجتى الماجستير والدكتوراه .

* * *

قريبًا من بهاء طاهر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٩٦٤ / ٢٠٠٤

بهاء طاهر معنى جديد. إنه وحيد وشديد الكبرياء ، وعابر كبير. وهو ابن حقيقى للحضارة المصرية، قد تختلف فى تقييم الحساب النهائى له.. إنسانًا وكاتبًا ، لكنه يبقى كدليل حى يقوى ثقتنا فى أنفسنا ، ويمنحنا قدرًا هائلاً من الثقة فى قدرات الفرد على احتمال الحياة.

... إنه بهاء طاهر ، بسريته وغموضه ، ببساطته الباهرة وعمقه ، بروحه اليقظة دائمًا. ثم إنه شخص حزين ، قبل كل شىء آخر!

وفى هذا الكتاب يتحدث بهاء طاهر عن المنفى ، والكتابة، والموت، والأصدقاء، والوطن، والأنبياء، والحداثة، والمرض ، والعولمة، والتراث.. عن طه حسين ، نجيب محفوظ ، العقاد، صلاح عبد الصبور، الملك فاروق ، جمال عبد الناصر، السادات ، يوسف إدريس، فاتن حمامة ، توفيق الحكيم ، سعد لبيب، محمود مرسى ، سناء جميل..

ويتحدث عن "الرواية" التى يطاردها ويبحث عنها فى كل مكان.

...إنه يحكى - ببساطة نبيلة ومدهشة - عن كل شىء فى حياته.. أعظم رواية على الإطلاق!

الغلاف / نسرين كشك

المجلس الأعلى للثقافة